لعنة ميت رهينة

رواية

سهير المصادفة

الد نية

ساحر الكتب

لعنة ميت رهينة

سهير المصادفة

لعنة ميت رهينة: رواية/سهير المصادفة .- ط2.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2018.

272 ص؛ 20 سم.

تدمك: 9789777951081

1- القصص العربية.

أ- العنوان. 813

رقم الإيداع: 2016/ 27826

©

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ربيع ثان 1438 هـ - يناير 2017م

الطبعة الثانية: مارس 2018م

الدار المصرية اللبنانية

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميّا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

لعنة ميت رهينة

رواية

سهير المصادفة

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى لؤي... للمرَّة الخامسة.

الغريب

الداخل إلى ميت رهينة سائرًا على قدميه، سيجد تقاطعَ طُرق، فيهزُّ رأسه حائرًا، وإذا ما قرر الانحراف يمينًا بزاوية حادة، فسيقف -لا محالة- شعر رأسه وتنغرس قدماه في الأرض، رافضة مواصلة السير بعد أن يجتاز كيلو مترًا واحدًا من الطريق الترابي الرئيس؛ ستكون عيناه قد شخصتا من مداعبة النسيم العليل للنخيل العالي، الذي سيبدو بلا نهاية، ومن أبراج الحمام، ومن المآذن، وهي تخترق السحب الرمادية والسوداء القريبة، ومن القباب الباهتة بنوافذها الصغيرة المتصدعة، ومن نسوة يحملنَ على رءوسهنَّ أكياس القمامة أو دِلاء المياه المتسخة ليلقينها في ساحة معبد «بتاح!».

ستنظر النسوة إلى الدخيل شزرًا ويغمضن أعينهن اليمنى ويفتحن اليسرى على اتساعها، في محاولة لتحديد هدفه من زيارة هذه القرية المهملة والمغلقة على سكانها، والغارقة في دوامات نفايات تطير في أجوائها، وهواء فضي ثقيل، يجبر الغريب على أن يتساءل في حيرة:

هل هذه هي أول عاصمة في تاريخ مصر؟!

ستجري خلفه أنصاف حلقات من الكلاب الضالة تنبح في شراسة، فقط لكسر مللها، ولكنها لن تؤذيه ولن تنهش جسده فهي متخمة بالطبع من أكوام القمامة، التي لا يرفعها أحدٌ عن الطرقات.

هذا هو الطريق المؤدي إلى قصر ليلى الشوَّاف، الشهير هنا بقصر الأشباح أو قصر الأرملة أو قصر المجانين أو قصر المسخوطة أو القصر الأخضر، أو تأدبًا قصر هاجر، وهاجر هي صاحبة القصر وأكثر من عشرين فدانًا حوله، على الرغم من التضييق على ملكية الأراضي في هذه المنطقة، حيث يقولون إن بها حوالي مئة وخمسين فدانًا من الآثار.

عبد الجبَّار أيوب هو أوَّل مَن شاهد الغريب، أدهم الشوَّاف، وهو يتجول على حافة ترعة المريوطية. كان عبد الجبَّار يسير مطوحًا ذراعيه القويتين وهارشًا شعر رأسه المشعث، وهو يفكر ماذا سيفعل في يومه هذا حتى يكسب عشرة قروش فقط لا غير، عيناه السوداوان الواسعتان كانتا تبحثان عن مخرج، وتنبشان الأرض بنظرات نارية علَّه يجد كنزًا ذهبيًّا مخبئًا منذ آلاف السنين، يسب بينه وبين نفسه هذه البلاد الفقر، التي لا يجد فيها النفر رغيفًا يغمس به الفجل والمش. كان ينحني ليلتقط ثمرات التوت، يفحصها ولا يأكلها ويحفر الأرض بغصن شجرة كافور جاف.

كان فجرًا ربيعيًّا من بدايات ربيع عام 1975 بدوامات رياح، جعلت الناس يغلقون عليهم أبواب بيوتهم حتى وقت متأخر على غير عادتهم. الشمس تريد أن تشرق على استحياء، وكان أدهم يتجول وحيدًا، وهو يرتدي قميصًا أبيض يشبه كثيرًا قميص الرئيس أنور السادات في صوره، وهو يتجول بين أشجار البرتقال في حديقة قصره بقرية ميت أبو الكوم. كان بنطلون أدهم الأزرق متسخًا، وعلى ذراعه يعلق جاكتة جلدية سوداء يراها عبد الجبَّار للمرة الأولى في حياته، فاقترب منه وظل يلمس الجاكتة الجلدية بإصبعه متعجبًا.

يميل وجه أدهم إلى اللون الأسمر بأنفٍ مستقيم وعينين تشبهان عيني صقر، لا يعرف أحدٌ عمَّ تبحثان بالضبط. لا شيء في هيئته يدعو إلى الاستغراب، ولكن في الوقت نفسه كل شيء فيه يعلن وبشكل حاسم أنه غريب، تشوش ذهن عبد الجبَّار فاقترب منه قائلًا بتردد: «السلام عليكم»، فابتسم له أدهم وفي ضباب الصباح ظهرت أسنانه المنتظمة اللامعة وابتسامته الآسرة ولهجته السعودية، التي أكدت
لعبد الجبَّار تخمينه: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

- «الأخ غريب؟».

ضحك أدهم، بما أشعر عبد الجبَّار- الذي بالكاد تجاوز العشرين من عمره منذ أيام- بالخجل: «أنا غريبٌ جدًّا. من المملكة...».

لا يمل عبد الجبَّار من تكرار الحكاية لأهل بلدته، يقول وهو يشير بغاب الجوزة في وجه مَن يجالسهم: «هل رأيتم من قبل مغفلًا يقود رجلًا إلى حبيبته ليتزوجها؟» ثم يضرب صدره بطرف الغاب ويصيح بحسرة: «أنا هذا المغفل الكبير»، ويسرح بعينيه في الأفق حيث تلتقي شواشي أشجار الصفصاف والكافور بالنجوم، ويهمس كأنه يحدث نفسه: «من فرط حبي لهاجر وخوفي أن يراها أوصلته إليها بنفسي».

بمجرد أن التقى عبد الجبَّار أدهم الشوَّاف، دقَّ قلبه بعنف وهو مرعوب ممَّا لا يعرف. عرف أنه فاحش الثراء، ومن عائلة كبيرة في الحجاز، وأنه شاعر، ولكنه يتملك شركة مقاولات كبيرة، ترك إدارتها لجيش من الموظفين من جنسياتٍ متعددة؛ أغلبهم من

المصريين، يترك إدارة كل شيء إليهم، ثم يهيم على وجهه في طرفٍ من أطراف العالم ليلتقط ما يلهمه بكتابة بيت شعري ما، ولقد جاء في زيارة عبر شركة مصر للسياحة ليزور دهشور، ولكنه تاه من المرشد السياحي، وهو كم يحب أن يتوه!

وجه هاجر هو أول ما قفز أمام عيني عبد الجبَّار، في أثناء استماعه إلى حديث أدهم عن الشعر والتصاوير، وجلوسه ليرتاح على بقايا أعمدة لا تُقدر بثمن، وسيره لساعات في سرداب سيؤدي لا محالة إلى السرابيوم؛ حيث سُجن يوسف الصديق ووقوفه طويلًا أمام أبي الهول المرمري. يحاول جاهدًا أن يشرح لعبد الجبَّار الفرق بين روعة هذا التمثال لأبي الهول الخالي من النقوش، وتمثاله الحجري الشهير بهضبة الأهرام، ثم يتحسر على موت أم كلثوم منذ شهر، مذكرًا نفسه بأنه لن يستطيع حضور حفلاتها الخميسية التي راحت إلى الأبد.

ولكن عينيّ عبد الجبَّار كانتا سارحتين في الفضاء البعيد خوفًا من أن تمر هاجر فيراها صائد الجمال هذا. صارت هاجر، التي لم تكمل عامها السادس عشر، حدوتة نساء القرية؛ فهنَّ لم يرين جمالها من قبل، قامة طويلة خيزرانية ريَّانة ووجه أبيض حليبي وأنف صغير ومستقيم بشموخ وشفتان حمراوان وممتلئتان مثل وردة تتفتح، وعينان واسعتان كحيلتان تحتلان نصف وجهها، وطابع حسن فاتن في ذقنها، وشعر فاحم ناعم يصل في شلالات لا تنتهي إلى وركيها.

سأله عبد الجبَّار وهو مشغول البال، يفكر في الرجال الغرباء كبار السن الذين يأتون إلى ميت رهينة ليأخذوا بناتها الصغيرات

إلى ما وراء البحر الأحمر: «متزوج؟».

يقهقه أدهم ويقول له في عتاب: «يا بني، أنا أكملت الأربعين عامًا، متزوج طبعًا ولديّ أربع من البنات».

ما لم يعرفه عبد الجبَّار أن أدهم، وكعادة الشعراء ضاق بحياته العائلية الرتيبة والعملية الصارمة، وقرر بعد وصوله إلى الأربعين- سن النبوة كما كان يردد دائمًا- أن يضرب في الأرض ليشاهد ما لم تره عيناه من قبل ليكتب القصائد، قرر أن يفعل كلَّ شيء من أجل الشعر بل أن يعيش فقط ليكتب شعرًا. وما لم يستطع عبد الجبَّار آنذاك التنبؤ به أن أدهم لن يكون مجرد عابر على ميت رهينة، بل سيقع في غرامها كما لم يُغرم رجل ببقعة أرض من قبل قطُّ، سيغرم بها أكثر حتى من غرامه بهاجر.

فجأة قال له أدهم بصوتٍ معذب: «أنا ميت من الجوع، لم آكل منذ يومين يا أخي»، ووضع في كفه لفافة أموال ورقية من فئة العشرة جنيهات خطف لونها الأحمر عينيه، نظر إليها عبد الجبَّار في دهشة وهو يصيح: «يا حبيبي يا أبو مدنة حمرا»، عدها وهو غير مصدق أن أدهم، هذا المجنون يريد شراء خروف ليشويه بمئتي جنيهًا؛ إذ إنها كانت كافية في ذلك الوقت لشراء خمسة قراريط.

استلقى أدهم على ظهره على العشب، على حافة الترعة، وغاب وهو يتأمل صعود الشمس وهي توزع أشعتها بعدل على السماء، هزَّ رأسه في لا مبالاة، حينما نبهه عبد الجبَّار أن قميصه سيتسخ، وجعلته الجنيهات الحمراء يهرول بحثًا عن حصير يستلقي عليه

الغريب، لكي ينفذ ما انتواه، سيشتري خروفًا سمينًا من عم إسماعيل، وسيجمع بصلًا وثومًا وأي خضار يجده في طريقه من الحقول، ثم سيمر على عُشة هاجر بنت عم لطفي مرجيحة، ليقول لها أن تلزم عُشتها هذا اليوم؛ لأنه قادم باللحم المشوي والمهر ليخطبها.

لطفي أبوها هو مالك الأرجوحة الوحيدة في القرية، وظل اسمه يتطور على ألسنة الأطفال من «عم لطفي صاحب المرجيحة» إلى «لطفي مراجيح» حتى استقروا على اسمه في النهاية: «عم لطفي مرجيحة»، وأرجوحته بقاربين يركب فيهما الشباب قبل الأطفال، أحيانًا لكي يتأرجحوا لتمضية وقت فراغهم، بعد أن تتمزق بين أقدامهم كل كرات القدم المصنوعة من قصاصات يسرقونها من أثواب أمهاتهم ويحشون بها جواربهم، وأحيانًا أخرى يتأرجحون؛ لكي يلمحوا هاجر وهي تتحرك حول العُشة لتقضي حاجات المنزل، أو تجلي أوانيها وتغسل ملابسها وملابس أبيها في الترعة، أو ليكونوا فقط إلى جوارها وهم واثقون بأنها تستمع إلى صياحهم ونكاتهم، وهي راقدة على سريرها بين الصحو والمنام.

«عم لطفي مرجيحة» ضيق الخلق وعجوز بذيء اللسان، يردد كل مَن يراه سائرًا إلى جوار ابنته الفاتنة الهادئة، التي لا يُسمع لها حسٌّ: «سبحان الله! وردة وسط شوك؟!» كانت عيناه مدورتين وجاحظتين مثل عيني ضفدع وأنفه مثل الجزرة الحمراء وصلعته مضحكة مثل حذاء الفرس، لأنه يترك ما تبقى من شعر على جانبيها هائشًا ومشعثًا وطويلًا، فهو لا يذهب إلى الحلاق أبدًا.

يبدأ يومه في الخامسة صباحًا بالصياح بصوتٍ عالٍ، طالبًا من هاجر أشياء لا تنتهي لتجلبها له من العُشة، بينما يدور حول أرجوحته يدهن بالفرشاة صدأ حديدها، خوفًا من أن تأكلها البارومة، يسب العفاريت الصغار كما يُسمي زبائنه من الأطفال الذين يدفعون قرش تعريفة مخروم ويخربون مقابله أرجوحته التي هي رأس ماله، يدعو على مَن أنجبوهم بالخراب والموت حرقًا، بينما تحوم هاجر حوله صامتة، وهي تلقي أمامه على الأرض بغيظ خرقة قديمة أو فرشاة مغموسة في صفيحة الجاز أو ورقة من جريدة قديمة، ولكنه لا يكفُّ أبدًا عن الصياح بصوت حاد ذي طبقة واحدة مثل سارينة القطار. يرسم في هذه الأثناء على كل من قاربي التأرجح نجومًا زرقاء وما يشبه الطيور الخضراء وورودًا بنفسجيًّا، ثم ينهمك في تلوين حديد المرجيحة الذي يحمل قاربي التأرجح باللون الأسود.

تجلس هاجر إلى جواره على الأرض، وهي تستمع إلى أدعيته على خلق الله، وأحيانًا تبتسم إذا ما ابتكر دعاءً أو سبابًا جديدًا، كأن يحاول خفض صوته العالي الذي لا ينخفض أبدًا: «لا، وبديعة العمشة على وش ولادة من العجل كلب البحر عوضين، طيب يا ربي، هي العمشة ممكن تفقس بني آدم عادي يعني؟!».

******

يترك عبد الجبَّار أدهم نائمًا على الحصيرة الممزقة التي جلبها له، وينطلق لشراء خروف، قرر أن يمر أولًا على هاجر، فهو يعلم جيدًا أن «عم لطفي مرجيحة» أوشك الآن - دون شكٍّ- على الانتهاء من دهان أرجوحته وسيتركها في حراسة هاجر حتى

يستيقظ الأولاد الصغار، وسيذهب إلى صيد السمك من ترعة المريوطية لمدة ساعة أو ساعتين، حتى يجف الدهان.

أنجب لطفي ابنته هاجر، وهو في الخمسين من عمره، بعدما طلق امرأتين اعتقد أنهما لا تنجبان ولكن كلًّا منهما تزوجت بعد طلاقها منه، فأنجبت إحداهما أربعة أطفال وأنجبت الأخرى ستة أطفال، وفي أحد شجاراته على مقهى البلدة الوحيد، سبه أحد الشباب قائلًا له بصوتٍ عال وهو يفرد أصابع كفيه العشرة: «عشرة يا لطفي»، فضج الحاضرون بضحك هيستيري، وانفضت المشاجرة بعودته إلى عُشته منكسرًا، ولما انتشرت جملة «عشرة يا لطفي» كما تنتشر النار في روث البهائم على أسطح بيوتهم من آنٍ إلى آخر، وكان لطفي يعتبرها فضيحة فقرر أن يتزوج سندس المطلقة حديثًا بسبب كونها عاقرًا مثله أيضًا، حتى يعيش في سلام، ويثبت للجميع أن الإنجاب قسمة ونصيب من عند المولى.

وبعد مرور عشرين عامًا من زواجهما، يشاء السميع العليم أن تحمل سندس وتلد هاجر، ولكنها تموت بعد ولادتها بسبعة أيام وأهل البلدة يمصمصون شفاههم وهم يرددون: «عضمة كبيرة يا ولداه»، أو «ولاد الكبارة يتامى»، هذا ما كان يتردد على أذني هاجر طوال سنوات طفولتها، رباها أبوها بنفسه وعافت نفسه النساء بعد موت أمها وغير مهنته من مُزارع باليومية إلى صاحب أرجوحة؛ حتى تظل هاجر طوال الوقت في حجره ولا تغيب لحظة عن عينيه.

يرتفع عبد الجبَّار عن الأرض قليلًا، ويكاد يطير كلما نظرت هاجر إلى عينيه بعينيها السوداوين، بسوادهما اللامع الذي ينثر أشعة خضراء أو زرقاء من شدة حلكته على حسب درجة الضوء، يرفرف قلبه بشدة ويكاد يغادر قفصه حتى أنه يضطر إلى وضع يده على صدره! تغيم عيناه وتدور رأسه، طالما كانت واقفة أمامه أو حتى يعرف أنها بالقرب منه. ينتظر أن تنهض من مكانها ويظل يبحلق إلى شلالات شعرها الأسود، الذي تحرر من طرحتها الزرقاء الشيفون، ويكافح لكي يسيطر على أنفاسه المتسارعة، وهو يقول لها: «صباح الفل
يا ست البنات»، تستدير وهي تسارع بوضع الطرحة على شعرها، ولكن نظرة عينيها تتجاوزان عينيه إلى ما وراء كتفه وتتسعان بدهشة، بينما أصابعها الرقيقة تبرم طرف الطرحة بتوتر.

يلهث عبد الجبَّار مع نظرة عينيها فيجد أدهم واقفًا متمسمرًا خلفه تمامًا، تقريبًا يمر بالأعراض نفسها التي تنتاب عبد الجبَّار، يصيح عليه: «الله يخرب بيتك. إيه إللي جابك ورايا؟»، فيهمس أدهم وهو لا يحول عينيه عن هاجر: «خفت أن تسرق أموالي»، كأنما سُحبتْ روحه منه؛ كان أدهم لا يقوى على مواصلة الكلام، وعبد الجبَّار أصبح مثل الثور الهائج يدور حولهما وهما في مكانهما متمسمران. يفتح له عبد الجبَّار كفه ويقول: «هذه أموالك يا عمنا، توكل على الله، في حفظ الله»، ولكن أدهم يهمس بصعوبة: «هذا المكان أحسن، سنشوي الخروف هنا»، فيصرخ عبد الجبَّار: «يا عمنا، هذا البلد لا يبيع خرفان».

يومها كان عبد الجبَّار يصارع قدره وجهًا لوجه، فكلما أراد الإمساك بهاجر وحماية حلمه بالزواج بها من الضياع، كانت تتسرب هاجر من بين أصابعه كما يتسرب منها الماء، وأصبح واضحًا أن حلمه قد تبدد تمامًا مع مواصلة صعود الشمس إلى منتصف السماء. يخرج عن خجله أمامها ويصرخ في وجهها وهو يراها لا ترفع عينيها الجميلتين عن الغريب: «الرجل عنده أربعون عامًا وزوجة وأربع بنات يا هاجر»، ويعاود النظر إلى أدهم الهائم في ملامح وجهها، ويشعر باليأس، فلو أنه أقسم بالمصحف الشريف أن سن هذا الرجل أربعون عامًا لما صدقه أحدٌ، كان الرجل وسيمًا، نحيفًا كرمحٍ، يمنح الثراء بشرته لمعة غريبة غير معهودة في وجوه رجال ميت رهينة الكالحة والمتغضنة منذ سن الثلاثين، شعره أسود متموج مثل التاج على رأسه، وليست به شعرة بيضاء واحدة.

فجأة يشير أدهم إلى لطفي مرجيحة ويسأل هاجر شبه هامس: «جدك؟» فيجيب عبد الجبَّار حانقًا، وهو يحاول أن يخفض صوته: «أبوها يا أخي. أبوها. فارقنا، الله لا يسيئك»، ويلقي أمواله في وجهه فتقع على الأرض، يتركها أدهم، فيطير منها ما يطير، ويتحرك نحو العجوز الذي يحاول الجري فيبدو كبطة عرجاء مقوسة الرجلين، وبدلًا من أن يتوقف أمام الغريب ليسأله عمَّا يريد، ينحني ليجمع الأموال قبل أن يأخذها الهواء بعيدًا، يبتسم أدهم وتظل يده ممدودة إلى العجوز حتى ينتهي من جمع المال، ويقبض عليه بكلتا يديه، ثم ينتصب واقفًا وعيناه تزدادان جحوظًا وهو يتأمله للمرة الأولى ثم يصيح: «نعم. خير اللهم اجعله خير. نعم يا سيدي. أي خدمة؟»، وهنا تنفجر هاجر ضاحكة، ويقسم عبد الجبَّار لمَن يسمع حكايته عن هذا اليوم أنها

-وبشهادة كل أهل البلدة- لم تضحك من قبل أبدًا ومذ وُلدت، وأن ضحكتها التي يسمعها عبد الجبَّار للمرة الأولى في حياته، كانت تشبه كثيرًا زقزقة سرب عصافير، أطلقوا سراحه بعد حبس طويل.

شرح أدهم لعم لطفي بسرعة حكايته حتى وصل إلى رغبته في شراء خروف وشوائه هنا والتهامه معهم ومع أقاربهم إذا أحبوا، فتجول لطفي بعينيه المستديرتين حوله، وتوقفت عيناه عند عبد الجبَّار كأنه لم ينتبه إلى وجوده إلا في تلك اللحظة، فصرخ في وجهه: «مالك يا بن مرزوقة، واقف كما التيس. خذ لك طريقًا يا بني، امشِ من هنا وحياة حبيبك النبي، خلاص، روحي قربت تطلع»،

دخلت هاجر إلى العُشة، بالتأكيد لكي تطلق لضحكتها هناك العنان، ومنذ هذا اليوم لن يسميها عبد الجبَّار أبدًا باسمها، بل سيدعوها دائمًا بالفاجرة، وسيفهم المستمع على الفور أنه يقصد هاجر. فمثلًا سيقضي أمسياته كالعادة جالسًا على ترعة المريوطية يمص عيدان القصب مع رفاقه، أو يبتلع حبَّات التوت وهو يحكي لهم أنه ذهب إلى أدهم الشوَّاف، وقال له إنه هو مَن كبَّر لها ثدييها في غيط الذرة البعيد قِبلي القرية...

لكن النطع أدهم ابتسم حتى بانت نواجذه وأجابه بصوت حزين وفي غاية الأدب: «هكذا! إذًا شكرًا لك يا عبد الجبَّار»، أو يسير معهم أكثر من أربعة كيلو مترات ذهابًا خارج ميت رهينة ومثلها عودة وهو يحدثهم عن آخر أخبار هاجر، صارخًا بأن أدهم اشترى للفاجرة عشرين فدانًا ولطفي مرجيحة المقشف سيصير

من ذوي الأملاك وصاحب طين، ثم يضحك ضحكًا هيستيريًّا: «المعفن، كان يظن أن أدهم كتب الأرض باسمه، لكن أدهم الثعلب الكبير كتبها باسم الفاجرة طبعًا».

يومها بعد أن طرد عم لطفي عبد الجبَّار، كما ينش ذبابة لحوحة، أخذ عبد الجبَّار يولول ويصرخ شاتمًا إياه: «تبيع ابنتك، لحمك يا رجل»، فيخرج له عم لطفي من العُشة ليقذفه بحجر حتى يتفرغ لالتهام الخروف مع الغريب، ومواصلة الحديث في تفاصيل الزواج: «امشِ يا بن مرزوقة، وخلي يومك الأسود يفوت، يا بني، خليني أروح أزور قبر حبيبي النبي قبل ما أموت» ويكاد يرقص من الفرحة، وهو يكرر: «أدهم باشا سيأخذني لأزور قبر حبيبي النبي، سأرجع لكم
يا أولاد الزواني واسمي الحاج لطفي».

اتفق أدهم الشوَّاف مع لطفي مرجيحة على أن يشتري عشرين فدانًا، هي مهر هاجر من زمام أرض إبراهيم باشا الشرقية، وأنه سيحيل العُشة في مكانها نفسه إلى قصر به عشرون غرفة، وأنه سيخبئ القصر بأشجار المانجو والبرتقال والليمون والتوت والنخيل، وأنه سيحفر بِركة تجري فيها مياه النيل الخضراء الرقراقة لست الحسن والجمال، وأنه سيشتري لها عصافير وببغاوات وطواويس من شتَّى أنحاء العالم حتى تسليها بالغناء، واشترط شرطًا واحدًا بدا لهاجر وأبيها غريبًا، كان شرطه ألا تمسسها ماشطة القرية ولا أية امرأة أخرى، وألا تحفف جسدها حتى بنفسها، وكرر جملته الصارمة أكثر من مرة: «أريدها هكذا كما هي، كما خلقها ربي».

بعدها، بدأ أدهم رحلاته المكوكية لإنهاء أطنان من الأوراق والحصول على الأختام المطلوبة في حجرات سيئة التهوية وضيقة وتحت الأرض ومليئة بالجرذان، يجلس في آخرها عادة رجل بنظارات زجاجها أسمك من قعر كوب الشاي. عرف أدهم أن هذا الموظف يحصل على مرتب قدره سبعة عشر جنيهًا كل شهر، فكان جيبه لا يخلو من المشغولات الذهبية الصغيرة أو رزم الأموال الملفوفة خصوصًا لهذا الغرض، كان الكثير منهم ينظر إليه بازدراء
ولا يقبل أخذ ما كان يطلق عليه هدايا، ولكنه ينجز عمله بسرعة، وبعضهم يفرح بهداياه ويأخذها، فكانت النتيجة أن اشترى الأرض التي أشار إليها وسيارة كاديلاك حمراء موديل 1966، هي الوحيدة من أملاكه في مصر، التي كتبها باسم لطفي مرجيحة، كانت الكاديلاك بأمتارها الست أطول من طول العشة التي عاش فيها لطفي طوال عمره.

انهمك لطفي في مشاوير لا تنتهي ليستخرج جواز سفره ويستكمل نقل ملكية سيارته الجديدة وترخيصها ويتعلم قيادة السيارات، أهمل أرجوحته لتصدأ في مكانها، ولكنه استخدم كل ما تبقى من صفائح الدِّهان في تلوين جدران العُشة، راسمًا عليها طائرة زرقاء محلقة، والكعبة السوداء المشرفة، وجملًا يجره رجلٌ سمينٌ أصلع يشبهه في ملابس الإحرام البيضاء، وكتب له خطاط القرية تحتها: «الله أكبر. حجٌ مبروك وذنبٌ مغفور يا حاج لطفي».

عندما استيقظ لطفي مرجيحة من غيبوبة سعادته، اكتشف أن أدهم خدعه وكتب الأرض باسم هاجر، وأنه لم يبصم على حجة حيازة

الأرض إلا كشاهد، سكت تمامًا ولم يستطع فعل شيء، ففرح هاجر لم يتبق عليه سوى يومين، وسفره إلى السعودية ليحج هذا العام بعد الفرح بيومين، كما أن روحه في الواقع كانت محلقة في الحكاية الأسطورية، التي تشبه حكايات ألف ليلة وليلة ولكنه يعيشها ساعة بعد ساعة ويومًا بعد يوم، ويتحاشى كل ليلة الاقتراب أو الحديث مع أحد من أهل قريته؛ حتى لا يضربه على قفاه فيوقظه ليكتشف أنه كان مجرد حلم.

يخبط عبد الجبَّار كتف محدثه، ويصيح بحروفٍ متلعثمة جرَّاء تعلمه شرب البوظة هذه الأيام: «يا سلام! فستان فرح الفاجرة بنت الجعر لطفي مرجيحة، ولا فستان الملكة ناريمان».

يحكون أن عبد الجبَّار اختفى لمدة شهرين كاملين، بعد أن زاره أدهم في صباحية دخلته على هاجر. دق عليه باب بيته ففتح له الباب وهو يفرك عينيه، أعطاه منديلًا حريريًّا أبيض ملوثًّا بدم عذرية هاجر، وقال له في هدوء: «امرأتي لم يمسسها رجلٌ قبلي، أليس كذلك
يا عبد الجبَّار؟!» ثم ألقى بالمنديل الحريري في وجهه قائلًا: «أبوها سيسافر إلى السعودية، فاحتفظ به، لسنا في حاجة له»، ثم عاد بعد أن سار خطوات، وقال بصوتٍ شديد الصفاء والصدق: «شكرًا لأنك زوجتني أختك يا عبد الجبَّار».

لم يُقدر للطفي مرجيحة أن يعود إلى ميت رهينة أبدًا، لم يُقدر له أن يغير اسمه من لطفي مرجيحة إلى الحاج لطفي. فلقد مات بعد الحج بعشرة أيام، بينما كان أدهم مشغولًا كل يوم بذبح الذبائح لأهل القرية حتى بعد انتهاء عيد الأضحى. وأصبح مصدر

شجارات الجميع أمرًا واحدًا، وهو حول مَن سيعمل الآن في بناء قصر هاجر؟

أتاهم خبر موت لطفي مرجيحة وعرفوه قبل هاجر نفسها؛ إذ إن أدهم كان يذهب بالسيارة الكاديلاك الحمراء كل يوم اثنين إلى السنترال في الجيزة ليتصل بأهل بيته في المملكة، ويطمئن على أحوالهم. توقف قبل أن يصل إلى البيت وطلب مساعدة الخالة تبارك الماشطة وعرافة القرية وأكبر نسوتها سنًّا، والأهم من هذا كله، الوحيدة التي كانت تعطف على هاجر وتحبها كثيرًا، كان مطلوبًا منها أن تخبرها بأنها لن ترى أباها أبدًا لا حيًّا ولا ميتًا؛ لأنه أوصى زوجة أدهم الأولى قبل موته بلحظات أن يُدفن إلى جوار الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.

ظلت القرية تضرب كفًّا بكفٍّ، وهي تحكي حكاية جرأة أدهم الذي أرسل والد زوجته الجديدة إلى بيته؛ حيث يعيش أبوه وأمه وزوجته الأولى وبناتها الأربع. عرفت الخالة تبارك من هاجر أن زوجته الأولى اسمها ريتاج، وأنها أكملت الأربعين عامًا، وأن ابنتهما الكبرى أكبر من هاجر وهي متزوجة، ولديها ابن اسمه عمر، حفيد أدهم الأول.

******

ارتفع قصر هاجر وغُلقت أبوابه عليهما بعد شهرين من تخطيط المهندس عمَّار المصري، الذي ساقه أدهم إلى عُشة هاجر محددًا له مكان القصر. كان أدهم قد وقف طوال الظهيرة أمام بيت القاضي، البيت الوحيد المبني بالطوب الأحمر في ميت رهينة

والأعلى، إذ إنه يتكون من ثلاثة طوابق، تحيط بها أعمدة فرعونية تعلوها حليات من أزهار اللوتس الجيرية البيضاء، وشرفات كأنها خارجة من كتب الحكايات، مكونة من مسلات صغيرة الحجم بلون الرمل، وعليها نقوش هيروغليفية.

سأل أدهم عمَّن بنى هذا القصر، فأجابته الخالة تبارك باقتضاب بأنه المهندس عمَّار المصري، ثم زمَّت شفتيها وأخبرته بجفاف؛ حتى لا يواصل أسئلته، أنه جُنَّ بعدها وترك المعمار كله، وهو الآن يهيم على وجهه ليلًا ونهارًا في أحراش ميت رهينة. وعلى الرغم من أنها أوصته أن يبتعد عنه حيث إن لعنة عمَّار المصري تحل على الأماكن التي تدب عليها قدماه ليحفرها فتنفجر المصائب تباعًا، فإن أدهم الذي لا يعرف المستحيل بحث عنه، حتى وجده إلى جوار قطيع من الماعز والخرفان على حافّة ترعة المريوطية.

ميَّزه بصعوبة في الليل عن بقية القطيع، وجلس إلى جواره وقال له، وكأنه يُكمل حديثًا انقطع فجأة بالأمس: «قم معي يا عمَّار، أريد أن أريك شيئًا»، وأمسك بيده حتى وصلا إلى عُشة لطفي مرجيحة، فأطلق عليه خرطوم الماء وأمره أن يدعك جسده بقطعة صابون كاملة، وألبسه قميصًا وبنطلونًا من ملابسه، ولا يدري أحدٌ كيف أقنعه أدهم بالعودة إلى البناء، فقط كان أهل ميت رهينة يضربون كفًّا بكف، ثم يمصمصون شفاههم وهم يستيقظون كل يوم على ارتفاع جديد في القصر مرددين: «هذا شغل عفاريت، والعياذ بالله».

أصبحت تسليتهم الوحيدة هي التجسس على هاجر وأدهم من خلف السياج الأخضر القصير، لم تكن أشجار السياج قد نبتت وامتدت من جذورها بعدُ، كانت جدران القصر مطلية بلون ورق الكرنب الأخضر الفاتح، ونوافذه وأبوابه خضراء بلون البرسيم، ولذلك كان الأطفال الصغار يسمونه القصر الأخضر.

رأوا أدهم وهو يحملها على ظهره ويجري بها حين تطلع الشمس الشتوية، أو يعدو خلفها حتى يوقعها خلف التلال الصخرية التي تقطع الأرض المزروع معظمها، وعلى امتداد البصر بالبرسيم الفحل والكرنب، فيختفيان بما يفعلان عن أعين المتلصصين من شباب القرية، ورأوه وهو يجلسها على حافة الحفرة الهائلة التي ستكون بِركة هاجر فيما بعد، ويتأملها وفي يده اليسرى دفتر وفي اليمنى قلم، فهل كان يكتب فيها قصيدة من قصائده التي لم تعش طويلًا؟ كان شعرها منسابًا وممتزجًا بحشائش الأرض ويداها تغلقان المعطف الأزرق الفاخر من الصوف الإنجليزي الذي اشتراه لها، وعيناها تبدوان متسعتين بشكلٍ مفزعٍ وجفناها ملوثان بالأزرق في محاولة منه أن يضع لهما ماكياج نفرتيتي.

******

عندما عاد عبد الجبَّار من اختفائه المفاجئ، رفض رفضًا باتًّا أن يقول أين كان ومع مَن أو ماذا فعل، وجد أدهم يكاد يُجن في القرية فهاجر تتوحم على أشياء، لا يمكن إيجادها في هذا الوقت من السنة، تصحو من نومها هامسة بصوت طفلة: «نفسي في برقوقة واحدة
يا أدهم»، أو تجبره على الخوض في وحل الأرض، وهي تقسم

له أنها تشم رائحة بطيخ قريبة، وعليه أن يبحث عن مصدرها ليجلب لها واحدة، أو تبكي بكاء لا ينقطع، وهي تذكره بوعده أن يشتري لها مانجو وفراولة والوقت عزِّ الشتاء.

رآه عبد الجبَّار حيث قابله للمرة الأولى على حافة الترعة تحت شجرة التوت العجوز، فبادره أدهم: «أريد أن أشتري بطيخة وفصوص فراولة وبرقوق ومانجو بأي ثمن يا عبد الجبَّار»... عبد الجبَّار الذي تعلم أخيرًا تدخين السجائر مع شرب البوظة، نظر إليه بغيظٍ وخطف منه علبة سجائره الذهبية، وظل يتأمل رأس نفرتيتي عليها، ثم قال بعد صمتٍ طويل: «هات». أخرج أدهم لفة من الأوراق المالية، وهو يطبطب على ذراعه ويردد بلهفة: «بأي ثمن يا عبد الجبَّار، بأي ثمن، هه، لا تعود من دون ما طلبت».

سافر عبد الجبَّار إلى بور سعيد، فلقد أخبره أحد الرجال في بوظة «السكري» ذات ليلة أنها تحولت منذ أيام إلى منطقة حرة، وعندما سأله ماذا تعني «منطقة حرة؟!» ضحك وهو يجيبه بأنه يمكنه شراء كل شيء منها حتى لبن العصفور.

صحيحٌ أن عبد الجبَّار غاب أسبوعين كاملين ولكنه عاد مع نهايتهما بكل ما طلبه أدهم وأكثر، بل وجد طريقًا ظل يبحث عنه طويلًا، أصبح «تاجر شنطة» ميت رهينة، يجلب لسكان القرية كل ما يحتاجون إليه من غرائب السلع. هو أوَّل مَن أدخل إلى القرية الراديو الترانزستور بدلًا من الراديو الفيلبيس الخشبي الضخم، الذي كان يحتل نصف رفٍّ في دكان السكري، أعلى أرفف الشاي والسكر وفحم الجوزة التي كان يبيعها لأهل القرية

صباحًا، ويُجلس رواده على دكتين خشبيتين مظللتين بسعف النخيل فيما يُشبه المقهى ليستمعوا عبر أثيره إلى حفلات أم كلثوم ومسلسل الخامسة مساء والصور الغنائية وحكاية أبو زيد الهلالي أو حكاية عزيزة ويونس، ثم مع دخول الليل يحوله إلى بوظة للسكارى.

جلب عبد الجبَّار لنساء ميت رهينة الكومبليزيونات اللامعة الرقيقة التي كان سمكها مثل سمك ورقة السيجارة بدلًا من قمصانهن المصنوعة من البفتة البيضاء وتيل نادية، أو المصنوعة من الساتان واللاميه اللامع ورمش العين لبنات الأكابر في القرية... جلب لأهل القرية التفاح الأمريكاني فتعرفوا إليه للمرة الأولى، وبذور فواكه سيزرعها بنفسه فيما بعد، وعلبًا من اللبان الملون المسكر بنكهة كل الفواكه، وهم الذين كانوا لا يلوكون إلا اللبان المُر الذي يُباع على هيئة قطع عند العطار، وباع لهم اللوز والجوز ولعبًا بلاستيكية لأطفالهم، فتمردوا على أهلهم ورموا العروس القماش المحشوة بالقطن بضفيرتيها السوداوين في ترعة المريوطية.

تبدل حال عبد الجبَّار خلال أقل من عام، واستيقظت قرية ميت رهينة ذات صباح لتجده الأكثر ثراء ومهابة وقوة. أصبح يتحاشى الأماكن التي قد يتواجد فيها أدهم أو هاجر، بل يترك المجلس إذا ما تناول أحدٌ سيرتهما.

ظل يهرب من مطاردة العائلات الكبيرة لاصطياده كزوج لإحدى بناتها، ولكنه وقع قبل أن ينتهي العام الأول على زواج هاجر فريسة لعائلة القاضي، خطب هند صغرى بنات محمد القاضي

وأحلاهن، ولكنه كان كلما نظر إليها لا يجد تلك الرعدة التي كانت تنتابه، وهو ينظر إلى عيني هاجر، فعينا هاجر كانت تعكسان بوضوح عضلاته المفتولة القوية وكتفيه العريضتين وقامته الطويلة، كان يشعر أمامها أنه شمشون الجبَّار، وأنها ست الحسن والجمال التي تنتظر فرصة لتتهاوى بين أحضانه، لم يكن بين هاجر وهند شبه على الإطلاق إلا بداية اسميهما بحرف الهاء.

لم يعرف أحدٌ في ميت رهينة كيف أصبح عبد الجبَّار ثريًّا بين ليلة وضحاها، عبد الجبَّار الذي كان يضع فردتي بُلغته تحت إبطه ويمشي حافيًا حتى تعيش بُلغته أطول فترة ممكنة، صار يمتلك أكبر زريبة بهائم وأراضٍ في أكثر من زمام، تفوق مساحتها أراضي أدهم أو حماه القاضي نفسه، وقطعة أرض فضاء كان يشرح لمَن يجلس معه أنها ستكون أكبر مزرعة دواجن في مصر... بنى دوارًا في العزيزية بالطوب الأحمر وطلاه بلون أبيض زهري، كان أكبر من دوار القاضي والعمدة ومن قصر هاجر نفسه، وكان الناس في القرى البعيدة يستطيعون رؤية سور سطحه المزين بأهلة وقباب.

يقول بعض الأهالي إنه بعد أن عاد من بورسعيد وأحضر لأدهم كلَّ ما طلبه وأكثر، طلب منه أدهم أن يدق له في أرضه أكثر من طلمبة مياه، وهنا يؤكدون ويقسمون بأغلظ الأيمان أن فأس عبد الجبَّار اصطدمت أثناء الحفر بباب صخري مزين بنقوش... حدثه قلبه أنها طلاسم مرسومة عليه؛ لكي تحمي ما وراءه من النهب، أو قد تكون هذه الرسوم هي اسم صاحب المقبرة التي لم تطأها قدمٌ منذ آلاف السنين، مذ دفن الفراعين أحد ملوكهم هنا.

مَن كانوا يحبون عبد الجبَّار ويعملون كمزارعين أو خفر أو خدامين في أملاكه، يقولون وهم يضعون أصابعهم على وجناتهم علامة على الفهم: «أمال، وهو يعني لو كان وجد مساخيط دهب كان أدهم باشا هيخليه ياخدها! هي الحداية بترمي كتاكيت يا ناس!» أما مَن كانوا يكرهون عبد الجبَّار، فهم يشرحون ما حدث يومها لحظة بلحظة كأنهم كانوا معه...

عندما اصطدم الفأس بما يشبه الباب الصخري، ازدادت همة عبد الجبَّار وأوسع دائرة الحفر، ونجح في شق ممر يكفي جسده الضخم، وزحف إلى داخل المقبرة مثل الثعبان، وحمل ما يكفي لملء كيس كبير من أكياس محلج القطن، انتقى كلَّ ما هو مصنوع من الذهب وترك الفضة والنحاس، أخذ تماثيل ذهبية لكباش وأجساد بشر متقنة النحت، لولا رؤوس الصقور التي تعتليها. أخذ أواني مختلفة الأحجام وجد بها أحشاء آدمية، كانت ويا للعجب على حالتها، فحرص أن يدفنها في مقبرة البدرشين، بعد أن صلى عليها صلاة الميت، وقطعًا ذهبية يبدو أنها كانت أموالًا، وتماثيل مختلفة الأشكال، يُقال إنها لآلهة كانوا يعبدونها، كما أخذ أحجارًا كريمة وجعرانًا فرعونيًّا لا يقدر بثمن، وباعها كلها على شاطئ بورسعيد للخواجات، الذين يموتون في سبيل الحصول على قطعة واحدة منها ويدفعون المئات ثمنًا لها.

بعد ذلك، ردم عبد الجبَّار باب المقبرة ثانية، بل إنه غطاه بالصخور والهيش، وذهب إلى مكان آخر أبعد يحفر فيه طلمبة ولا من شاف ولا من دري. ثم يضع الذين يكرهونه أصابعهم على وجناتهم علامة على الفهم ويمصمصون شفاههم: «أمال،

وأدهم باشا كان غارقًا في العسل يا وِلدَاه في حضن البنت هاجر».

******

كان عبد الجبَّار منهمكًا تمامًا في إدارة ثروته، التي تترامى أطرافها يومًا بعد يومٍ، وكان قد نسي هاجر أو في الواقع كان يتذكرها كما لو كانت بطلة فيلم بالأبيض والأسود، أحبه كثيرًا قبل أن يعشق الأفلام بالألوان الطبيعية ويستبدل بالبوظة الحشيش، ويشتري من بورسعيد شاشة بيضاء وماكينة عرض الأفلام السينمائية، كانت عروضه عبارة عن فيلم مصري واحد وفيلمين أجنبيين، وكل ذلك مقابل تذكرة باثنين وعشرين مليمًا، كان يؤجر بكرات الأفلام من أصدقائه في دور العرض البعيدة، ومن أصدقائه في الاتحاد الاشتراكي، الذين أصبحوا أعضاء في الحزب الوطني الجديد منذ شهور، كان يصيح في وجوههم: «خلُّوا الفلاحين يتفرجوا ويتبسطوا».

لما رأى هاجر ذات صباح مشرق، وهي تحمل على يديها طفلة تتجاوز العام بفستان مزركش وشعر كستنائي ناعم مزين بفيونكات وردية، شعر على الفور بأنها تخرج له من فيلم جديد بالألوان الطبيعية، الطفلة نفسها كانت تشبه كثيرًا تلك العرائس المستوردة التي كان يجلبها من بورسعيد، انغرست قدماه في الأرض، وظل قلبه يدق بعنفٍ، كأنه لم تجر في النهر مياه كثيرة، كأنه تركها بالأمس فقط جالسة إلى جوار عم لطفي مرجيحة، وعيناها تسبحان في الأفق البعيد فيتعمد إفزاعها بعد أن يتأملها طويلًا، فقط لكي يرى جمالها وهي تجفل مثل غزالة شاردة، ثم

يمد إليها يده بهديته: زجاجة سباتس بثلاثة تعريفة كاملة... علبة كاكاو مستوردة من إنجلترا... قرطاس فول سوداني... علبة كبريت الهلب... علبة سردين بقرشين صاغ كاملين... علبة ششم أبو ديك لعلاج العُماص واحمرار عينيها... أعواد خروب أخذها خلسة من أجولة العطارة التي يضعها السكري أمام باب دكانه.

كانت هاجر ترتدي معطفًا أخضر بالكاد يصل إلى ركبتيها بأزرار كبيرة بلون الزيتون اللامع وشعرها أقصر قليلًا، ولكنه ما زال يغطي ظهرها كله، لا يدري ماذا يقول أو من أين يبدأ؟ يتحاشاها ويتحاشى زوجها، ويسير أكثر من كيلو متر إذا ما أراد زيارة العمدة أو بيت حميه محمد القاضي؛ حتى لا يمر أمام قصرها، فلماذا توقفت أمامه بهذا الثبات الآن؟ لا يسألها عن أحوالها التي يتابعها أهل القرية ساعة بساعة، كما لو كانوا يحكون حكاية ست الحسن والجمال والشاطر حسن، لا يحييها ولا يستغرب لمعة عينيها الواسعتين، اللتين تنعكس عليهما ملامحه وأغصان شجرة التوت العجوز، يبادرها وهو يمسك بكفِّ الطفلة الصغير ويقبله: «ليلى أدهم الشوَّاف، قال لي أبوكِ
يا ليلى: سأسميها: ليلى، حتى يحبها شاعرٌ عندما تكبر، وينشد لها تحت شرفتها أبيات المجنون قيس بن الملوح:

أمــا واعــدتني يا قلــبُ أني

إذا مــا تبت عن ليلى تتــوب

فهــا أنا تائبٌ عن حب ليلى

فمــا لك كلما ذُكرتْ تذوب

توهم أن عينيها مغرورقتان بالدموع، لم يعرف أبدًا هل أحبته هاجر في يومٍ من الأيام؟ هل شعرت بأنه يحبها؟ أم أنه تخيل ذلك، لأنها فقط كانت تنطق اسمه: «عبدو» كما لم تنطقه امرأة قبلها، ولن تنطقه امرأة من بعدها.

تقول له وهي لاهية عمَّا يكابده: «يعني يا عبده، أدهم أرسل إليك الجميع، عاوز يشوفك»، يحاول أن يلملم خيوط حكايتهما، التي هرب منها طوال الشهور الفائتة، قالوا إن أدهم منحها ألقه كله في عامين اثنين لم يزد عليهما يومًا، وأنه يعاني مرضًا الآن لا يستطيع الأطباء معرفة أسبابه، وأن وزنه أصبح لا يتجاوز الثلاثين كيلو جرامًا، قالوا إن الغربة صرعته يا ولداه وجندله الحنين إلى الوطن، وقالوا إن الشِّعر أجهز على جسده وحوّله إلى روح شفافة. وقالوا أيضًا إن هاجر، بعد مرور عام على رضاعة ليلى، اشتكت سقوط شعرها وبكت بكاء مريرًا طوال الليالي دون أسباب واضحة، وإنه كان يجهش بالبكاء معها كلما حاول ضمها إلى صدره ولا يعرف لماذا، ولخص السُّكارى في مجلس البوظة الأمر بأن البنت عفية عليه يا وِلداه هدَّت حيل الرجل الكهل في عامين.

يسير عبد الجبَّار صاغرًا أمامها ليقودها إلى قصرها، يشعر بأنفاسها تلفحه من الخلف، فيغوص قلبه في قدميه، تنهنه ابنتها بالبكاء فيود لو شاركها البكاء، لم يفهم أبدًا كيف يحب رجلٌ امرأة كلَّ هذا الحب ولا تبادله الحبَّ؟ شعر أن جسده ينكمش، وأنها ربما تراه من الخلف مكسورًا ومترهلًا مثل امرأة عجوز. شعرت

أنه يتباهى بعضلاته المفتولة ورجولته التي يحملها النسيم إلى أنفها من عرقه الغزير ونحن في عزِّ الشتاء.

بصعوبة تسيطر على كلماتها قبل أن تنهره بها في سرِّها: «ألا تستحم أبدًا يا عبده؟!» تفكر في أنها لم تشم رائحة عرق أدهم المسكين منذ وقت طويل، أدهم لم يعد يعرق، كلُّ الأطباء والعرافين لا يعرفون ماذا يحدث له، هي فقط مَن تعرف وتُخفي الحقيقة في صدرها.

في البداية، جلبت الخالة تبارك وتحايلت معها حتى تكشف على «أتر» أدهم دون أن يعرف، أخبرتها الخالة تبارك أن زوجته الكبيرة الأولى ريتاج، التي يعني اسمها باب الكعبة المشرفة، عملت عملًا لزوجها حتى لا يقترب من امرأة أخرى، وسألتها: «هل تحسين أنه يراك قردة أحيانًا أو سحلية أحيانًا أخرى؟»، «لا.» تجيبها هاجر مستنكرة وتضيف وهي هائمة: «يراني أميرة، بل ملكة، أحيانًا يناديني نفرتيتي وأحيانًا كليوباترا، وأحيانًا بثينة ثم ينشد أشعار حبيبها «جميل»:

والحبُّ أولُ ما يكـون لجـاجـةٌ

تـأتي بهِ وتسـوقهُ الأقدارُ

حتى إذا اقتحمَ الفتى لججَ الهوى

جـاءتْ أمورٌ لا تُطاقُ، كبارُ

******

هذا هو الطريق الذي سلكه الغريب ليذهب إلى محبسه، تلال ما زالت كما هي منذ آلاف السنين، تذرو الرياح رمالها فتعود من جديد في مواسمها إلى مكانها، أخشابٌ ملقاة بإهمال، يعرف عبد الجبَّار جيدًا أنها أخشاب العزيزية، مرصوصة بعضها فوق بعض منذ آلاف السنين، قش تبن ما زال يلمع من زمان الزمان حيث أشرقت عليه منذ ذلك الحين الشمس، ولمسته بلمسة سحرية.

بعد قليل سيعترضهما سرداب على عمق خمسة وثلاثين مترًا تحت الأرض، يقولون إنه في نهايته سجن سيدنا يوسف، يكاد عبد الجبَّار يسمع صوت الفتى ساقي الملك: «يا يوسف، إنني رأيت في منامي أنني أعصر العنب بيدي خمرًا في كأس الملك»، فيأوِّل له الغريب رؤياه بأنه سيخرج من السجن، ويعفو عنه الملك ويعيده ساقيًا له.

تنير الأحجار الجرانيتية المتناثرة طريقهما وتنثر أشعتها برفق، تومئ لعبد الجبَّار بأنه سيصل، بمزيد من الصبر، إلى المقبرة الكنز التي ردمها على عجلٍ ذات ظهيرة مكتفيًا بما أخذه منها من ذهب، فانتقمت منه واختفت عن ذاكرته وناظريه، يكاد يُجن وهو يتساءل قبل أن ينام كلَّ ليلة: كيف غطتها وأخفتها سافياتُ الرياح هكذا في غضون أيام؟! مَن باع لهم حفنة ذهبية من آثار الفراعين في بورسعيد يطالبونه بالمزيد الآن، لا يفهم حُمى إصرارهم على امتلاك ما دفنه أجداده هنا، ولكنه على يقين أنه سيجد المقبرة، بل سيصل إلى نهاية السرداب الطويل، الذي سلكه سيدنا يوسف وهو خارج من محبسه ليلتقي عزيز مصر. يفكر هل يوجد ثمة سرداب آخر يصل هذه المقبرة بهضبة الأهرام، وتُرى ما الذي يمكن أن يجده فيه؟

ما لم تعرفه هاجر حتى هذه اللحظة أنه كان يعبث كل ليلة في أرضها، يحفر حفرة لعله يجد تحتها ما أخفاه، ثم يردمها قبل بزوغ الشمس، لديه على كل حال فائض من الوقت، وما زال صغيرًا وعمره أمامه، وسيسلي نفسه بإطعام أهل قرية ميت رهينة أوراك النسور، ولحوم الحدآن والغربان السمينة، وأفخاذ النعام المستوردة، وعلب اللحم والأسماك التي يطعم الأجانب بها قططهم هناك، بينما يوجد في مصر آلاف الجوعى، ثم سيسلي نفسه بالدفاع عمَّا يفعل أمام هؤلاء الصحفيين، وهم يصيحون طوال الوقت كالفراخ المذعورة منددين بزمن انفتاح أنور السادات لأنه يحاول إطعام الشعب الجوعان، ولكنهم يواصلون فضحه يومًا بعد يومٍ في جرائدهم، وأفلامهم، ومراكز الشرطة، التي لا تملُّ ولا تكلُّ من جرجرة عبد الجبَّار للتحقيق معه.

******

فعلًا، لا ينام في حجرة نوم واسعة مثل هذه إلا شاعر، يقف على سرير أدهم الكبير، للمرة الأولى يرى سريرًا على شكل قلب أحمر، يتأمل ما حوله... تسريحة ضخمة بكرسي مذهب يشبه كرسي العرش الفرعوني الذهبي الصغير، الذي أخذه من المقبرة وباعه للخواجة، إطار مرآة التسريحة مزين بعشرات اللمبات الصغيرة، فأدهم هو أول من أدخل الكهرباء إلى قصره في ميت رهينة، تصاوير معلقة على الحائط تحوي زهورًا وأحصنة سوداء تعدو، وصحراء صفراء في آخر كثبانها نخيل عالٍ، وفي مقدمتها جمل ضخم يتهادى.

ما زال وجه أدهم كما هو لم يتبدل فيه شيء كأنه تركه البارحة عند ترعة المريوطية، فقط جسده هو الذي ظنه عبد الجبَّار قد اختفى، فظل يبحث عنه بعينيه تحت الغطاء المفرود بعناية فوقه، كما لو كان لا يوجد أي بروز تحته. بادره عبد الجبَّار معاتبًا: «مالك يا رجل؟ خير إن شاء الله، شد حيلك يا عم الحاج»، وضحك ضحكة مواسية لم يفهمها أدهم فسأله بصوت عال، استغرب عبد الجبَّار أن يخرج من هذا الجسد المتداعي: «عَمَّ تبحث في أرضي يا عبد الجبَّار، هل تظن يا جاهل أنني لا أعرف أنك تتسلل إلى أرضي كل ليلة؟».

زام عبد الجبَّار واستدار ليرحل، ولحظتها لمح شبح ابتسامة على شفتي هاجر، مما جعل حبها يتبدد أمام عينيه من جديد، بل شاهد شظايا حطامه وهي تخرج من النافذة، فقرر أن يخصص لها بقية عمره لينتقم منها، أشاح بيده في وجه أدهم صائحًا: «ومَن قال لك إنها أرضك؟ ما أعرفه أنها أرض جدودي، فأنا لم يلعب أحدٌ في أصلي، وجدودي تركوا لي ما في بطنها منذ آلاف الأعوام، وسأحفر فيها كما أشاء حتى أجد ما أبحث عنه».

يقولون إن أدهم مات بعد زيارة عبد الجبَّار بأيام، كأنه لم يشأ أن يترك الدنيا، إلا بعد أن يرى أول مَن فتح له أبواب ميت رهينة. ويقول معمرو القرية بأنه لا شيء تبدل فيها مذ موت أدهم، سوى موت البعض وولادة البعض واختفاء بعض الحقول وزراعة بعض الدور القبيحة المبنية بالطوب الأحمر حول قصر هاجر، وزيادة أكوام القمامة التي شكَّلت جبالًا صغيرة يستطيع الغريب معرفة طريقه بحفظ مواقعها، وزيادة وزن عبد الجبَّار حتى صار مثل نصف فيل، وزيادة إدمانه للحشيش حتى ثقل لسانه، وكانت

تطير حروف كثيرة من كلماته، وكان على مَن يجالسونه أن يعيدوا الحروف التي لم يعد يستطيع نطقها حتى يفهموا ماذا يقول.

لم يجد طوال عشرين عامًا باب المقبرة الذي دفنه بيديه الاثنتين آنذاك، على الرغم من استمرار حفره اليومي الذي لم يتوقف عنه ليلة واحدة، وكبرت ليلى أدهم الشوَّاف حتى صارت هذه الفاتنة، وكانت تقف في شرفتها عند الفجر، وتضحك ضحكتها الموقعة الطويلة قائلة، لأمها هاجر وهي ذاهبة للوضوء: «العجل عبد الجبَّار جاء للحفر.
يا ربي، كم أنتظر أن يجد شيئًا فنأخذه يا أمي!».

******

نابش القبور

سيهيأ للعابر ليلًا على أرض ميت رهينة أنه رأى في الظلمة الحالكة أضواء ليس لها مصدر محدد، وقد ينحني ليتأكد أن الأشياء من حوله هي مجرد أشياء مصمتة، فيلمس بيديه الأحجار الجرانيتية الملساء المصقولة بسوادها، والمغلقة على أسرار مَن جلسوا عليها ليستريحوا منذ آلاف السنين، سيسمع بوضوح صوت ترنيمة تنتهي فجأة كما بدأت فجأة، تعقبها طرقات رتيبة كأنها طرقات إزميل يعالج حجرًا ما، سيشعر أنه يسير فوق بستان تلهو بين أيكه صبايا صغيرات يضحكن بنعومة مغمغماتٍ بلغة لا يفهمها، فيمشي على الأرض هونًا؛ خوفًا من أن يثقبها بقدميه فيسقط في فوهة زمن بعيد، لا يستطيع العودة منه مرة أخرى.

سيقسم لهم في الصباح، بعد أن يسكبوا على وجهه سطل ماء من ترعة المريوطية ويسألوه عن وجهته، أنه فقد وعيه بعد أن تحدث مع رجلٍ غريب الهيئة مهلهل الثياب، وأن الرجل ظل يسير معه طوال الليل، وهو يحدثه عن أنواع المخبوزات التي كان يخبزها للملك، وكان يمد إليه يده من آن إلى آخر، ويجعله يتذوق كعكًا غريبًا محشوًّا بالرمان، وآخر محشوًّا بالتمر، ورغيفًا من الحنطة مرشوشًا على وجهه عدس محروق، ودوائر بيضاء صغيرة مستديرة تشبه القرش تعريفة المخروم، ويضحك صائحًا وهو يلحس شفتيه بلسانه: «وهي أكثر شيء أحببته فلقد كانت تذوب في الفم بمجرد قرقشتها، وتترك طعمًا لذيذًا بعد بلعها مثل الملبن»، ثم أخذ الرجل المهلهل الثياب يقول للعابر: «لقد تحدد

مصيري وانتهى أمري، بعد أن حكيت للفتى الغريب رؤياي وطلبت منه أن يفسرها لي، على الرغم من تحذير أسلافي الأولين الذي أحفظه عن ظهر قلب: «دعوا كوابيسكم نائمة في ذاكرتكم، ولا توقظوها بحكايتها للعابرين، فتتحقق، وتضيعوا إلى الأبد».

لكنني ضعفتُ وطلبت منه أن يفسر لي رؤياي: «رأيت فوق رأسي طبقًا من الطعام والخبز تأكل منه الطير»، فقال لي الفتى الجميل دون أن يهتز له جفن: «ستُصلب وستأكل الطير من رأسك»، يحملق في وجهه العابر، ويتمتم من دون صوتٍ: «هل تقصد أنكَ سُجنت مع يوسف عليه السلام؟ هل أنت أحد الفتيين؟ هل أنت الخباز؟» ثم يصرخ العابر، من دون أن تردد التلال صدى صوته، وهكذا يقع مغشيًا عليه.

يضحك عبد الجبَّار راميًا غاب الجُوزة جانبًا، وهو يمسك بطنه الكبير حتى يمنعه من الاهتزاز. يرفع الغطاء النحاسي عن قُلة الماء ويشرب حتى يلتقط أنفاسه، فرغم أن عبد الجبَّار أدخل الثلاجات الكهربائية المستوردة والديب فريزر إلى قرية ميت رهينة، إلا أنه كان لا يشرب الماء المثلج أبدًا، ولم يستبدل القلل الفخارية التي كان يتفنن في تنظيفها والعناية بها ووضع زهر الليمون أو أوراق النعناع الأخضر في حلقها، يصيح بعد أن تنتهي قهقهته الصاخبة أخيرًا: «الله يخرب بيت عقلك يا بن بهانة، يا بن الكلب، أبوك حكى لي هذه الحكاية منذ عشرين عامًا، حتى بالأمارة كان جدك الضرير بطلها».

- «يعني يا عم الحاج هل هو ممنوع أو عيب أن تقع الحكاية لجدي وللرجل المسكين في عين الوقت».

- «لا يا بهيم، ولا عيب ولا حاجة، احكي لنا أحسن، كيف بت ليلتك هنا في مقبرة جدك».

بنى عبد الجبَّار غرب أرضه مدافن سمَّاها مدافن الصدقة، وتبرع بها ليدفن أهل القرية فيها موتاهم، كان على مدخلها تكعيبة عنب، وكان لا يحلو لعبد الجبَّار الجلوس مع الحشاشين في الليالي المقمرة إلا تحتها.

قال الشاب النحيل وهو يغير له حجر الجوزة: «يا با الحاج، ارحمني الله يخليك»، ولكن عبد الجبَّار قهقه حتى اهتز بطنه الكبير، وحكى لهم أن عزوز ابن بهانة جاءه يرتعش مثل الكتكوت المبلول في الفجر، بعد أن دفنوا جده في آخر عين في المقبرة ظهيرة اليوم الماضي، فجففه وأعطاه جلبابًا نظيفًا حتى خفَّ لسانه الثقيل المربوط في أعلى حلقه من الرعب، وأمره أن يوحد الله فالبقاء له وحده، وسأله: أين كان طوال الليل؟ فأخبره أنه بات ليلته في المقبرة جنبًا إلى جنبٍ مع جثة جدَّه، حيث تعمد ترك فتحة فيها في الظهيرة، ولما جاء الليل تسلل عبرها إلى القبر.

ابن بهانة أراد أن يرى منكرًا ونكيرًا وهما يحاسبان جده، ويبعد عنه الثعبان الأقرع.. اتسعت عينا عبد الجبَّار مستغربًا وسأله: «طوال الليل، وهل رأيتهما؟»، «لا. يا با الحاج»، «ولماذا فعلت ذلك يا بني؟» فلوى عنقه بحماس: «الله، يا عم الحاج، أساعد جدي الضرير ليرى منكرًا ونكيرًا، وآخذ عبرة حتى يثبت لساني يوم أموت وأدفن»، فجرى خلفه عبد الجبَّار بالعصا، وهو يصيح: «ولكنك بهيم يا بن بهانة، ألم يقل لك الشيخ برهامي إن الحساب للبني آدمين فقط يا بهيم؟!».

يقهقه الرجال، ولا يسكتهم إلا صوت عبد الجبَّار: «هييه، وحِّدوه، إلَّا قولوا لي يا رجال، أوَ لم أبنِ لكم على بستاني وبأموالي هذه المدافن؟» فيصيحون: «الله يكرمك دنيا وآخرة يا عم الحاج»، فيصيح في وجوههم بدوره: «طيب، ولا واحد من أقاربكم الدُّون المدفونين هنا رجع ليغششني في المنام ماذا حدث له عند حساب القبر!».

عبد الجبَّار بشهادة كل سكان ميت رهينة هو أكثرهم خفة دم، وخفة دمه هي التي أنقذته كثيرًا من السجن أو حتى القتل، كان وكيل النيابة يحقق معه ذات مرّة عن شكوى من مجهول، كتب فيها أن عبد الجبَّار يبيع للناس معلبات بها ما يشبه اللحم، يلصق على المعلبات ملصقات صغيرة مكتوب عليها: «بولوبيف»، وهو غذاء القطط والكلاب في البلدان الأجنبية التي يستوردها منها.

عندما وقف عبد الجبَّار أمام وكيل النيابة بادره بجدية: «تؤمرني يا سعادة الوكيل»، فسأله وكيل النيابة: «يا عبد الجبَّار، لماذا تطعم خلق الله غذاء القطط والكلاب؟»، فسأله عبد الجبَّار: «هل هناك بني آدم واحد مات بعد أن أكل هذه المعلبات؟ المصري معدته تهضم الزلط يا سعادة الوكيل»، ثم أضاف نافد الصبر: «ثم ما صادرتموه من مخازني، أنا بالفعل أطعم به قطط وكلاب ميت رهينة، وها هي تجوب الكفر شبعانة ريانة، ويمكنك أن تسألها بنفسك يا سعادة البيه وكيل النيابة».

يبدو أن خفة دمه هذه هي التي كانت تجعل ليلى الشوَّاف تسامره طويلًا كلما عثرت به في طريقها، على الرغم من كراهيتها له، هو أيضًا كان يبادلها الشعور نفسه على الرغم من افتتانه بها،

عندما كان يراها تتهادى من بعيد يقول لمَن يجالسه: «سبحان الله يا أخي، عندما يشاء الله يكور لحمًا ويقذفه في وجوهنا فنسميه ظلمًا وبهتانًا نساء، وعندما يشاء وهو على كل شيء قدير يخلق معجزات مثل هذه... وظلمٌ، والله، ظلمٌ بينٌ أن تُصنف ابنة الشوَّاف ضمن بقية نساء ميت رهينة».

ليلى عيناها واسعتان مثل فنجانين من الصيني مملوئين بالعسل، عندما يمعن أحدهم إليهما النظر، يغرق في عسلهما دون أملٍ في نجاته، كسر أدهم الشوَّاف بشرة أمها هاجر البيضاء بسمرته، فجاءت بشرتها بلون الخمر مع غمازتين فاتنتين وشفتين ممتلئتين وعود فارع، على الرغم من نحافته إلا أنه مدملج يهتز عندما تمشي، مثل غصن بان يتمايل في أوَّل الربيع. إنها حتى لا يمكن مقارنتها بأمها هاجر التي تبدو إلى جوارها مجرد دمية جميلة خرساء.

ليلى تعلمت أفضل التعليم وسافرت وركبت الطائرات وجابت العالم وحدها، وكانت تسحر الصغير قبل الكبير في ميت رهينة بحديثها. يجدها واقفة عند شجرة البونسيانا تزيد ورودها الحمراء المتوهجة توهجًا بقميصها الأبيض الرجالي المفتوح الصدر، وتتكاثر خضرة أوراق الشجرة الكثيفة في ظلال بنطلونها الجينز الأزرق الضيق..

يبادرها كالعادة وكأنهما يستكملان ما انقطع من حديث البارحة: «والله لولاي يا بنت أدهم لما تمتعتِ بكل ذلك الجمال، حميتك من شامة في وجهك على شكل بطيخة، أو على شكل برقوقة في عنقكِ، وكانت ستكون مصيبة لو طلعت لك فصوص فراولة على

ثدييك الجميلين هذين»، تقهقه ليلى بضحكتها الطويلة التي لا يستطيع الإمساك بذيلها: «أنت ممل يا عمي عبده، وكالعادة تنسى أن تخمن أين كانت ستطلع لي حبَّة المانجو التي توحمت عليها هاجر»، ثم تنظر في عينيه طويلًا وهي تقول ببطءٍ: «لن تسامحها أبدًا، ولن تنسى، أليس كذلك؟!».

تسير إلى جواره، تلهو بغصن شجرة توت، مخلفة خلفها خطوطًا متعرجة على الطريق الترابي، تمامًا مثلما كان يسير أبوها، أحيانًا تنتاب عبد الجبَّار رغبة حقيقية في إلقائها في الترعة بعد خنقها، فليس عدلًا- على كل حال- أن ينجب هو ثلاثة ذكور ثم بنتين، يجد صعوبة شديدة في التفريق بينهم وبين بهائمه، بينما تنجب هاجر هذه المهرة الأصيلة التي كان يزيدها علمها تيهًا وألقًا.

خرج جميع أولاده وبناته من المدارس، جميعهم تزوجوا وهم صغار، ويعيشون في بيته الكبير الذي ما زال أكبر دور الناحية، وهم منذ مطلع الشمس حتى غروبها يأكلون ويشربون ويتناكحون، ويتشاجرون على إرثه على حياة عينه، ويضربون بعضهم بعضًا وهم يفاضلون بين العزبة البحرية أو القبلية أو مغلق الخشب أو متاجر الموبيليا أو معرض الأجهزة الكهربائية، ثم يضربون رجاله وعماله ومزارعيه بسبب ومن دون سبب، وإذا جلسوا في الأمسيات القمرية في الحديقة الخلفية يمصون أعواد القصب أو يشوون كيزان الذرة، وهم يصيحون صيحات تشبه صيحات الذئاب ويشخرون مثل ثور تحت سكين جزار، إذا ما نادوا بعضهم على البعض أو يقهقهون مطلقين صوتًا يشبه نهيق الحمير من دون أسباب واضحة.

كانت ليلى تنتعل حذاء أزرق يشبه الخف من دون كعب ومطرز بخَرج النجف الفضي، أشار إلى الفضاء أمامها وحكى لها ما لا تمل أبدًا من الاستماع إليه: كانت هذه الحقول ممتدة على مدد الشوف، أحيانًا ترينها خضراء زاهية إذا كانت مزروعة برسيمًا، وأحيانًا ترينها خضراء بلون الفضة إذا كانت مزروعة كرنبًا أو فولًا، وأحيانًا ترينها ذهبية بلون سنابل القمح، لم يكن يقطع امتدادها هذا الطوب الأحمر القميء المغروس في لحمتها كالخوازيق.

كان أبوك يقف في هذا الفضاء، لاهيًا مثلك تمامًا، يجيبني بعد فترة كأنني أعطله عن تأمل طيور أبو قردان بريشها الأبيض الناعم وأرجلها الطويلة البرتقالية، أو ملاحقة «أبو فصادة» والهدهد، كان ينشد شعرًا غريبًا يبدو ككلام مرسل لا يستطيع المرء تذكره، وكان يتركني غاضبًا ويذهب إذا ما كررت خلفه بيتًا حلوًا أستطيع حفظه بسرعة ويدخل إلى قلبي ولا يخرج منه ثانية: «ولقد ذكرتكِ والرماح نواهل / مني وبيض الهند تقطر من دمي»، أنادي عليه: «يا باشا»... فيشيح بوجهه مغمغمًا وهو يواصل سيره: «تحفظ في ثوانٍ بيتًا لعنترة بن شداد كتبه من سنين السنين، ولا تقدر أن تكرر بيتًا واحدًا لأدهم الشوَّاف، ما هذا الظلم، ما هذا الجهل؟!».

في أواخر عام 1977، ارتدى أدهم قميصًا مشجرًا أخضر بياقة بيضاء مدورة طويلة تتدلى من كتفيه، كما لو كان يحمل أرنبين مذبوحين، فاتحًا أزراره ليظهر شعر صدره الأسود، وبنطلونًا من الجبردين برتقالي اللون قَصة شارلستون، وحذاء بنيًّا بكعب عالٍ، كنا نسميه: «كعب كوباية»، وكان قد أطلق سوالفه العريضة،

وتحمل ضحك الفلاحين على مظهره، وهو يسير وتحت إبطه دفتر أحمر.

داوم أدهم على السفر كل صباح إلى القاهرة ليكون أول الحاضرين في المقهى ليقرأ لروادها من الشعراء والفنانين والنقاد قصائده. كان يطاردهم من مقهى الحرافيش في الحسين إلى مقهى ريش والحرية في وسط البلد، أو يذهب خلفهم إلى مقهى عبدالله في الجيزة.
لا يدري أحدٌ في ميت رهينة لماذا انقطع عن زيارة القاهرة فجأة كما أولع بها فجأة، ولكنهم جميعًا يعرفون أن انقطاعه هذا ربما يكون هو سبب مرضه الغريب ثم وفاته.

حكى لها عبد الجبَّار أن ناس القاهرة كسروه يا وِلداه، وأنه في آخر جلسة له على المقهى قرأ عليهم قصيدة، فصمتوا بعدها كأنهم في سرادق عزاء، ثم هرشوا رؤوسهم، كأنهم ينفضون عنها غبار ما استمعوا إليه، وواصلوا الحديث عن السادات، ظلوا ثلاث ساعات كاملة يتساءلون: هل رأى التاريخ رئيس جمهورية يقول لشعبه: «إللي مش هيتغني في أيامي مش هيتغني أبدًا؟»، ثم فجأة صاح فيه أحد الشعراء: «هه، هتسهرنا فين النهارده يا شيخ أدهم؟».

يربد وجه ليلى فهي الوحيدة التي ورثت أوراق أبيها، وهي تعرف جيدًا أنه لم يكن مجرد شاعر فاشل يبحث عن اعتراف من شعراء المقاهي، وإنما جاء من الحجاز هاربًا ليكتب مخطوطًا غريبًا، تحاول أن تفهمه يومًا بعد يوم. فهو مكتوب بالحبر الأزرق وأحيانًا الأحمر، وعلى هوامشه تجد أسهمًا كثيرة وشروحًا بالقلم

الرصاص ورسومات كروكية لتنانين وأسود مكشرة عن أنيابها تعلو سلالم حجرية طويلة وسوداء، وكمية نقاط وعلامات استفهام لا حصر لها.

يبدو أن أباها كان ينتظر أن يستكمل بحثه؛ لكي يحول هذه النقاط إلى كلمات. حتى هذه اللحظة، لم تفهم ليلى الكثير، على الرغم من استعانتها بقراءة كتب التاريخ وسؤال كل معارفها من أساتذة كبار حول ما قد ينير لها سطوره.

المخطوط ضخم ومكتوب على أوَّل صفحاته: «إلى ليلى: أجمل قصائدي»، لا تعرف ماذا تفعل به وهي حتى لا تفهم ما فيه، به حديث عن قبيلة الشوَّاف التي ينحدر منها أدهم واستوطن بعض أفرادها الحجاز فكانوا من السُّنة، بينما جزء منها شيعي يسكن اليمن. تستشعر صراعًا ما حدث له بين الصفحات هناك، ولكنها لا تستطيع الإمساك به.

يضحك أستاذ التاريخ والكاتب الشهير محمد محمود عاليًا، حين تسأله ويقول لها بصوتٍ عالٍ: «وما لك أنتِ يا ليلى بمَن يسبون السيدة عائشة رضي الله عنها، أو بمَن يسبون الإمام علي رضي الله عنه؟ الموضوع يا بنتي ليس سؤالًا وجوابًا، وإنما هو تاريخ صراع لم ولن ينتهي، وجرح دموي يلاحق هذه الأمة ولم يندمل بعدُ»، ثم يوصيها أن تبدأ بقراءة كتاب «الفتنة الكبرى» للدكتور طه حسين.

ثمة حيرة طفولية كانت واضحة في مخطوطه عن وجوده في ميت رهينة، وتحديدًا وسط بقايا آثار منذ خمسة آلاف عام، تعوم

الآن في مياه الصرف الصحي. ثمة أبيات شعر من تأليفه بالقلم الرصاص كانت تضحكها كلما قرأتْها:

«يا هاجر لا تقتربي حدَّ الاحتراق،

ولا تبتعدي حدَّ الافتراق.

يا هاجر، كوني لي مثل الصلاة في السحر،

كوني لي مثل الزبرجد في القمر»،

لا يشبه مخطوط أبيها بقية الكتب التي قرأتها، فهو ليس مذكرات وليس رواية وبالطبع ليس شعرًا، وليس كتابًا له بداية وموضوع ونهاية وهدف ومنهج فكري ما، صفحاته تتعدى الألف صفحة، تتخللها رسومات تشبه الأشجار عن عائلات، انحدرت من قبائل عربية قديمة ثم انتشرت في أنحاء الوطن العربي، وبه ما يشبه الخرائط البدائية، ملون أغلبها بلون الصحاري الصفراء، وبه محاولات لرسم عدَّة وجوه ربما تكون لملوك أو خلفاء، على رؤوسها تيجان بأشكال غريبة، تكون أحيانًا على شكل قرنين، وأحيانًا أخرى على شكل رياش مضحكة، وفي أغلب الأحيان على شكل سوار ضخم مكون من خطوط سوداء، وكأنه مقتطع من قضبان سجن ما.

تنحني ليلى لتهرش ساقها البضة، رافعة بنطالها لتبحث عن برغوث، فيقهقه عبد الجبَّار بسخرية: «اتركيه يرعى فيما رزقه

الله
يا بنت الأكابر»،

ترفع له ليلى وجهًا محمرًّا بابتسامة ساخرة على جانب فمها: «هل تعرف يا عم عبده أن البراغيث هي التي قضت على الديناصورات منذ ملايين السنين؟» وتهز رأسها كأنها تتحدث إلى أخرس، وتمط شفتيها مكملة: «نعم، نقلت البراغيث إليها داء الطاعون فانقرضت عن بكرة أبيها»، أدارت البرغوث الذي أمسكت به بين سبابتها وإبهامها هامسة: «لكن في الحقيقة كان البرغوث أكبر من هذا عشر مرات»، ثم قذفت البرغوث إلى وجهه، وأطلقت ضحكتها الطويلة الشهيرة بذيلها الرنان.

عندما يرى أهل القرية عبد الجبَّار بصحبة هاجر أو ليلى الشوَّاف يمصمصون شفاههم، مرددين: «إن القط لا يحب إلا خَنَّاقه» دون أن يحددوا تحديدًا مَن كان القط منهما ومَن كان خنَّاقه؟ دائمًا ما يفكر عبد الجبَّار في الحب والكراهية وهو مع ليلى أو مع أمها هاجر، فهو بالفعل لا يستطيع الإمساك بالحدود بينهما، كانت تسعده صحبة ليلى المتفجرة بالحياة الممتلئة بخفة الدم والعلم والحلاوة والشقاوة، وفي الوقت نفسه يباغته هاجس بأن يلقي بها في هذه الساقية المهجورة، التي لا تدور منذ سنوات، ثم يدعي أن قدمها زلت وأنه لم يستطع إنقاذها.

هو أيضًا يستغرب كثيرًا لماذا يذكر الناس في بلده دائمًا اسمه: «عبد الجبَّار»... هكذا متناسيين اسم عائلته «أيوب»، وفي الوقت نفسه يذكرون اسم عائلة الشوَّاف متناسيين اسم أدهم. يوقظه صوتها فيستغرب أنها لم تزل على قيد الحياة، بل تسير

إلى جواره مطمئنة كما لو كانت تسير إلى جوار حصانها: «فاكر... بِرْكة هاجر المهجورة»، فيجيبها ساهمًا: «أنا مَن زودها بالماء يا بنت الشوَّاف»، البِرْكة التي مدَّ إليها أدهم بمساعدة عبد الجبَّار مواسير بطول قيراط؛ لكي تمدها بالماء من النيل مباشرة، كانت قد جفت بعد موته، ولم تهتم هاجر بإعادة الحياة إليها، فصارت مقبرة لأوراق الشجر الجافة والأعشاب والطحالب، وادعت النسوة اللائي يساعدن هاجر في تنظيف القصر أنها ممتلئة بالثعابين.

قالت ليلى بصوتها الرقيق مستعطفة: «طيب، ربنا يخليك ليَّ يا عم عبده، ساعدني على أن أعيدها إلى الحياة، فأنا أخاف من الثعابين»،

لا يصدق عبد الجبَّار أن السبب في تنظيف البِركة وإعادتها إلى الحياة كما طلبت هو خوفها من الثعابين، فعيناها الذاهبتان بعيدًا تقولان عكس ذلك، ورغم أنه لا يستطيع تخمين أسبابها بعدُ إلا أنه يردد صاغرًا: «حاضر»، فتصفق بيديها مثل طفلة وهي تغمز له بعينها اليمنى: «حلو، وبدلًا من أن تحفر في الظلام سرًّا، احفر في عزِّ النهار»، واقتربت من أذنه، وهي تدعي الهمس رغم استحالة أن يسمعها أحدٌ: «خلِّي اللعب على المكشوف يا عم عبده».

هذه تحديدًا هي اللحظات التي يريد عبد الجبَّار فيها قتلها... اللحظات التي تختال فيها بذكائها الرباني وتعليمها العالي. يوصلها إلى باب قصرها فيجد هاجر واقفة أمام الباب، فيصرخ في ليلى ماسكًا رسغها ومبعدًا إياها عن الطريق المترب ومقربًا

إياها من الممشى المرصوف: «لا، والنبي، حاسبي»، ترتعب ليلى بالفعل وهي تظن أن تحت قدميها ثعبانًا، ولكنه يأمر هاجر وليلى أن تقرآ الفاتحة ويستغرق في قراءتها معهما بالفعل بصوت مسموع، ثم يضع كفيه على وجهه في نهايتها ويقبلهما ويستدير منصرفًا، تصيح في إثره ليلى بفضول: «هيييييه، على مَن قرأنا الفاتحة؟» فيقول بصوت يحاول أن يجعله حزينًا مختنقًا بالدموع: «هنا، دفنتُ بقايا حديد مرجيحة عم لطفي»، تصمتان قليلًا، ولكن بعد ثوانٍ تأتيه ضحكة ليلى ملعلعة وممتدة وطويلة، فينظر خلفه ليرى هاجر واقفة، كما لو كانت تمثالًا لأحد الفراعين، طلع فجأة من الأرض، كأنهم نصبوه هنا بليلٍ، بينما ليلى تمسك بطنها وهي تخبط بقدمها اليمنى الأرض وتتلوى من الضحك، الذي تردد صداه خلفها العصافير.

ربما كان ذلك أكثر ما يربطه بها ويجعله مثل العبد لديها، كانت تشبهه كأنها ابنته هو وليست ابنة أدهم الشوَّاف، ولو لم يكن متأكدًا من أنه لم يلمس هاجر أبدًا لشك بالفعل أنها ابنته، كانت مثله، قوية، لا يهزها شيء، ولا يخيفها شيء، ولا يعنيها شيء. تسير مثل ملكة تشير إلى العباد ليقفوا أو ليتحركوا ولا يُشار إليها، تقترح عليهم ما يفعلون ولا تستجيب لمقترحات أحد، علاوة بالطبع إلى خفة ظلها التي لا ينافسها فيها إلَّاه، وكم كان يتذكرها كثيرًا في جلساته وسط دخان الحشيش، ويتمنى أن تنادمه ليتبادلا الحديث والنكات.

لم يفهم أبدًا لماذا يمنع العُرْف النساء من هذه الجلسات في قريته الملعونة؟ لماذا لا تجالسه هي بدلًا من هؤلاء الجهلاء السمجين المفروضين عليه كل ليلة؟ وكثيرًا ما كان يصرخ في وجوههم

فجأة إذا ما هاجمته هذه الفكرة: «غور يا بغل منك له، بيتك بيتك، غوروا، قبر يلم دمكم الثقيل وسحنتكم الكئيبة».

******

بعد أن ودع عبد الجبَّار الرجال الذين حمَّلوا عربة نقل ذات مقطورتين، بكل ما شغل البِركة من مخلفات لما يزيد على عشرة أعوام، جلس على حافتها وهو يضيق عينيه في قرص الشمس، كان يتابع عزوز بن بهانة وهو ينحني لينظف ماسورة المياه التي ستصب في ترعة المريوطية. غامت عيناه وهو يحاول أن يتذكر بحسرة ما خلَّفه في المقبرة: رأس تمثال من المرمر ما زالت ملامحه المنحوتة الباسمة تلاحقه، قرون حيوانات من العاج ظلتْ تطارده لمعتها الخافتة لسنوات كلما وضع رأسه على الوسادة لكي ينام، الإله بتاح وهو يضع طاقية على رأسه ويحمل صولجانًا، أواني نحاسية وكأنها تم رصَّها بعناية البارحة، عجل أبيس المقدس وعلامة مثلث أبيض على جبهته ونسر أبيض مخطط الجناح على ظهره، وعلامة جعران تحت لسانه، لوحات صغيرة عليها رسوم مبهجة تشبه العصافير، تماثيل من المرمر الوردي كادت تنطق وهي تنظر إليه بغيظٍ، توابيت مختلفة الأحجام مصنوعة من البازلت والجرانيت الأحمر، عشرات الخراطيش من الجرانيت الأسود، جعارين صغيرة زرقاء. يفتح عينيه ويصحو من ذكرياته قبل أن تدمي أسنانه شفتيه ندمًا كالعادة.

في بورسعيد، قال له الرجل ذو الوجه الأحمر، الذي لم يهتم حتى أن يعرف جنسيته آنذاك: «آه حبيبي، هل أنت تفهم أن الذهب أغلى شيء في الوجود؟ أنت لا تفهم شيئًا يا حبيبي»، وانتحى

بالحاج إبراهيم الصعيدي جانبًا وهو يعنفه: «حرام عليك، حاج إبراهيم، علِّمه يا رجل أصول الشغل، هذا فلاح، وبهيم كبير»، لا يدري عبد الجبَّار كيف علق بالتماثيل الذهبية والقلائد والجعارين خرطوش صغير، منقوشة عليه رسومًا على الوجهين، ظن أنه لا قيمة له، لكنه ظل في جيبه مع كنزه حتى رآه هذا الخواجة في بورسعيد، ودفع فيه أكثر ممّا دفعه في قطٍّ صغير من الذهب الخالص.

لذلك، كان عبد الجبَّار يحفر أرض أدهم الشوَّاف كل يوم، بحثًا عن المقبرة التي أخفاها بيديه الاثنتين ذات ليلة. أحيانًا كان يغرق في الأمل ويشعر أنه على بعد خطوة من درجاتها الحجرية، وأحيانًا كان يضربه اليأس، فيعود وهو يبرطم بما قاله الأقدمون: «هذا الأمر يحتاج إلى صبر أيوب، وعمر نوح، ومال قارون».

لم يترك شبرًا واحدًا لم يحفره طوال سنوات، تعلم أثناءها الكثير عن تاريخ جدوده وتعرف إلى مزارعين ينقبون عن الآثار تحت بيوتهم مثله، ويتحدثون طوال الوقت عن أسعار القطع الأثرية، ابتداء من المومياء الكاملة حتى أصغر تمثال حجري مقطوع الذقن جراء الحفر والنقل، كانوا جميعًا يستعينون بمتولي الحرامي، نسوا اسم أبيه وكان هو نفسه يسمع اسمه هكذا ولا يغضب بل كان ينطقه مثلهم أيضًا.

حين يطرق باب أحدهم ليلًا فيصيحون: «مَن يخبط الباب؟»، فيجيبهم بهدوء وبصوت خفيض: «متولي الحرامي». خرج متولي من السجن منذ سنوات، بعد أن قضى فيه فترة عقوبته إثر القبض عليه متلبسًا وهو يبيع التمثال الأصغر للإله بتاح بدلًا من

أن يحافظ عليه بحكم وظيفته كخفير في «خفر حراسة الآثار»، في متحف بتاح، كان متولي الحرامي يقرِّب من عينيه وأنفه ما يجدون في مزارعهم، ثم يصمت طويلًا وأنفاس مَن يتابعونه محبوسة في صدورهم، قبل أن يقول: «قطعة مضروبة يا عمنا»، أو يصيح صيحته الشهيرة المحببة إلى قلوبهم: «أحب الأصلي».

يسأل متولي الحرامي عبد الجبَّار: «هل أنت متأكد يا كبير أنك وجدت أحشاء آدمية ودفنتها؟»، فيهز عبد الجبَّار رأسه بحسرة: «آه»، يتهلل وجه متولي الحرامي ويصيح: «المقبرة المختفية لم تُفتح منذ آلاف السنين»، ويغرق متولي الحرامي في تأملاته، فحَسبُ وصف عبد الجبَّار تفوق محتويات هذه المقبرة محتويات مقبرة الفرعون الذهبي الشاب توت عنخ آمون، التي أذهل العالم اكتشافها في النصف الأول من القرن العشرين.

يتساءل بينه وبين نفسه: مَن يا تُرى صاحب هذه المقبرة، هل تكون مثلًا لعزيز مصر؟ هل أراد أن يقلد الفراعين العِظام، فشيد لنفسه هذه المقبرة وأخفاها؟

كانوا أيضًا يستعينون بالشيخ برهامي، والشيخ برهامي يأخذ أموال عبد الجبَّار منذ عشر سنوات، وكل يوم يقنعه أنه اقترب كثيرًا من إيجاد تعويذة تبطل تعويذة الفراعنة، التي أخفت باب المقبرة عن أعين العالمين. لو لم يرَ عبد الجبَّار المقبرة بعينيه، لو لم يسد بابها بعد أن سرقها بيديه، لما صدق أنها كانت موجودة تحت هذه الأرض أبدًا، وبالتالي لما صدق حرفًا واحدًا مما ينطق به الشيخ برهامي. عندما يدخل عليه المنظرة مهللًا بصوته العالي

المرح: «يا ساتر»، يرد عليه عبد الجبَّار على الفور: «يا أهلًا وسهلًا بشيخ النصابين».

كان كلُّ ما في الشيخ برهامي يدعو إلى عدم تصديقه... صوته، إشاراته، حركة ذراعيه، مشيته، وهيئته، فهو أصلع يرتدي باروكة ذات شعر أسود ناعم بفرق بلاستيكي مضحك من الجانب الأيمن، من الممكن أن تحصد جائزة أقبح باروكة قديمة في العالم، وهو علاوة على ذلك يرتدي فوقها شالًا أبيض يلفه حول وجهه الممتلئ بالبثور والتجاعيد، مما يجعله لا يشبه الأنثى ولا يشبه الذكر، وكأنه هارب من لقطة في فيلم أبيض وأسود عن مسخ قديم.

عيناه لامعتان وماكرتان يبحلق بهما إلى عين محدثه، فيخفضهما الأخير على الفور خجلًا من هيئة الشيخ الغريبة ويبدأ في الاستماع إليه باهتمام... كان قصير القامة وسمين وبطنه الكبير يتقدمه إلى كرسيه المفضل بجوار عبد الجبَّار. يشكو من زوجته الأخيرة منصورة التي تزوجها منذ أشهر، وهي أصغر من أصغر بناته، يقول إنها تهرب منه كلَّ ليلة بعد أذان العشاء وتجري في الغيطان حتى تصل إلى بيت أهلها، وأن أولاد الحرام، هؤلاء الذين يعملون أعمالًا سفلية لا يتركونه في حاله، فيرمي عبد الجبَّار غاب الجوزة ويقهقه قائلًا بصوت يدّعي الجدية: «المهم، ادعي يا شيخنا ألَّا يكون بانتظارها إبليس صغير في الغيطان، شاب محندق كده على قد سنها»، يتناول الشيخ برهامي غاب الجوزة، ويسحب دخان تعميرة الحشيش، الحجر بعد الآخر ولا يرد على

عبد الجبَّار، فيكمل عبدالجبَّار قهقهته: «يا رجل، اعمل لها عمل يحببها في سحنة أهلك، أو يمكن، باب النجار مخلع!».

***

يبدو أن الشمس على وشك المغيب، ويبدو أن عزوز بن بهانة يحدثه منذ وقت طويل، هل قال له هذا العبيط ما سمع، أم أنه توهم ذلك؟ «أدهم باشا ضيَّع فلوسه عبثًا يا عم الحاج، يحفر حفرة طولها خمسة أمتار، ثم يسدها بالحجارة ويحفر إلى جوارها حفرة طولها متر واحد، كان رجلًا عبيطًا، الله يرحمه».

يرفع وجهه فتصفعه نظرة ليلى وابتسامتها الساخرة على جانب فمها: «والله منورنا يا عم عبده، تسلم يدك يا حاج»، تعقد ذراعيها على صدرها بما يعني أن الوقت تأخر، وأنه عليه أن يأخذ صبيانه ويرحل ثم يعود في الصباح.

من أين تأتي ليلى بهذه القوة، التي تجعلها تعامله كما لو كان أجيرًا لديها؟ إنه هو مَن يمتلك المال والتجارة ورقاب العباد وأرزاقهم في هذه القرية، هو مَن علَّمهم كيف يغسلون أسنانهم بفرشاة الأسنان والمعجون، وكيف يستبدلون بصابون النابلسي شاهين الشامبو والبلسم، وهجرت نساؤهم القميص الساتان الأحمر الإنجليزي والألبسة الدمور ولبسنَ الألبسة الحريرية، هو مَن جعلهم يشاهدون السينما ويتكلمون مثل فاتن حمامة ويحبون ويغنون مثل عبد الحليم حافظ وشادية، ثم فتح لهم دكان تأجير شرائط الڤيديو للأفلام السينمائية الملونة بالألوان الطبيعية، بعد أن زودهم بأجهزة الڤيديو بدفع فوري للأعيان القادرين، وبالتقسيط

لغير القادرين، هو مَن جهّز بناتهم وسترهم بالدفع الآجل المريح، هو مَن أطعمهم أشياء كانوا يسمعون عن وجودها فقط في الإذاعة، فابنة مَن ليلى هذه؟ ابنة أدهم الشوَّاف؟ وماذا فعل أدهم الشوَّاف هذا لأهل ميت رهينة؟

يهرش عبد الجبَّار رأسه ويواصل غمغمته لنفسه: «لا. بل فعل»، لقد كان هو وأدهم وجهي ميت رهينة، كان هو «ملك» العملة وأدهم كتابتها، أوَ لم يرسل أدهم نصف رجال ميت رهينة إلى دول الخليج، يجلبون الأموال من هناك، فيستولي عبد الجبَّار على أموالهم، يتركهم يدقون قلب الأرض بالخرسانة المسلحة، ثم يستبدل لهم حماماتهم، التي لم تكن تزيد عن ثقب في الأرض الطينية، بحمامات مغطاة بالسيراميك، والدُّش السماعة، بدلًا من الطست والكوز النحاسي أو حتى المصنوع من الصفيح، رمى أسرَّتهم بعمدانها النحاسية الشهيرة وناموسياتها، واستبدل بها أسرّة خشبية كانت تصميماتها تذهب بعقولهم، هو مَن أخذ نقودهم وأعمارهم ومنحهم كلَّ ما يحلمون به.

أحيانًا، حين يمر على جبال القمامة المنتشرة على ترعة المريوطية، يباغته هاجس بأنه هو المسئول الوحيد عن تكوينها. تلمع قممها من بعيد بفوارغ علب التونة الصفيح وبرطمانات معجون الطماطم وبخاخات لإبادة الناموس والذباب والبراغيث، وزجاجات جميعها ملونة وبرَّاقة لأنواع لا تُعد ولا تحصى من العطور، وبالأكياس البلاستيكية الفارغة التي يملؤها الهواء أحيانًا، فتطير على رؤوس العباد، وتكاد تصطدم بوجه عبد الجبَّار فينشها بعيدًا كما يهش ذبابة.

كانت الدنيا قد أظلمت، وكان يدندن لكي يغيظ عزوز بن بهانة علَّه ينطق، فيكسر حدَّة غليان الأفكار في رأسه وحدَّة نُباح الكلاب:

«بتحبـــي مين يا بهانة؟

بحــب الشيــخ علـي

يجيب لك إيه يا بهانة؟

طعمية وعيش طري»،

لا يرد عليه عزوز، فهو غارق في تأملاته اللانهائية، يعرف عبدالجبَّار أن عزوز أذكى من الجميع، بينما تراه القرية كلها مجرد عبيط. أخذه عبد الجبَّار من أبيه عبد الستار، وهو لحمة حمراء، بعد أن قتل أبوه أمه بهانة منذ سنوات لم يعد يعرف لها عدد... وضعه في حجر جده الضرير وظل يرعاه حتى صار هذا الفتى الفارع.

يقولون إن عزوز ورث العبط عن أبيه، ولكن عبد الستار لم يكن يبدو عليه العبط في البداية، عمل مع عبد الجبَّار، ورضي أن يكون له عبدًا، رغم معرفته بانتهاء عهد العبيد، إلا أنه بعد أن رأى ثراء عبد الجبَّار الفجائي وعرف أنه سيتزايد ثراؤه، قال له: «خذني إليك عبدًا يا عبدالجبَّار»، وقد كان، أطعمه عبد الجبَّار وكساه وبنى له في أرضه بيتًا مكونًّا من حجرة واحدة وحمام، وزوجه البنت السمراء الصغيرة بهانة، التي لا يتذكر أحدٌ أبدًا

ملامحها الجامدة الصامتة، كل ما يتذكرونه من شكلها هو جديلتان غليظتان تصلان حتى ركبتيها، وكانوا يستغربون كثيرًا كيف ينتج هذا الجسد النحيل الممصوص كل هذا الشَّعر؟!

عاش عبد الستار معها سنتين، حرمتا على القرية أن تنام من صراخها المتواصل بمجرد انتهاء صلاة العشاء إلى ما قبل الفجر بقليل، كانت تزداد نحولًا بعد زواجها وعبد الستار أيضًا أصبح نحيلًا مثلها، بل كان كل يوم يشبهها أكثر، يستيقظ صباحًا بعينين منطفئتين تزداد حولهما الهالات السوداء، يخرج من باب بيته عند الفجر ويسير كالنائم؛ حتى يصفعه عبد الجبَّار على قفاه: «يا ولد الحرام، ألا تستطيع كبح لجام فرسك؟ يا بغل، يا ثور، حرَّمت علينا النوم يا بهيم».

طوال عامين كاملين، لم يجد الرجال ما يتنادرون عليه سوى عبد الستار وبهانة، ولكن هذا لم يمنع بعضهم من أن يسألوه سرًّا عمَّا يفعله لكي يواصل الليل بطوله ليلة بعد ليلة دون كلل؟ وهل من وصفات يتناولها؟ هل هو أكل الجرجير والمش مثلًا؟ أم أنها مجرد تمثيلية منه ومن هذه العجفاء؛ حتى يغيظا الرجال والنساء ويحرما عليهم النوم؟

يشيح عبد الستار بيده إلى وجوههم، ويضيِّق عينيه الضيقتين أصلًا، وتتدلى شفته السفلى السمينة المتشققة ويصيح في وجه محدثه: «والله عيب يا شيخ، والله عيب، تحسد العريان حتى على فعل الشين!» يقهقه من يحدثه ويتمتم: «آه يا فحل جاموس، يا عبيط».

النسوة أيضًا كن يتأملن بهانة، وهي تشمر عن ساقيها اللتين تشبهان جريدتي النخل، بلونهما البني الغامق والشعر الأسود يغطيهما مثل رجلي ماعز، يمصمصن شفاههن ضاحكات، وهن يشرن إلى شعر ساقيها: «البنت يا ولداه لا تنام، وليس عندها وقت لشغل النسوان»، أو تصيح إحداهن عليها: «يا بهانة، خلي بالك من نفسك يا عبيطة، عزوز أكل كل لحمك بالليل، ولم يترك فيكِ إلا العظام»، وتنطلق ضحكاتهن مجلجلة، فإذا ما مرَّ أحد رجالهن ورآها بينهن، كان يعرف على الفور سر ضحكهن، فيصرخ فيهن أن يحترمن أنفسهن ويحتشمن.

لم يعرف أهل القرية بحمل بهانة إلا في شهرها التاسع، فطوال الوقت لم تتغير عاداتها، تذهب إلى الترعة لغسيل الملابس وجلي المواعين، وتملأ جرّتها الضخمة من صنبور المياه العمومية، وتمر على السوق تخطف ما تحتاج إليه خطفًا ولا تجده في أرض عبدالجبَّار، وتعود كما ذهبت مغلفة بجمودها وصمتها، ولولا اصطدام الخالة تبارك ببطنها لما عرفوا أبدًا أنها حامل، اصطدمت يدها بما يشبه البطيخة الصغيرة المدورة فصاحت: «أنتِ حامل يا حزينة؟» وقبل أن ترد عليها بهانة، انطلقت صرختها فحملوها إلى بيتها لتلد عزوزًا.

لا يعرف أحدٌ ماذا حدث ليقتلها عبد الستار بهذه الوحشية مع سبق الإصرار والترصد، هم أيضًا لم يصدقوا أبدًا حكاية سيده
عبد الجبَّار... تركها عبد الستار مع شروق الشمس، وعلى حجرها عزوز في لفته، وأمامها بقايا كوب شاي أعدته له وفُتات فطير مشلتت وجبن قريش، وكانت كعادتها غارقة في صمتها، طار إلى بيت عبد الجبَّار، وعاد ممسكًا بساطور كبير ونظر

والشرر يتطاير من عينيه إلى عينيها طويلًا، قبل أن يجز عنقها. ثم جلس بهدوء إلى جوارها يستمع إلى صراخ رضيعه حتى لحق به عبد الجبَّار، عندما رآه عبد الستار متمسمرًا في مكانه على عتبة الغرفة أمسكه بذراعه وأمره أن يبحلق إلى قعر كوب الشاي، سائلًا إياه ببراءة طفل صغير: «هل هذا يرضي ربنا يا حاج
عبد الجبَّار، تغلي لي الشاي مع هذا؟!».

ظلت عينا عبد الجبَّار تدوران بسرعة في محجريهما غير مصدق ما يرى، فتارة تحط عيناه على صرصار بني ضخم يرقد مع تفل الشاي وقد اختلطت شواربه وأقدامه به، وتارة على رأس بهانة، الذي ما زال يتأرجح على عنقها بينما تسيل منه الدماء. أجلسه عبدالستار بهدوء يليق بمجنون وربت كتف عبد الجبَّار مواسيًا: «ترضاها لعبدك
يا جناب البك؟» ثم تمتم كأنه يحدث نفسه: «شربت الكوب حتى أخره يا عم الحاج».

كم يحبُّ عبد الجبَّار النظر إلى عيني ليلى الشوَّاف، عندما تتسعان هكذا من فرط الرعب! يلتوي فمها من فرط الغيظ، وتنظر إلى عينيه طويلًا، وتهمس ببطء من بين أسنانها: «هل تخترع هذه الحكايات حتى تخيفني؟» يقهقه عاليًا وهو يعرف جيدًا أن قهقهته هي الوحيدة، التي ستطلق دموعها وتجعلها تتحدث من دون توقف، وهو كم يحب الاستماع إلى حديثها! «يا بنتي، كل الناس في ميت رهينة تعرف حكاية عبد الستار وبهانة ما عداكِ أنتِ، يا تعليم أمريكاني، يا جميل».

أنهت ليلى دراستها في كلية إدارة الأعمال بالجامعة الأمريكية في القاهرة. كانت طوال الوقت تأتي إلى البلد زائرة، في البداية كل خميس وجمعة ثم تباعدت زياراتها، أرسلت هاجر معها عفاف ابنة الخالة رحمة لتصاحبها في غربتها وتكون خادمتها، واشترت لها شقة في شارع جامعة الدول العربية بالمهندسين.

من فرط غرابة ليلى وجرأتها في تصرفاتها ولفتاتها وملبسها وضحكتها العالية. كانت نسوة القرية يُرحن أنفسهنَّ قائلات: «هي ليست منا، ليست مصرية»، وعندما أتت بأصدقائها من الجامعة لزيارة ميت رهينة، أخفت الأمهات بناتهن في البيوت خوفًا من أن يقلدن طريقة لبسها وطريقة كلامها وحريتها في مصادقة الشباب، ولكنهن ندمن بعد ذلك؛ لأنهن لم ينتبهن إلى رجل أمريكي كان معهم، ويُقال إنها تزوجته فيما بعد.

منذ عام وصلت ليلى إلى القرية وهي تحمل على يديها رضيعة صغيرة واستقبلتهما هاجر بالزغاريد، وفي المساء دعتْ عبد الجبَّار إلى بيتها، وهي التي لا تطيق سخريته منها وعدوانيته غير المبررة نحوها. عندما جلس في صالونها المذهب موديل لويس السادس عشر، الذي طالما جلس عليه في انتظار أدهم، ظل يتأمل لون قماشه القرمزي الباهت حتى فاجأته دموع هاجر: «أخاف أن يأتي طليقها يا عبده ويأخذ البنت منها، فهو أمريكي وقادر، نحتاج إلى حمايتك يا كبير ميت رهينة»، ومدت يدها بورقتين: ورقة كانت شهادة زواج موثقة من الدكتور نور الدين الأمريكي من جذور مصرية، والثانية هي شهادة ميلاد ابنتها الأمريكية المولد، فلقد سافرت ليلى مخصوص لتلدها في أمريكا.

مع دخول ليلى إلى الصالون لم يتمالك عبد الجبَّار نفسه فانطلق مقهقهًا: «يا بنت الأبالسة! كيف طبخت الموضوع بهذا الشكل؟ وطبعًا مطلوب مني تصوير هذه الشهادات مئة صورة لأهل البلد يا هاجر هانم حتى يعرفوا أنها ليست بنت حرام!»، ثم برطم بما سمعته هاجر جيدًا: «صحيح بنت لطفي مرجيحة!» الغريب أن ليلى جلست بهدوء، وقالت له بالهدوء نفسه: «ربنا أنقذ قرية ميت رهينة ومصر كلها منك يا عم عبده، فلو تعلمتَ لملكت البلد وما عليها ومَن عليها، ولكن الحمد لله أنك جاهل»، ثم نظرت إلى عينيه طويلًا، وكانت نظرتها هي العقد المبرم غير المرئي الذي لم تفهمه حتى هاجر، وكان من أهم بنوده: أنهما سيلعبان معًا لعبة طويلة، لن يستطيع أحدٌ تخمين نهايتها.

******

بِركة هاجر

يستطيع العابر في أرض ميت رهينة في فصل الشتاء أن يخمن ببساطة شكل أيام أهلها، هؤلاء الذين يراهم يسيرون وهم يرتدون العمامة والجلباب البلدي، الذي عادة ما يكون لونه أزرق بلون النيل أو أخضر بلون البرسيم، وفوق الجلباب معطف تتحدد حالة صاحبه الاجتماعية من جودة قماشه أو من عدد الثقوب فيه. أعينهم جميعًا مصوبة نحو الأرض حيث تختبئ كنوز أجدادهم. فجأة ينحنون لالتقاط ما لا يفهم العابر أهميته: حجر ملون مسنون، غصن شجرة معمرة، قطعة حديد صدئة، ورقة مطوية بطريقة مثلثة، جعران ميت، يلتقطه أحدهم بيده ويتأمله طويلًا، وهو يدور حول نفسه باحثًا عن بقية أقدامه الست المفقودة، ثم يحفر له حفرة صغيرة ويدفنه بحرص شديد في الأرض الطينية.

يدهش العابر من عدم تعثرهم أو ارتطامهم بشيء يظهر أمامهم فجأة، ويداهمه شعور بالحيرة في إيجاد وصف دقيق لهم، فرغم أن أعينهم مصوبة إلى الأرض، إلا أن أنوفهم الكبيرة متجهة إلى السماء، ممَّا يجعل هيئتهم تشي بالحزن واللامبالاة والكِبر والانكسار في الوقت نفسه، يهيأ للعابر أنهم مغلفون بغلالة شفافة ما، لا يستطيع أحدٌ معرفة مكوناتها، يبتسمون في وجهه وهم يومئون برؤوسهم، ويردون عليه بأقل عدد ممكن من الكلمات، يدلونه على الطريق الذي يحفظون عدد حجارته عن ظهر قلب، ولسان حالهم يقول له إن مسعاه سيخيب، وإنه سيعود خاوي الوفاض.

قد تتخشب ملامحهم وهم يحدثونه بكلمات مرحبة وحلوة، وقد تلين ملامحهم وهم يحدثونه بخشونة، وقد تصطدم عيناه بنظرة ساخرة من عيني طفلة لم تتجاوز بعدُ عامها الرابع، ولكن شحوبها الشديد مع عمق نظرة عينيها يجعلانها وكأنها تجاوزت المئة عام من عمرها، فيصرخ فجأة ويخلص قدميه من جرذان الحقول التي تناوشه، ويأخذ ذيله في أسنانه ويغادر المكان على الفور.

سمَّتْ هاجر حفيدتها: «نور». قالوا إنها أرادت أن تجرِّب تربية الأطفال وتجرب الأمومة في هذه السن، فلقد أنجبتْ ابنتها ليلى وهي لم تتجاوز السابعة عشرة، وقالوا إنها كانت تحب أدهم حبَّ الكلب لصاحبه، فلم تجد اسمًا لحفيدتها إلا ما سمى به ابنته الصغرى من ريتاج، وقالوا بل سمَّتها نور على اسم أبيها الهارب، هذا الاسم الذي يصلح للذكر كما يصلح للأنثى.

لم ير أحدٌ أباها أبدًا، ولذلك كان الجميع ينادونها سرًّا: نور بنت هاجر. كانوا يتجاوزون أمها ليلى، ولا يتذكرون أنها أمها إلا في لحظات رؤيتهما معًا، وهي على كل حال لحظات قليلة.

مع نور عادت الروح إلى هاجر من جديد، جعلتها ابنتها جدة، وهي في الأربعين من عمرها، وكانت بكامل ألقها، بل استدار جسدها ونُحتت ملامحها أكثر فأصبحت لا تمل هي نفسها من النظر إلى وجهها في المرآة، تعرف ما توشوش به نسوة القرية بعضهن مع البعض، بأنها مثل حديقة برتقال مهجورة لم يدهسها أحدٌ وستظل تلمع ثمارها إلى حين حتى تعطبها الشمس وتتساقط تلقائيًّا على الأرض.

مع تعلم نور المشي على الممشى الحجري للحديقة، أخرجت هاجر من خزانتها جونلات قصيرة، مثل التي كانت ترتديها الممثلة المصرية ناهد شريف، وفساتين بقصّة سندريلا تظهر نهر ثدييها، وبلوزات موديل كارمن تظهر أكتافها العارية وقبَّعات مختلفة ألوانها، مثل التي كانت ترتديها الممثلة العالمية صوفيا لورين، كان أدهم قد اشتراها لها بعد زواجهما في منتصف السبعينيات.

تضحك ليلى وتجز على أسنانها مؤنبة أمها: «لم تعد النساء يرتدين هذه الملابس الآن». فتتأملها هاجر مليًّا من رأسها حتى أخمص قدميها وتتوقف عيناها طويلًا على بنطلون ليلى الجينز الكالح، ثم تقول ببطء: «مع الأسف، ملابسهن الآن جعلتهن لا يشبهن النساء». حتى بنات القرية اللائي صرن جميعهن يذهبن إلى المدارس والجامعات، كن يطلقن ضحكات خافتة بمجرد رؤية هاجر بملابسها الغريبة، ويتابعونها كأنها بطلة خارجة من فيلم قديم بالأبيض والأسود.

******

فوق قبَّعات ملونة قديمة، كانت تنتثر منها رائحة حبَّات النفتالين.. حلّقتْ على رأس هاجر الذكريات، ستظل تتذكر لمعة عيني عبدالجبَّار السوداوين وهو يبحلق إلى وجهها بانبهار، فراشات دودة القطن كانت تحوم حول النار التي أشعلها ليتدفأ، ولا يتوقف دورانها حول عمامته، وهي تبدو مثل القمر وسط الضباب وشبورة الصباح، تتذكر وجهه المبتهج عندما كان يطرق بابها صباحًا ويضع في حجرها ثمار المانجو أو المشمش أو البرتقال،

التي كان يسرقها من أجلها من حدائق تبعد بضعة كيلومترات عن ميت رهينة، هي أيضًا كانت تكافئه بصدر إوزة محمَّر في الفرن، لحقت رقبتها بالسكين منذ ساعتين، قبل أن يزهق روحها مرض مفاجئ، يصرخ أبوها لطفي مرجيحة: «أين صدر الإوزة؟» فتجيبه بهدوئها وجمودها: «القط خطفه وطار».

تسأل هاجر نفسها: هل ترتدي ملابسها الجميلة الآن حتى يراها ويحبها من جديد؟ تعرف أنه لن يسامحها أبدًا، ولكنها بينها وبين نفسها تتهمه بالغباء، وأنه مثل الثور الهائج لا يستطيع التفكير، أوَ لم يكن عليه انتظارها عامين فقط لا غير؟ لقد مات أدهم بعد زواجهما بعامين، فلماذا تعجَّل على هذا النحو في الزواج من هند أم منخار؟!

لم تكره هاجر من قبل امرأة بقدر ما كرهت هند بنت القاضي، تلك النحيفة العجفاء، عيناها مثل خرمي الإبرة ضيقتان، وبشرتها بيضاء شاحبة مثل البرص، وأنفها طويل ولذلك يطلق عليها الأطفال بأصواتهم العالية الحادة: «أم قردان» أو «أم منخار»، وذلك عندما تضبطهم وهم يسرقون كيزان الذرة أو حبَّات اليوسفي أو الليمون أو البرتقال أو المانجو من حديقتها، تجري خلفهم ضاربة إياهم، وهم يقهقهون ويشهقون بالدموع مواصلين الصراخ: «أم منخار اتهبلت
يا جدعان».

تصل هاجر إلى حافة ترعة المريوطية، وتقف إلى جوار طلمبة المياه الصدئة المهجورة جنب شجرة التوت العجوز، يرتجف جسدها ليس من برد الشتاء ولكن من رؤية خطوات عبد الجبَّار

القادم نحوها من بعيد. يعرف هذا المعطف الأسود الفرو الذي تلبسه الآن فهو من جلبه لها ضمن البضائع المستوردة التي كان يجلبها من بورسعيد، هو حتى يتذكر كم دفع فيه أدهم، وكان مكسبه آنذاك أكثر من ضعفي ثمنه.

أشاحت هاجر بوجهها صوب قاع الترعة، وتظاهرت بأنها لم تر عبدالجبَّار، وإنما هي منهمكة في متابعة الصبية الصغار والفتيان، وهم يصطادون القراميط من قعر الترعة التي جفَّ ماؤها. كان ينتابها هذا الحزن غير المبرر، الذي ينتاب المرء في يوم شتائي بارد، إذا ما لاحق بعينيه أسراب الطيور المهاجرة من بلاد الله إلى مصر لتقضي الشتاء الدافئ بها، أو إذا ما لاحقت أذناه صوت طائرة تحلق في السماء حتى تختفي تمامًا.

تتنهد هاجر بخيبة أمل وهي تستمع إلى قهقهة عبد الجبَّار: «الله يرحم عم لطفي مرجيحة، كان زمانه اصطاد مئة قرموط، وهو مشمر جلبابه وغاطس في روبة الترعة في عزِّ البرد». تواصل صمتها، وتنظر إلى عينيه ساهمة، تعرف أن هذه النظرة كانت قديمًا تكاد تصعقه في مكانه، وتجعله يردد دون توقف: «أبيع حياتي كلها فداء نظرة
يا حبيبتي». لم يبع عبد الجبَّار حياته فداءها، لم يدافع عنها لأكثر من نصف يوم، لم يتحمل أن يذود عنها حتى إلى الظهيرة. تلك اللحظة التي اتفق فيها أبوها مع أدهم الشوَّاف على كتب كتابها في مساء اليوم نفسه، يومها اكتفى عبد الجبَّار بالحجر الذي رماه أبوها إلى وجهه، وذهب ليعالج شجَّ جبهته في بوظة السكري، حيث كبسوه له بالبُن.

تقول له وهي تداعب الكرات القطيفية الملونة في جوارب نور: «عارف يا عبده... أنا عارفة نواياك مع ليلى».. ينتفض جسد عبد الجبَّار، ويمثل ساخرًا أنه لدغه ثعبان ملوحًا بيده علامة الوجع: «بوررريه، من ليلى بنت الشوَّاف، يا لهوي، تخافين عليها مني أنا
يا حزينة؟»، ثم يعود إلى قهقهته.. تحمر وجنتا هاجر وتتسع عيناها في محاولة للفهم، فيقترب منها أكثر هامسًا، وهو يهز رأسه باستمرار مثل بطة: «ليلى مثل جدها تمامًا، تحب المشاريع الفاشلة».

ترفع هاجر أنفها إلى السماء: «جدها الله يرحمه، كل مشاريعه ناجحة، ويعمل فيها مئات الأنفار مثلك يا عبده»، ترتفع قهقهته أكثر: «يا هاجر، عندها جد آخر يا فالحة، عم لطفي مرجيحة، يا سلام! أنت لا تحسبينه طبعًا». وذكرها بما لا تستطيع نسيانه، فأبوها بالفعل كان يدخل برأس مال لا يتعدى الخمسة جنيهات مشروعًا بعد مشروع، يجلب لِبش القصب من بعيد محملة على عربتين كارو، ويرص القصب إلى جوار الأرجوحة ويجلس أو ينام أمامها على رقعة الخيش، ويحاول بيعها لأهل القرية، ولكنه وبمجرد أن تغفو عيناه يسحب منها الجيران ما يريدون مصه، تاركين له مصاصة القصب مكان العيدان الصحيحة، يعود إلى توفير الخمسة جنيهات نفسها بالامتناع عن شراء أي شيء، ويأمر هاجر أن تتسول الخبز من الجيران وقت خبيزهم، صارخًا بكلمات مقتضبة: «أم إسماعيل تخبز اليوم، قومي، الحقيها»، يطلب منها أن تعيش على أكل القراميط التي يصطادها من الترعة.

في هذه المرة، يشتري بالخمسة جنيهات مقلاة كبيرة وفولًا مدشوشًا ودماسة فول، ويقلي أقراص الطعمية، فتوقظ رائحتها الشهية شباب ميت رهينة فيتخاطفونها فور خروجها ويلتهمونها، واعدين إياه بالدفع لما يأتي وقت لمِّ الدودة من الحقول، فيواصل قذفهم بالحجارة، حتى اشتبك ذيل جلبابه ذات يوم بالمقلاة فوقع على ساقه الزيت المغلي فحرقها، وظل يُعالج من الحريق شهورًا في الوحدة الصحية حتى نسي مشروعه، ووضع عِدّة الفول والطعمية أعلى سقف عُشته، وبات يفكر في مشروع جديد.

ذهب إلى الجيزة، واشترى فوانيس رمضان الصفيح وعُلب الشمع، ولكن قبل قدوم عيد الفطر بأيام حسب ما كسب وما صرف، فوجد الأموال ناقصة، فألقى بقية الفوانيس بغيظ في ترعة المريوطية.

لم تكن هاجر تعرف تحديدًا ما تخطط له ابنتها، فهي منشغلة طوال الوقت في إعادة ترميم القصر. ألقت كل الأثاث القديم في الحديقة، وطلبت من عبد الجبَّار أن يحضر نجاريه لتصليح الموبيليا وتلميعها، جعلتهم يضيفون إلى الأسرَّة الخشبية أعمدة متشابهة، قالت إنها تشبه أعمدة معبد أبي سمبل في أسوان، وزينت خزانات الملابس برؤوس منحوتات خشبية تشبه الكباش والجعارين الكبيرة، وجعلتهم يصنِّعون لها في ورش عبد الجبَّار للنجارة عشرات الرؤوس الصغيرة لنفرتيتي ويركبونها كمقابض للخزانات وأبواب الغرف، واشترت تماثيل ضخمة مستنسخة لأبي الهول وتوت عنخ آمون وإخناتون وأهرامات الجيزة، وتمثالًا ضخمًا لفلاحة مصرية بجلبابها القديم المزين ذيله بكورنيش طويل، ولفلاح مصري بعِمته الشهيرة، وجلبابه البني

بلون طمي الأرض، ويبدو أنها ستضع كل ذلك في الحديقة، وهي الآن تشرف على طلاء غرف الطابق الثاني بألوان وديكورات غريبة.

لا تعرف هاجر ما الذي تسعى وراءه ابنتها، فهن لا يستخدمن أكثر من أربع غرف مع ردهة البيت الكبيرة في الدور الأول، ولا يزورهن أحدٌ تقريبًا طوال العام، إلا في شهر أغسطس، عندما تصل ريتاج وبناتها الأربع وأحفادها من السعودية لقضاء إجازتهم السنوية في مصر، وفي الآونة الأخيرة، كانوا يفضلون المرور على القصر فقط لرؤية ليلى، ثم أخذها معهن للإقامة في أحد فنادق القاهرة الخمسة نجوم. فما الذي تخطط له ليلى؟

يمطُّ عبد الجبَّار شفتيه ولا يريحها بكلمة واحدة، كأنه يقول لها: «اسألي ابنتك»، وهو بالفعل لا يعنيه أن ليلى تفكر في تحويل القصر والحديقة الكبيرة إلى مشروع سياحي ضخم، لم تُسِر له حتى الآن بشكله كاملًا، ولكنه كان كل يوم يقترب أكثر من فكرتها، طلبت منه منذ أيام أن يأتي لها بمَن يدق لها طلمبة مياه يدوية، وعندما سألها مستغربًا لماذا والشوَّاف هو أول مَن أدخل المياه ميت رهينة؟ نظرت إلى عينيه طويلًا وقالت ببطء كأنها تحدث طفلًا صغيرًا: «ديكور
يا عمي عبده. ديكور»، ثم طلبت منه إحضار مَن يبني لها فرنًا طينيًّا كبيرًا لخبيز العيش في مدخل الحديقة.

هو لا يعنيه كل ما تفعله ليلى، فلتأخذها داهيةٌ هي وكل مشاريعها الاستثمارية التي تفشل في النهاية، فتسدد ريتاج زوجة أبيها الأولى كل ما خسرتْ بإرسال أموال سائلة طائلة، فتختفي لأيام

وتعود بمشروع جديد.. وهي ما زالت في الجامعة أسستْ شركة استيراد وتصدير، وأغلقتها، ثم تفتق ذهنها عن تأسيس مصنع للمشغولات اليدوية، وجمعت بنات القرية لتعلمهن، ثم ذات صباح مضت كل منهن إلى عريسها، وتركنها وحيدة في حجرتين بنتهما على عجل في الحديقة الخلفية للقصر، أخذتْ كل ما غزلن من لوحات حريرية ومفارش، وما صنعن من أوان فخاريَّة ونثرتها في بيتها الكبير، ونسيت الموضوع برمته، يعتبرها عبد الجبَّار ثرية موتورة تريد الانتقام من أمها وزوجة أبيها بتبديد كل ما تمتلكان من أموال وأطيان.

هو بالفعل لا يعنيه أي شيء في هذه الدنيا إلا إيجاد المقبرة التي أخفاها بيديه الاثنتين. ليلة أمس، همس له عزوز بأنه رأى سلالم حجرية تصل إلى باب حجري قديم عليه جعران ضخم، ولكنه ما كاد يخطو نحو أولى الدرجات حتى اختفى كل شيء، ووجد نفسه يسير من جديد على أرض مستوية، هي الأرض التي تحيط ببركة هاجر. عبد الجبَّار يصدق بالطبع عزوز، فهو يطارد هذه السلالم الحجرية منذ أكثر من عشرين عامًا، ورآها وهي تهرب منه وتختفي أمام عينيه مئات المرات، يضرب جبهته بكلتا يديه ويكاد يصرخ مثل النسوان، وهو يردد بينه وبين نفسه: ربما لأنه يحفر ليلًا، فليأتِ مع شروق الشمس، ولكن ما يحدث في الليل يحدث في عزِّ النهار، لم توجد ثانية في ثواني الساعة التي خلقها الله، لم يجرب فيها عبد الجبَّار الحفر، ولم يوجد شبر في أرض الشوَّاف لم يحفره.

يكاد عبد الجبَّار يُجن، وهو يسأل نفسه: هل تتجول المقبرة في هذه الأرض، وتبدل من مكانها بكل ما تحمله من كنوز ثقيلة

ومومياء وأوانٍ وخراطيش وجدران ملونة تلمع ألوانها الحمراء والزرقاء، وكأنها رُسمت بالأمس فقط؟ ما من مكان في هذه الأرض لم يقرأ عليه تعاويذ فكِّ سحر المقبرة، هو والشيخ برهامي، ما من بقعة في هذه الأرض لم تشرب دم بومة، نحرها على عجل قبل أن يراه أحدٌ وظل إلى جوارها حتى بذلت آخر قطرة من دمائها وشربتها الأرض، بل إنه حتى ذهب إلى الكنيسة مع شريكه وصديقه المقدس فانوس جرجس، وهناك قابل رجل بلحية طويلة في ملابس كهنوتية سوداء، أعطاه زجاجة، وقال له أن يضع نقطة واحدة منها على ما يشاء من الماء ويقوم برشه على تلك الأرض، وهكذا حتى يغطي الأرض كلها وينفد ماء الزجاجة. يعود ليصرخ في وجه برهامي الذي يعرف أنه نصابٌ: «دمُ بومة، هه، ألا يوجد في مخك شيء جديد لفكِّ سحر المقبرة؟ لقد جعلتني أنهي سلالة البوم من ميت رهينة، لم تتبق بومة واحدة تطير في الناحية يا شيخ النصابين».

يهمس عبد الجبَّار بحسرة: «أكثر من عشرين عامًا». تعتقد هاجر أنه يتذكر أوّل يوم صارحها فيه بحبه، بينما يتذكر هو طول الفترة التي ظل فيها يبحث عن مقبرته. تظل هاجر من فرط توترها تدير كرة الجوارب الصغيرة القطيفية حتى تمزقها فتقع على الأرض الطينية، يهيأ لها أن عبد الجبَّار سيلتقطها ويناولها إياها، ولكنه يعطيها ظهره ويسير خطواتٍ قليلة، وينحني على الأرض يلتقط علبة صفيح قديمة وجزءًا من غصن شجرة كافور ويعود إليها مادًّا يده بهما، ولكي يشجعها على أخذهما يضرب على الصفيحة بالغصن مغنيًا بصوته المبحوح:

«يا بنات الحور سيبوا القمر يدور

يا بنات الجنة، سيبوا القمر يتهنى».

تأخذ هاجر منه الصفيحة والغصن بيدها الحرة، وتلقيهما بعنف وغيظ في الترعة، كانت هذه هدية عبد الجبَّار لها منذ أكثر من عشرين عامًا، في الوقت الذي لم تكن قرية ميت رهينة لم تتعرف بعدُ إلى صفائح السمن البلدي والاصطناعي، وكان من النادر أن يجد المرء في طرقاتها المتربة كل هذه العلب الصفيحية، أيام كانت هاجر تستيقظ قبل طلوع الفجر، وتنتظر حتى ينهي الرجال الصلاة ويعلقون دوابهم بالمحاريث ويذهبون إلى الحقول، فتسير وراءهم، تجمع روث البهائم في مقطفها، وتخلطه بعد ذلك بالتبن، وتعجنه، ثم تعمل منه أقراصًا تنشرها في الشمس، وعندما تجف تكون وقودًا لفرنها الذي تخبز فيه خبزًا ما زالت تشم رائحته حتى هذه اللحظة وطواجن تدوخ رائحتها رأس أبيها فتجده لا يكف عن الصراخ: «متى يجهز هذا الأكل؟».

تنظر حولها، كم كانت قريتها نظيفة وجميلة رغم فقرها آنذاك! تصطدم عيناها بعيني عبد الجبَّار المبتسمتين دون مناسبة كأنه يشاركها ذكرياتها، فتعود إلى الممشى الحجري، وهي غارقة في صمتها وخيبة أملها فيه كالعادة.

******

لا تتذكر ليلى متى تحديدًا بدأت علاقتها تنهار تمامًا بهاجر، وتقترب أكثر من ريتاج بل تكاد تحب زوجة أبيها أكثر من أمها، ربما عندما دق قلبها للمرة الأولى، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، أحبت مدرس اللغة العربية الوسيم، مثل نصف بنات

الفصل، أغرقت دموعها وسادتها طوال عام كامل، وهي تستمع طوال الليل والنهار إلى أغاني عبد الحليم حافظ، لأن مدرس اللغة العربية فتى أحلامها بمجرد أن شعر بمحبتها عاملها بجفاء أكثر، كانت تتلصص عليه فترى عينيه الجميلتين تلاحقان مُدرسة اللغة الإنجليزية الشابة فتشعل الغيرة قلبها أكثر.

عندما زارت ريتاج ميت رهينة سألتها ليلى المعذبة بالحب: «كيف تحملت، بل وافقتِ على زواج زوجك بأخرى؟!» نظرت إليها ريتاج باستغراب، وهي تقول ببطء: «بعد سنة أو سنتين أو عشرين سنة مثلًا من العِشرة، الجلد يؤاخي يا بنتي، يصبح الزوج والزوجة مثل أخوين».

كانت ريتاج تبدو مثل جدتها إذا ما سارا معًا، ليتجولا في حواري مصر القديمة، تصحبها إلى المقاهي الشعبية، التي تحب الجلوس فيها لتدخين الشيشة التي تطلق عليها: «الأرجيلة».

اتخذت ريتاج من ليلى ابنة لها وحارسة أسرارها في القاهرة ووكيلة أعمالها، فهي تنجز لها كل ما تريد، تلتقي بعملاء وتوقع عقودًا نيابة عنها، تعقد صفقات بمجرد أن تصل إلى ريتاج، تصيح بفرح:
«يا للي عليكي يا ليلى، يا للي». تحجز لها قبل وصولها إلى مصر مواعيد لدى أشهر الأطباء في القاهرة أو الإسكندرية، لها ولبناتها الأربع، وخصوصًا أطباء التجميل، فريتاج مهووسة بكل ما يمنع تقدم عمرها. تحفظ ليلى كل الجداول الزمنية لحُقن السيلكون، والبوتوكس، والكولاجين، وتقشير البشرة، ونفخ الشفاه، وشفط الدهون من أردافها السمينة، ومواعيد جلسات

الليزر لتقشير وتفتيح بشرة أخواتها البنات اللائي ورثن عن أمهن هوسها بعمليات التجميل.

أحلام أختها الكبرى تعاني الآن من فشل لعملية تكبير ثدييها وهي تزور القاهرة سرًّا للعلاج، ونور الصغرى حاولت تغيير ملامحها بالكامل، وتُعالج منذ عامين من اعوجاج أنفها والقروح التي داهمته جراء عملية فاشلة لتغيير شكل أنفها، ممَّا يجعلها ترتدي النقاب في القاهرة على غير عادتها طوال الوقت.

لعبت ريتاج في حياة ليلى دور أبيها أدهم الشوَّاف الذي لم تره، فلقد مات وعمرها يزيد على العام بشهرين. كانت ريتاج تعامل هاجر كما لو كانت خادمة لواحدة من نسل عائلة الشوَّاف، وتنتظر بشغفٍ أن تنهي ليلى دراستها الجامعية في القاهرة حتى تضمها إلى بناتها الأربع في قصرها بالحجاز، والصبر ليس غريبًا على ريتاج، فأخوات ليلى اللائي تقترب أعمارهن من عمر أمها، تخرجن في جامعة ليلى الأمريكية نفسها، وعشن سنواتٍ في مبناها العريق والشهير في ميدان التحرير، ثم عدن إليها، وهن منذ سنوات يدرن أملاك الشوَّاف المتناثرة في المملكة.

في البداية، كانت ليلى متعاطفة مع أمها هاجر، وملتصقة بها، تحتضنها وتبكي وتؤكد لها أنها لن تتركها أبدًا، ولن تذهب إلى أي مكان، فهي تعشق ميت رهينة، ثم تطلب منها ألا ترد على ريتاج، مهما قالت لها ولتدعها تقول ما تشاء وتحلم بما تشاء، وستفعل ليلى ما تريده هاجر في النهاية. تحاول ليلى اصطياد اللحظة التي أصبحت فيها العلاقة بينها وبين أمها شديدة الجفاف، حتى أنها درَّبتْ نفسها طويلًا ألا تدعوها بكلمة: «ماما»، واستبدلت بها

كلمة: «أنتِ» وأحيانًا: «حضرتك». وعندما كانتا تصرخان كل منهما في وجه الأخرى، كانت تلفظ اسمها مجردًا من بين أسنانها بغيظ: «خلاص، يا هاجر»... تلفظه في وجه أمها كما لو كانت تلفظ قطعة نار.

لم يحدث هذا الجفاف لاكتشاف هاجر حمل ابنتها في الشهر الخامس ذات ليلة شتائية وعاصفة وحزينة بعد انقطاعها عن زيارة ميت رهينة لثلاثة أشهر كاملة، بل حدث قبلها بسنوات، ربما في اللحظة التي اكتشفت فيها هاجر أن ابنتها كبرت مبكرًا، وبما يكفي لاتخاذ قرارات تخصُّها وحدها دون الرجوع إلى أمها، ويومًا بعد يوم ازدادت خلافاتهما وخرج صوتهما لما وراء جدران القصر، وتسرب من نوافذه واستقر في حِجر نسوة القرية، فقلنَ أنهما يتشاجران مثل أختين إحداهما في سن المراهقة الخطرة، والأخرى تتصرف كما لو كانت عانسًا، لم تفلح في اصطياد رجل. وبالتأكيد انحزن لليلى، فهن لن يسامحن هاجر أبدًا، التي خلفتهن من زمن طويل في فقرهن، وغادرتهن وهي بينهن لتعيش حياة الأثرياء بزواجها برجل ليس من بني جلدتها، بل كانت تتعمد أحيانًا أن تأتي بالبنات اللائي لعبت معهن الحجلة أمام عشتها ليخدمنها ويخبزن لها خبزها، هن وأمهاتهن.

أوجعت ليلى أمها بعشرات التفاصيل، التي لا يمكن أن تنساها هاجر، كأن تهديها أصغر خاتم في علبة مجوهرات ضخمة، أرسلتها إليها ريتاج في يوم تخرجها في الجامعة، أو كأن تحزم حقيبتها الصغيرة بهدوء شديد وتغلق الباب خلفها بعنف على إصبع أمها، التي تحاول منعها من ترك البيت، ولكنها تتركها غارقة في دموعها وحيرتها، وهي تحاول ملاحقة أخبارها عبر

عشرات المكالمات الهاتفية لتطمئن عليها... هل وصلت إلى شقة المهندسين في القاهرة، أم أنها لحقتْ بأوّل طائرة متاحة لها وسافرتْ إلى ريتاج في المملكة.

******

يتقلص فم ليلى على ابتسامة ساخرة وهي تلاحق بعينيها من خلال الستارة عبد الجبَّار، وهو ينبش الأرض مثل كلب مجنون يحفر بحوافره لكي يجد جثة شم رائحتها. تعرف جيدًا أن عبد الجبَّار ينفذ كل أوامرها لكي يُتاح له أكبر قدر من الوقت ليحوم كما يحلو له في أرض الشوَّاف بحثًا عن مقبرته المفقودة.

استأجر بلدوزورات ضخمة وأوناشًا لا تحتاج إليها أعمال الترميم والبناء. الآن يشمِّر سرواله ويهبط مع هبوط الأرض إلى حفرة البِركة الهائلة مهرولًا، تلمح في عينيه لمعة الجنون قبل أن يختفي فيها. تنصتت عليه ليلة أمس، وكان يحاول أن يخفض صوته، وهو يهذي سائلًا عزوز بن بهانة بإلحاح أن يتذكر أين تحديدًا رأى الدَرج، وهو يختفي من تحت قدميه، كان يصرخ في وجهه أن يحاول الوقوف عليه بالضبط، ثم بعد عدَّة محاولات من دورانهما حول نفسيهما، جلس عبد الجبَّار واضعًا رأسه بين كفيه، وصرخ في وجهه أن يجري ليحضر الشيخ برهامي.

ينظر الشيخ برهامي طويلًا إلى بلاط بِركة هاجر الأبيض اللامع المنقوش بنقاط سوداء كبيرة، ثم ينظر بغيظ في عيني عبد الجبَّار، ويقول له ببطء: «أغضبت ملك المقبرة يا عم الحاج، أغضبته، ولن يفتح لك بابها أبدًا، قلت لك أن تختفي حتى نفتحها بإذن الله،

ثم ندعوك إليها، لماذا لم تترك عزوز البَركة هذا يواصل فتحها؟ لماذا تدخلت فحجبتْ المقبرة نفسها مرة أخرى؟ توقظني في منتصف الليل يا رجل لأقول لك ما قلت من قبل آلاف المرات! أنت حتى
لا تريد الاعتراف بما اقترفته في حق صاحب المقبرة فختم بلعنته على عينيك».

يصرخ عبد الجبَّار: «اخرس يا شيخ النصابين، واعترف أنك نصاب، هل فتحت مقبرة من قبل بتعاويذك وأعمالك؟ سمِّ لي مقبرة واحدة فلحت في فتحها يا نصاب، هه؟ سمِّها»... يتركه الشيخ برهامي ويسير إلى المكان حيث أشار إليه عزوز، يسمع عبد الجبَّار من آن إلى آخر صيحته الشهيرة: «حي». ويعرف أنه يهزُّ رأسه وينتفض أثناء صياحه بها. تغيب عيناه في محتويات المقبرة التي سلمت له نفسها ذات شروق ربيعي: رجلٌ بكامل أبهته وهيبته يمسك بعصاه وأمامه كاتب يجلس، وقد أمسك ريشة ولوحًا ولفافة بردي على حجره، فهل كان يسجل، عدد الحلي الذهبية التي تسلمها لتوه؟! ورجل آخر أقل مهابة يتلقى قلادة كبيرة من امرأة في يدها الأخرى قلائد وأساور، بينما يرقد أمامه تابوت من الجرانيت الأحمر هائل الحجم، وتماثيل خشبية وأوان زجاجية وفخاريَّة وخراطيش، وتماثيل لنسوة أجسادهن الرشيقة تُذهب بالعقل لولا رؤوس الحيوانات والصقور التي تعتليها.

كان سقف المقبرة ملون باللون الأسود المائل إلى الزرقة، تملؤه نجوم صفراء تسحب النظر بمجرد الحملقة إليها، تصور عبد الجبَّار لحظتها أنه انتقل من عالمه إلى التحليق في هذه السماء المفتوحة على عالم آخر، حتى أنه بمجرد انتهائه من سرقة

المحتويات الذهبية وخروجه من الحفرة، أوجعته عيناه من نور الشمس، وشعر برعدة كبرى كأن شيئًا غير ملموس خرج من روحه وإلى الأبد.

ما لم يحكه لأحد قطُّ، وما لا يريد حتى تذكره أنه وبعد أن ثنى جلبابه وجمع فيه ما وصلت إليه يداه، رأى بما لا يدع مجالًا للإنكار أن التوابيت الجرانيتية والنجوم الصفراء والأواني ووجوه التماثيل ورسوم الجدران تتحرك حركة غريبة؛ لكي تتطلع إلى وجهه. لم يكن يخيفه شيء في مقابرهم ومعابدهم المفتوحة منذ زمن سواء التي فُتحتْ حديثًا أو التي ظل يطؤها طوال عشرين عامًا، لا ثعابين المقابر الهائلة الحجم ولا الرائحة القادمة منذ آلاف السنين، ولا الأرواح المعلقة في فضائها، التي يستطيع حتى أكثر الناس إلحادًا الشعور بحركتها. ولكن هذه الحركة أخافته حتى ارتعدتْ مفاصله آنذاك، وليس هذا هو المدهش، وإنما المدهش أكثر أنه يرتعد الرعدة نفسها كلما تذكر مشهد خروجه قبل أن تزداد حركة الأحجار قوة وتُغلق الفتحة الواسعة التي حفرها؛ فيُدفن في أحد التوابيت إلى الأبد، ولذلك يتحاشى تذكر هذا المشهد.

تراقبهم ليلى من علٍ، وتكتم ضحكتها، وهي تتابع هزات جسد الشيخ برهامي النصاب، وهو يردد دون توقف: «حي». بعد أن ذهب عزوز والشيخ برهامي قبل الفجر بقليل، نام عبد الجبَّار في مكانه، ورأى أن جعرانًا أسود كبيرًا يجثم على صدره، ويغطي جسده كله
ولا يترك له ثقبًا ليتنفس منه الهواء، تتحرك أرجله الست محاولة الدخول في عينيه وأذنيه وأنفه وفمه، يحاول الصراخ ولكنه لا

يستطيع، يستمع إلى صوت الرعد، ويخمن أن البرق قد يجعل عابرًا ما ينقذه ويخلصه من هذا الجعران... إنه يشبه كثيرًا الجعارين الصغيرة، التي رآها في المقبرة مستخدمة كأختام ومزاليج للتوابيت ومنقوشة على الخراطيش، ولكنه الآن أكبر من بقرة، حتى أنه لا يرى فوقه إلا ظله الأسود كسحابة سوداء هائلة.

عندما نغزته ليلى بغصن شجرة توت لين في كتفه، قام مفزوعًا وهو يصرخ وينتفض ويشيح بيديه في كل الاتجاهات، كأنه يخلص جسده من ثعابين ملفوفة عليه، أخذ وقتًا طويلًا حتى تخلصت ملامحه من تشنجها، ولم يجبها حين سألته ساخرة: «من سمح لكَ أن تنام في أرضي يا عم عبده؟» قال كأنه يدرِّب نفسه من جديد على الكلام: «ماء.. ماء لوجه الله تعالى». أمرت له ليلى بكوب ماء وانتبهت إلى حالته المزرية، وهو يهزُّ رأسه هزات متتالية، وظلت تخمن بينها وبين نفسها ما حدث له ليلة أمس، وعندما غرق من جديد في ذهوله ونظرات عينيه الزائغة، قالت له في هدوء: «عادت المقبرة من جديد إلى الاختفاء، أليس كذلك؟ ولكن ماذا فعل معك حراسها؟ هل حصلت على نصيبك من لعنة الفراعنة يا عم عبده؟»، ثم نشرت يديها كأنها مخالب نسر في وجهه مازحة، وهتفت بصوت مبحوح: «عووووووووو».

لكنها ولدهشتها رأته يزحف بعيدًا بظهره عن يديها وعادت ملامح وجهه إلى التقلص من الرعب مرة أخرى، جلست إلى جواره ملقية الغصن بعيدًا، وهزت رأسها حائرة، فتموج شعرها الكستنائي كما يتموج نهر النيل بنعومة، قالت بهدوء شديد، حتى تخرجه من حالته فيتحدث: «أنت ترقد على المقبرة نفسها الآن يا

عمي عبده، ولكنها محجوبة عنا جميعًا، وليس عنك أنت فقط. هل تظن يا عمي عبده أنك أذكى من الجميع؟ أذكى من أبي مثلًا! وما أدراك أنه هو مَن قام بحجب المقبرة؟ أوَلم يكن شاعرًا وكاتبًا وملمًّا بعلوم السحر؟!».. تنجح ليلى في إخراجه من حالته، فيزوم قائلًا بسخرية: «أبوك كان رجلًا على باب الله، ولا يستطيع حجبها، الله يرحمه».

تنهض ليلى من مكانها وتبحث عن غصن تلهو به حتى تجده وهي تقول: «افطر معي». يتبعها وهو يغسل وجهه بما تبقى من كوب الماء صائحًا بفرح: «عندكم محشي؟» فتضحك ويشاركها الضحك محاولًا اللحاق بذيل ضحكتها التي يحبها. وتراهما هاجر من النافذة هكذا وهما يقهقهان، بينما تخطط ليلى بعصاها خطوطًا رفيعة على التربة المبتلة بالندى.

يقولون إن هذه المقبرة تمتد من هنا وبسرداب طويل تحت الأرض الزراعية يصلها حتى الصحراء بمنطقة الهرم الأثرية، في هذا السرداب سار الغريب يوسف الصديق من السرابيوم المكان، الذي سُجن فيه إلى قصر عزيز مصر فوق تل العزيز؛ حيث كانت امرأة العزيز تتلوى من فرط محبتها وولعها بيوسف.

فجأة تصرخ ليلى في وجهه: «هل تظن أنك أوَّل الفاتحين يا عمي عبده؟ لقد مر الهكسوس على هذا السرداب وفتحوه منذ آلاف السنين ولا يعرف أحدٌ تحديدًا ما الذي نهبوه منه، وسار فيه أبي، هكذا كتب في أوراقه، سار فيه حتى وصل إلى نهايته، وتوقف عندما شعر أن الجص الأسود والقرميد الأحمر المشيد بهما السرداب بدآ في نثر أضواء فسفورية غريبة».

أحضروا صينية الفطور، فانكب عليها عبد الجبَّار ولم يتوقف عن ازدراد لقيماته المغمسة بالعسل وابتلاع البيض المسلوق الواحدة تلو الأخرى إلا ليضحك من سؤال هاجر: «يعني حصَّلت، تقضي ليلتك هنا، فلا نسلم من لسان هند!» تشاركه ليلى ضحكه من أمها، فهي تعرف أن هند زوجة عبد الجبَّار هذه لا يعنيها شيء في الحياة سوى ازدياد أملاكها وأملاك أبنائها، وهي لا تستطيع المحبة أو الكراهية، ولذلك لم تجرِّب مثلًا الغيرة على زوجها أو حتى سؤاله أين كان ومع مَن! هند مجردة تمامًا من أية مشاعر، فهي تأكل وتشرب وتنام،
ولا يعرف عبد الجبَّار أين تذهب أطنان الطعام التي التهمتها، فلقد ظلت حتى الأربعين عجفاء كأول يوم تزوجها فيه، ملامحها جامدة لا تعكس أي شيء من روحها، لا يتذكر عبد الجبَّار أنها ضحكت أمامه من شيء أو بكت بحرقة أو غضبت أو صرخت، حتى أثناء ولاداتها، الواحدة بعد الأخرى، كان ينتظر خلف الباب لعله يستمع إلى صراخها، ولكن ما إن يصل إلى أذنيه ما يشبه المواء الخافت لقطة حتى ينقطع بمجرد أن يبدأ، ثم يخرجوا إليه ليبشروه بولد أو ببنت.

كانت تحوم حوله طوال الوقت كأنها غير موجودة. وكثيرًا ما كان عبد الجبَّار يتأملها بابتسامة متعجبًا من خلق الله، فتنظر إلى وجهه دون أي رد فعل، بالضبط كما تنظر إليه نعجة عندما يطيل إليها النظر. عندما ينتهيان من الضحك الذي غرقا فيه، يجفل عبد الجبَّار فجأة ويحملق إلى عيني ليلى، ويقول بصوت حزين وبطيء وجاد: «أنا أعرف، بل أكاد أرى طريقة موتي، سيجثم على صدري وحشٌ غريبٌ وأنا نائم على ظهري، ولن ينهض إلا بعد أن يتأكد تمامًا أن روحي فارقت جسدي».

******

تعود ليلى إلى حجرة مكتب أبيها، تاركة أمها هاجر مع حبيبها الأول الذي كما تعتقد لم تحب سواه، تلقي عليهما من النافذة نظرة أخيرة، هما صامتان تمامًا، عبد الجبَّار يتطلع إلى السماء، وهو غارق في أفكاره، وهاجر تتطلع إلى الأرض ساهمة.

يتذكر عبد الجبَّار أنه الآن أكبر قليلًا من سن أدهم الشوَّاف؛ وقت أن رآه للمرة الأولى واقفًا، كأنما زُرع ونما بليلٍ على ترعة المريوطية. في الحقيقة أن عبد الجبَّار كان يحب أدهم سرًّا، يحبه، كما يحب الناس أبطال الحكايات الخرافية، شريطة ألَّا يتدخل هؤلاء الأبطال في حياة الناس العاديين مثله، رآه عبد الجبَّار مختلفًا عن كل مَن تعرف إليهم طوال حياته، فهو نقي، مستغنٍ رغم ثرائه عن الدنيا وما فيها، مشغولٌ بأشياء غريبة، كما لو كان يحاول إيجاد سرج لفرس ما، يستطيع الطيران، يمنح مَن حوله كل متاع الدنيا، حتى يتفرغ لشيء لا يستطيع أي أحدٍ فهمه. قال له عبد الجبَّار ذات يوم، وكان أدهم يردد بعض الكلمات غير المفهومة حول خلود الإنسان: «خلود! أنا لا أفهم هذه الكلمة أبدًا يا أدهم باشا، لا يوجد خالد ودائم إلا وجه الله»، يحدثه أدهم عن أسماء عربية وأعجمية لشعراء وفنانين، وحتى أنبياء لم يسمع بوجودهم أبدًا، مؤكدًا أنهم خالدون منذ آلاف السنين، ولكن الجهلاء مثل عبد الجبَّار لا يعرفونهم، فيضحك عبد الجبَّار بغيظٍ ساخرًا منه: «يبقى أي خلود هذا يا باشا، وأنا لم أسمع عنهم من قبل؟!»، ثم يضيق عبد الجبَّار عينيه ويجز على أسنانه قائلًا: «الحقيقة يا باشا أن الحياة بقصورها وبحارها وجبالها مثلها مثل حفرة قبر هائلة، ونحن يُنادى علينا الواحد بعد الآخر لنهبط فيها

قليلًا... نكبر لنموت وتظل سيرتنا بها بعض يوم أو آلاف السنين، سيان، لأن اليوم عند الله بألف سنة ممَّا يعدون، المهم أن الواحد منا يأخذ دورته في الحياة حتى يسمع صوتًا يصم أذنيه: «إللي بعده».

عبد الجبَّار لم يكره أدهم أبدًا، وإنما غضب عليه كثيرًا حيث رأى آنذاك أنه ليس عدلًا على كل حال أن يقتحم بطل أسطوري مسلح بكامل عتاده حياة رجل آخر أعزل بذلك الشكل الميلودرامي. يعرف أن أهل قريته بأسرها يتهمونه بأنه طلب من الشيخ برهامي أن يسحر أدهم، ولذلك وقع بعد عامين من زواجه بهاجر على فراشه ولم ينهض منه إلا على قبره، لم يعرف الأطباء سر مرضه، وكانوا يراقبون وزنه الذي يتناقص يومًا بعد يوم، حتى وصل إلى ثلاثين كيلو جرامًا فقط
لا غير، فيضربون كفًّا بكفٍّ.

لم يفلح السحرة الذين جلبتهم هاجر في فكّ سحره، بل كان أدهم نفسه يطردهم الواحد تلو الآخر، وذات يوم استجمع قواه وأمسك بقاعدة الأباجورة الرخامية وشجَّ رأس امرأة عجوز، جلبتها الخالة تبارك من مكان بعيد، حيث استيقظ ووجدها فوق صدره، تسحب بخيط من فمه شعرات نسائية طويلة، وحافر حمار، وبذور سوداء، وما يشبه عجينة من أوراق ملونة بالحبر الأحمر.

يتأمل عبد الجبَّار هاجر الآن... هي لم تتغير كثيرًا عن ذلك اليوم الذي شاهدها فيه أدهم وتزوجها، لم تغيرها حياة القصور على الإطلاق، كان من الممكن الاستماع إلى صوتها ظهيرة يوم الجمعة، وهو يعلو محذرة النسوة في بيتها بألَّا يسكبن الماء

المتسخ على الأرض، حتى لا يقع على رؤوس الملائكة التي تجوب المكان في هذه الساعة، تذكرهن بأن يطلقوا رائحة البخور بدلًا من مواصلة العمل، وتنهض بنفسها لتعدل حذاء عبد الجبَّار حتى لا يسبب وضع فردته فوق الأخرى المشاجرات.

ما زالت هاجر حلوة، بل ازدادت حلاوة، حتى طابع الحسن في ذقنها صار أكثر عمقًا وبات يظهر مع أبسط حركة لعضلات وجهها، وجهها؛ هذا هو الوجه الذي يرافقه طوال الوقت، هو الوجه الذي يظل يتمعن فيه طويلًا، قبل أن يركب زوجته لثوانٍ ليعطيها حقها، حتى عندما يأخذ بنتًا صغيرة لا أهل لها إلى الجيزة، ويستأجر لها شقة مفروشة لمدة يومين، يظل يتذكر وجه هاجر قبل أن يطأ البنت وينتهي من أمرها في ثوانٍ، لم يمنح امرأة قطُّ ما حلم أن يمنحه لهاجر، لم يحتضن امرأة قطُّ ولم يسمح لنفسه أن يضيع معها في قبلة طويلة، لم يجعل امرأة تهيم في عينيه لا قبل ولا بعد معاشرتها، كان يعتبر أن ذلك كله من حق هاجر فقط، حقها الذي لم تنله قطُّ ولن تناله أبدًا.

ينظر الآن إلى عينيها، فتضعهما في الأرض من جديد، يريد أن يرفع ذقنها بيده ويقترب من وجهها ويلتهم شفتيها، ولا يدري ما الذي يمنعه تحديدًا، بينه وبينها حجاب غير مرئي، مثل هذا الحجاب الذي يخفي عنه مقبرته. هل كبر إلى هذا الحدِّ؟! لقد كان أدهم في سنه تقريبًا مشدودًا مثل رمح، وعيناه تلمعان كعيني شاب في العشرين من عمره. ينهض دون أن ينبس بكلمة واحدة، يداعب شعر رضيعة ليلى الخفيف، ويمضي دون أن يلتفت وراءه ولو التفاتة صغيرة.

******

تبتسم ليلى وعيناها تقعان على أبيات شعر جميل بثينة، وقد كتبها أبوها وأحاطها- على ما يبدو وهو ساهم بعشرات النجمات:

«أيبكي حمامُ الأيك من فقد إلفيه

وأصبر؟ ما لي عن بثينة من صبر

يقولون: مسحور يجن بذكرها

وأقسم ما بي من جنون ولا سحر»

ترفع عينيها عن مخطوط أبيها الملغز، والذي لا تعرف بعدُ ماذا تفعل به، فهي تفهم كل جزء فيه على حدة، ولكنها لا تفهم ماذا يعني جمع كل ذلك بين غلافين من الجلد المقوى، ولماذا حرص على سريته والاحتفاظ به هكذا، دون أن يعده للنشر، لماذا لم ينشره مثلما فعل مع ديوانه الوحيد اليتيم المنشور، الذي تملأ نسخه المهملة رفًّا كاملًا من أرفف المكتبة؟!

أخذ من المطبعة في السبعينيات كل نسخ ديوانه المطبوع، الذي لم يشتره على ما يبدو أحدٌ آنذاك، كانت طباعة الديوان فاخرة تشي بأنه أنفق عليه كثيرًا، يشبه المجلدات المذهبة للقرآن الكريم، وعبر أربعمائة صفحة، تتكرر جُملٌ مثل البنفسج، والزبرجد، والنيل الفضي، وفستان هاجر القرمزي، وبستان الوجد، وتمرد الورد، وصباحات بطعم الياسمين، وحصان وحيد، ووجع القرنفل، ووحدة الرمال في الهجير، والمساء المعطر بدم الخيانة،

وشوارع القاهرة المزدحمة المتوحشة، ومحنة العاشقة، وقطعان من الإبل تتهادى حزينة، وقلب يأبى أن يتوقف عن الصهيل.

لو أن ليلى تفهم فقط ماذا أراد أبوها أن يفعل بمخطوطه هذا؟! ما هي رسالته إليها تحديدًا؟ وهل هي كانت إليها أم إلى شخص آخر، وعليها أن تسلمه المخطوط؟!

لا تشعر ليلى باقتراب هاجر منها وهي حاملة ابنتها، ولكن هاجر تشعر جيدًا بنظرة الكراهية التي سلطتها ليلى إليهما، تنظر هاجر إلى الصغيرة علها تلحق ألا تجعلها تصطاد نظرة أمها الكارهة لوجودها في الحياة، ولكنها تستغرب حين تجد الطفلة ترد على نظرة ليلى بنظرة أشد كراهية، وتجبر هاجر أن تقترب من أمها، وهي تبكي، وتشير إليها بيدها، وبمجرد أن اقتربت منها حتى أمسكت بشعر ليلى الطويل ولفته حول يديها وأخذت تمزقه بغيظ، وليلى تصرخ وهاجر لا تستطيع تخليصه من بين أصابعها الصغيرة، كانت ملامح الرضيعة قد تقلَّصت تمامًا وهي تستمتع بصراخ أمها، وبعد أن نجحت هاجر في تخليص شعر ابنتها أخيرًا، جلست ليلى على الأرض ويدها تدلك فروة رأسها قبل أن تقول لأمها بهدوء وبكل ازدراء ممكن: «قلت لكِ، على الأقل، قصي أظافر هذه الشيطانة».

******

مقبرةُ تواصل اختفاءها

شوارع ميت رهينة ملتفة بعضها حول البعض مثل حياتٍ هائلة الحجم. أزقتها ضيقة ومتربة. أحيانًا يرى الغريب بيتًا، قرر صاحبه أن يبنيه هكذا حتى يقطع طريق المارة ويجعلهم يدورون حول أنفسهم قبل أن يصلوا إلى المكان الذي يريدون الوصول إليه.

لو أن الشيطان نفسه قرر أن يبني بيتًا لنفسه لما اختار مكانًا أنسب من هذه الأماكن. يسير الغريب متلفتًا حوله، فهو لا يعرف من أية جهة سيقفز فوق رأسه ما لا يعرف من مخلوقات الله. عربات الكارو التي تحمل الخضروات تئز عجلاتها، وتنهق الحمير التي تجرها، ويصرخ الرجال الذين يسوقونها بما لا يتبينه الناس.

في ميت رهينة يسير الناس فرادى وجماعات وهم لا يكفون عن الصراخ بعضهم في وجوه البعض، يعرفون أنهم يدوسون على أرض داس عليها أجدادهم الذين دانت لهم الأرض والأفلاك فخلدوا حضارتهم تحتها ونقشوها في رسوم على جدران مقابر ومعابد ما إن يراها المزارع منهم حتى يهزَّ رأسه ليزيح عنه جحافل حزن غير مبرر، ويسارع بالصراخ في وجه مَن يقف أمامه، ربما لكي لا يبكي فجأة.

ببساطة يستطيع الغريب رؤية الغضب مجسدًا وهو يحلق في الأجواء فوق رأسه مباشرة، وبإمكانه الإمساك بندفة منه قبل أن تتساقط على الأرض، وإذا ما كان داخلًا إلى ميت رهينة صباحًا،

ستتابع عيناه الرجال وهم يسحبون خلفهم بقرات عجافًا من زرائبهم، وعلى صوت خوارها يتوجهون إلى الحقول، سيرى سواقي ومحاريث لم تتغير كثيرًا منذ آلاف السنين، مذ اخترع الإنسان ها هنا الزراعة في وادي النيل، ثمة أطلالٌ لصنابير مياه كانت تصب في حوض يشبه كثيرًا مذود البهائم، وثمة أسوار مهدمة لمدرسة القرية الإلزامية، وأطلال فصلين على اليمين وفصلين على اليسار وحَوْش في المنتصف، كان مفروشًا بالرمل، وكان فتية القرية يتسللون إليه ليلًا ليلعبوا فيه كرة القدم.

يواصل الغريب السير على حافة ترعة المريوطية إلى جوار أشجار كافور عمرها مئات السنين. ويتابع مباراة كرة قدم أقيمت على عجل في قاع الترعة الذي جف تمامًا، وقد يضحك عندما يجد الصبي الذي يقف كحارس مرمى يترك فجأة الكرة لتخترق الشبكة الوهمية المحددة بحجرين كبيرين، ويجري ليصطاد قرموطًا نصف حي ونصف ميت.

وإذا كان الغريب محظوظًا أكثر سيمر أمام بيتٍ صمد منذ قرن من الزمان رغم أنه مبني بالطوب اللبن والحطب وجزوع النخل، وتفوح منه رائحة خبز مدوخة للسائرين. يتوقف الغريب فجأة، ويزيح عن كتفه يدًا غير مرئية، تجعل جسده يرتعد، فيصرخ من دون سبب واضح مثله مثل أهل المكان.

تصرخ ريتاج بمجرد وصولها إلى قصر هاجر في الخفير الأخرس من نافذة سيارتها السوداء الضخمة ذات الدفع الرباعي:
«كل مرة
يا رجل تبدلون شوارع القرية، فأدور حول نفسي ساعتين حتى

أصل، صار الوصول إلى هذا البيت الملعون أمرًا يدعو إلى الجنون». سيستريح سائقها قليلًا قبل أن يذهب لإصلاح الشُكمان، الذي اصطدم بكم من المطبات والحفر لم تمر عليه هذه السيارة من قبل.

تدخل ريتاج إلى البهو بكل صخبها وصوتها العالي، تقبّل هاجر على وجنتيها قبلتين باردتين، وتنهار بجسدها الضخم على أول فوتيه تقابله وهي تصيح: «الحمد لله، ربنا رحم البنات من هذا المشوار، أموت وأعرف يا هاجر ماذا كان يعجب أدهم الشوَّاف في هذا المكان؟!». تصمت هاجر كعادتها مطأطئة رأسها، فتمصمص ريتاج شفتيها، فتسألها هاجر بصوت منخفض: «الجماعة بخير والحمد لله يا حاجة؟» فتواصل ريتاج صراخها: «بخير، وفي المينا هاوس يا أختي، الدور والباقي عليَّ، شربت المشوار وحدي لبلد الندامة».

تتذكر هاجر أن ما سمعته الآن من ريتاج هو أوَّل ما سمعته منها عندما وصلت إلى مصر للمرة الأولى، بعد موت أدهم الشوَّاف بعشر ساعات، قالوا لها آنذاك هاتفيًّا إنها لن تلحق الجثمان، وقد يتحلل قبل أن تصل، وإنهم يفضلون دفنه هنا في ميت رهينة في المقبرة الرخامية التي بناها لنفسه، صرخت في أذن عمدة القرية بأنها ستشعل قريتهم حتى آخر قشة، إذا ما تصرفوا في الجثمان قبل أن تصل، ودخلت لتنظر إلى هاجر الملفوفة في سوادها شزرًا، ثم قالت بهدوء بصوتها المبحوح وهي تزيح نقابها وتتخفف من ثيابها: «بلاد الندامة، هل تريدين دفنه وسط المساخيط، وتحرمينه أن يدفن في الأرض المباركة؟!» أجابتها هاجر هامسة وهي ترتعد: «هذه هي وصيته»، فاقتربت منها

ريتاج وأمسكت بعنقها وكادت تخنقها وهي تفح في وجهها: «جربي مرة ثانية أن تقولي هذا، هه، فقط جربي»...

خلصوها من يديها، وأدخلوها على جثمان أدهم، هدأتها الخالة تبارك آمرة إياها أن تقف إلى جوار زوجها الممدود على خشبة الغُسل، وتقول له بصوت مسموع وبإخلاص ومن كل قلبها: «أسامحك
يا أدهم، أسامحك عن كل ما ارتكبته في حقي»، قالت جملتها ببرود وغادرت الغرفة، ودون أن تلقي السلام على أحدهم، عادت إلى المطار بتابوت خشبي كان يلمع في نور الشمس، ويقسم الجميع أنهم رأوا عليه قطرات لؤلؤية تشبه الدموع، وأنها كانت تزداد وضوحًا كلما تقدموا به إلى سيارة نقل الموتى.

تعود ريتاج إلى مصمصة شفاهها متنهدة بغيظ: «ربنا يتوب علينا». ينقبض قلب هاجر، فهي تعرف ما معنى دعائها، ولماذا تكبدت ريتاج عناء هذا السفر وهي عجوز تجاوزت السبعين من عمرها، فهي تريد أن تأخذ ما لها هنا، كما تردد دائمًا، وما لها هو ليلى الشوَّاف ابنة زوجها وإرثها، بينما تواصل ليلى الهرب منها منذ عشر سنوات، وتؤجل الحديث عن الانتقال إلى المملكة حتى تُنهي دراستها المزعومة، تقول لريتاج إنها ستحضر الماجستير مذ تخرجت، ولكنها لم تفعل أي شيء للحصول عليه سوى تسجيل اسمها.

أحيانًا تشعر هاجر أن ابنتها أفعى ماكرة تتلاعب بهما، فهي تَعد ريتاج بأنها ستترك البيت قريبًا حتى تظل هاجر مهددة برحيل

ابنتها الوحيدة، وفي الوقت نفسه ترتبط ارتباطات عمل وتؤسس مشاريع تؤكد أنها ستعيش طوال عمرها هنا.

جلست ريتاج أمام الإفطار الذي أعدته هاجر على عجل، أزاحت كل الأطباق بغيظ، البيض المقلي الغارق في سمن بلدي، وأطباق عسل النحل والعسل الأسود الذي تعوم الطحينة الصفراء على وجهه، والقشدة، والمفتقة، والفطير المشلتت الساخن. تُقرب طبقًا صغيرًا به جبن قريش، ثم تنظر طويلًا إلى عيني هاجر قائلة ببطء وغيظ: «أنا امرأة كبيرة يا بنتي، ويقتلني كل يوم ودون رحمة مرض السكري والضغط. اسلقي لي بيضتين». عندما تبدأ في الانهماك في طعامها، تنظر إلى أعلى كتفها فجأة فتزدرد لقمتها حتى لا تختنق بها، وتتمتم برعب حقيقي: «بسم الله الرحمن الرحيم».

كانت نور قد استيقظت من نومها وهبطت من غرفتها، وجلست إلى جوارها صامتة كعادتها، تأملتها ريتاج وهي تضيق عينيها قائلة بصوت حاولت أن يكون عاليًا: «داهية تأخذ البنات كلها، يكبرن بسرعة»، تحاول هاجر الضحك، بينما تتطلع إليها نور باستغراب كأنها كائن فضائي زارهم، دون سابق إنذار.

كانت نور قد بلغت الثالثة عشر عامًا، شاحبة على الدوام، فلا هي سمراء ولا بيضاء ولا صفراء، بشرتها دون لون كأنها عجين لم يدخل الفرن بعد، بعينين مدورتين صغيرتين وأنف صغير، لا يوجد وصف محدد له فهو ليس مفلطحًا وليس مستقيمًا وليس معقوفًا، ولكنه من تلك الأنوف التي يفضل المرء أن ينساها؛ لصعوبة إيجاد وصف محدد لها.

كان جسدها نحيلًا مثل جسد طفلة في السادسة من عمرها، دون بروز على الإطلاق، فصدرها مسطح مثل صدر الشباب، ومؤخرتها ضامرة، وشعرها أصفر خفيف وقصير، كما لو كان باروكة باهتة ومتسخة ورديئة الصنع، وتقريبًا كانت دون شفاه، فشفتاها رقيقتان مثل خطين رُسما على عجل بشكل متعرج. تهز ريتاج رأسها متسائلة بينها وبين نفسها: «كيف ولدت ليلى الشوَّاف الجميلة الفاتنة مثل هذا المسخ؟». ثم تقول بصوت عالٍ: «كبرتِ يا نور». تتابع نور طريقة مضغ ريتاج للطعام بشكل مقزز، وتبرره بسبب صدور صوت من طاقم أسنانها الصناعي.

لم تحب نور ريتاج هذه أبدًا، وتشعر أن ريتاج تبادلها المشاعر نفسها. كانت ريتاج تشبه ليلى كثيرًا، فهي صاخبة، ساخرة، مشاعرها فياضة ولا تستطيع السيطرة عليها، متسلطة، تمشي وتشير إلى الناس وتتحرك كما لو كانت ملكة وهم رعاياها، كما أن ريتاج رغم شيخوختها، فقد كان وجهها يحمل أطلال جَمال جعلها تحتفظ باتساع عينيها واستقامة أنفها المحببة وشامة سوداء بحجم حبَّة السمسم أعلى شفتها. عندما يرى أحدٌ ريتاج وليلى معًا لا يستطيع فهم حديثهما أبدًا، فهما تتحدثان بالإشارة، وتختصران الكثير من الكلمات حتى تنفردا ببعضهما، فتنطلقان في الثرثرة، كأن تقول لها ريتاج: «عبد الجبَّار». فتجيبها ليلى متبرمة وشعرها الكستنائي المتموج الجميل يهتز: «ما زال يحفر الأرض، ولا يجد شيئًا». فتهز ريتاج رأسها قائلة: «والست رحمة»، فتنادي ليلى سلمى على الفور وتأمرها: «هاتي لنا الست رحمة». تنفرج أسارير ريتاج وتسأل: «أممم. وهو؟» فتنظر ليلى إلى أمها وابنتها، وتجيبها باقتضاب: «الوضع كما هو عليه». لا تستطيع نور تخمين مَن المقصود بـ «هو»، هل

يقصدان أباها الذي تركها جنينًا في بطن ليلى وهرب، دون أن يعرف حتى أن لديه ابنة؟ أم يقصدان مايكل سمير عشيق أمها الآن؟

******

كان يوم جمعة، والصيف حارق أكثر من عادته كثيرًا في أغسطس من كل عام، كان الماء يتبخر من كؤوسه، والهواء ساخن وجاف يجرح الأيدي، التي تحاول لمسه. تأخذ ليلى ريتاج لتريها ما أنجزت في مشروعها السياحي الأخير، الذي سمته: «واحة الشوَّاف».

ريتاج تدق الأرض بعكازها، وليلى تسير إلى جوارها بشورت ساخن وقصير للغاية، وبلوزة بيضاء بحمالتين رفيعتين، فخذاها الطويلان المصقولان يجعلان ريتاج تسأل نفسها دائمًا: «كيف استطاعت أن تعيش هذه الحياة الأوروبية في هذا المكان العشوائي الذي يشبه إسطبلًا كبيرًا؟». بنتْ ليلى ما يُشبه الشاليهات الصغيرة حول بِركة هاجر، وقد عادت إليها المياه والحياة، وشيَّدت جسورًا بقوائم خشبية تزينها رؤوس حتحور، وجلبت أفضل مهندسي الديكور، فبنوا لها شلالات صناعية، وجبالًا صغيرة تضيئها لمبات ملونة.

وضعت ليلى على حافة البِركة شمسيات وكراسي شيزلونج طويلة، ووظفت بنات القرية المتعلمات نصف تعليم؛ ليعملوا في مركز التجميل والكوافير وجلبت خبيرتين للمساج، وجهزت المكان لاستقبال تجهيز العرائس أيام الخميس، وإقامة حفلات

الزفاف حول البِركة التي كانت تطلق عليها حمام السباحة، بينما يصر أهل القرية على تسميتها الأولى: «بِركة هاجر».

أقامت ليلى بوابة حديدية هائلة للدخول إلى «واحة الشوَّاف»، ووضعت على جانبيها مستنسخين كبيرين من الخشب لتمثال شيخ البلد؛ حيث يقف كلاهما مستندًا إلى عصا يمسكها بيده اليسرى، متقدمًا بقدمه اليسرى خطوة إلى الأمام.

بمجرد أن يدخل المرء بعد أن يتأمل قليلًا بطني شيخي البلد الكبيرين، حتى ينحرف مع الطريق الحجري يمينًا، ليجد سلمى وهي بنت لم تكمل عامها الرابع عشر، تجلس أمام الفرن الطيني، وفي يدها مطرحة من جريد النخل، تنهمك في تكوير العجين كُرات صغيرة، ثم تغمسها في الدقيق الأبيض، ثم تفرد الرغيف على المطرحة، وتلقمه للفرن، وإلى جوارها تنتظر طواجن الفريك والأرز المعمر والسمك، لتسويتها بعد انتهاء خبيز العيش البلدي.

خلف الشاليهات، قامت ليلى بتعريش قطعة أرض صغيرة بالأغصان، وأسستها بالمقاعد والمناضد الحجرية وفرشتها بالحصر الملونة المصنوعة في كرداسة، لتكون بمثابة مطعم للوفود السياحية، التي تريد أن تعيش يومًا كاملًا في رحاب الريف المصري القديم، حيث يقومون بعد الإفطار بجولة سياحية، تتضمن زيارة متحف ميت رهينة الكبير ومعبد بتاح ومتحف حتحور ومعبد العجل أبيس ومقصورة سيتي، ثم التجوال في شوارع البدرشين وتل العزيز حيث وقعت أحداث قصة يوسف الصدِّيق، ويعودون ليركبوا الحمير والخيول ويمرحوا في أرض

الشوَّاف حتى موعد الغداء، ثم يقضوا بقية اليوم في حمام السباحة أو مركز التجميل والتدليك، ويغادروا مع غروب الشمس مع مرافقهم السياحي الذي عادة ما يكون مايكل سمير.

تستقبل واحة الشوَّاف الوفود السياحية طوال أيام الأسبوع ما عدا يومي الخميس والجمعة، فقد خصصتهما ليلى لأهل ميت رهينة، لأفراحهم ولاستجمام نسائهم ورجالهم الأثرياء.

تسير نور خلفهما دون أن يشعرا بها، فلقد كانت لديها قدرة غير عادية على أن تكون غير مرئية، فجسدها الشاحب لا يصدر صوتًا أبدًا، حتى نفَسها تستطيع حبسه طويلًا في صدرها، يتوقفان أمام الفرن، وسلمى ما زالت تخبز خبز الإفطار لهم.

تنظر سلمى إليهما بعينيها الجاحظتين الخضراوين دون اكتراث، فتمصمص ريتاج شفتيها وتسأل ليلى الشوَّاف بجدية: «من أين لهذه القرية المصرية النائية بالأعين الخضراء؟». تبتسم ليلى وتخبرها أن سلمى بنتٌ لقيطة، وجدتْها هاجر ذات صباحٍ أمام بابها تصرخ في لفافتها، فسلمتها إلى مزارع طيب عجوز ليربيها في بيته هو وزوجته وتكفلت بهم جميعًا، حتى وصلت سلمى إلى هذه السن، فجلبتها ليلى وألبستها هذا الجلباب البلدي وهذه الطرحة من الحرير الطبيعي، وأجلستها أمام الفرن، ليتعرف السائحون إلى شكل الفلاحة المصرية قديمًا، وأيضًا لإطعامهم طعامًا فلاحيًّا، فسلمى تقريبًا تجهز نصف مائدة الإفطار والغداء، أما العشاء فهو شواء اللحم والدواجن والطيور على الفحم في الهواء الطلق.

تتنهد ريتاج وتتمتم بسخرية ونفاد صبر: «فهمت، فهمت، لقيطة في بيت هاجر بعينين خضراوين!» ريتاج تسير بعباءة منزلية من القطن الرقيق، تلبسها على ملابسها الداخلية فقط، فتكشف عن فخذين سمينتين مترهلتين بطبقات من اللحم الذي لا يتوقف عن الاهتزاز، تسير متذمرة من قيظ أغسطس في ميت رهينة، فتأخذها ليلى، ليجلسا تحت المراوح العملاقة المثبتة في أركان المطعم، ولا يتوقفان عن شرب فناجين من القهوة، وتُسمع ضحكاتهما أحيانًا، وأحيانًا أخرى تصيح ريتاج في وجهها بجملة مبتورة.

تعرف نور أن ريتاج تحرص على رؤية اثنين بمجرد وصولها إلى ميت رهينة: عبد الجبَّار أيوب والعرافة رحمة التي يقولون إنها مكشوف عنها الحجاب، وتستطيع نقل حوائط البيوت، بل البيوت نفسها ببساطة من ينقل كتابًا من مكان إلى مكان. تتذكر نور أنها مذ كانت في الخامسة من عمرها، وهي تراقب باهتمام أمها متقلبة المزاج الصاخبة التي تثير مصائب عديدة بسبب جمالها الخارق ومشاعرها الجياشة تلك.

كانت نور قد أذهلتْ الجميع بقدرتها على قراءة أي شيء منذ الخامسة من عمرها، قرأت كل الكتب الموجودة في مكتبة جدها أدهم الشوَّاف، وكانت أمها تنظر إليها برعب حقيقي، وتناقشها فيما قرأتْ فيزداد رعبها. طلبت منها بإلحاح وكل يوم أن تشتري لها جهاز كمبيوتر، وكانت تحطم كل اللعب الكهربائية التي تشتريها لها أمها، وترميها من الشباك، ثم تصرخ بصوت عالٍ وبكلمة واحدة: «كمبيوتر». حتى أوصت عليه ليلى فأرسلوه إليها

من الخارج وأصبح مملكة ابنتها حيث تجلس أمام شاشته الزرقاء بالساعات وهي لم تكمل بعد عامها الخامس.

اعتادت نور أن تقرأ كل ورقة في البيت، فأصبحت أمها شبه عارية من الأسرار، قرأت كروت البوستال التي كانت ترسلها إلى حبيبها الدكتور نور الدين، وتعود مرة أخرى إلى ميت رهينة مدموغة بخاتم: عدم الاستدلال على عنوان المرسل إليه، رغم وضوح عنوان مكان عمل الدكتور نور الدين في أوبرا المتروبوليتان الشهيرة في نيويورك.

تقع الكروت بوستال في يد نور، كانت ليلى ترسلها دون أي مظروف بريدي يسترها، وكان ساعي البريد يمكنه أن يرى صورة أهرامات الجيزة من جهة ويقرأ في الجهة الأخرى كلماتها الملطخة بالدموع والحسرة، وكلها ذات صيغة رديئة واحدة: «أنها لن تستطيع الحياة دونه وأنها تحبه حتى العبادة، وأنها ستنتحر إذا لم يرد عليها في المرة القادمة».

ظلت ليلى لفترة طويلة جدًّا تواظب على إرسال كروت البوستال، حتى فتر حماسها أو انصاعت إلى سخرية ابنتها، حيث دخلت عليها نور ذات يوم، فوجدتها باكية محمرة العينين، فقالت لها بهدوء: «لو أنني مكان هذا الرجل لهربت منكِ أيضًا يا أمي». ليلى تعرف أن ابنتها ليست فقط أكبر من عمرها حتى تخالها أحيانًا لديها من العمر مئة عام، وإنما تعرف أن ابنتها كائن غريب لا هو رجل ولا امرأة
ولا طفل، بل إنها كيان خالٍ من المشاعر، ولذلك تأملتها يومها بهدوء وهي تضبط نظارتها على أنفها الغريب، ويخرج صوتها

عميقًا، ومن المستحيل أن يخمن أحدٌ أنه صوت طفلة في العاشرة من عمرها: «الأمر ببساطة يا أمي هو نشاط هرموناتك، فلا يوجد شيء اسمه حب أو كراهية أو غضب، نشاط هرموناتك يجعلك تتصرفين هكذا، فتبكين، وتصرخين، وتتسولين محبة رجل لا يريدك. بمجرد أن تكبري، وتنتهي حاجة جسدك إلى الجنس، وتتوقف بويضات رحمك عن الانفجار كل شهر، ستتخلصين من كل ذلك. لم يعد أحدٌ يرسل الآن مثل هذه الكروت. فتوقفي عن إرسال هذه الكلمات المضحكة، وتوقفي عن البكاء، الآن، فورًا».

لا تفعل ليلى شيئًا سوى فتح فمها رعبًا، فهي لا تتصور أن مكتبة جدها أو الكمبيوتر أو قضاء ابنتها كل وقتها تقريبًا بصحبة الطفل العبقري صلاح، هو ما يجعل نور تصدمها كل يوم بكلام مثل هذا الكلام.

تتذكر ليلى اليوم الأوَّل لاكتشافها لعنة ما أنجبت، كانت نور في شهرها الثامن تقريبًا، وفي حجرها تهدهدها لكي تنام، ولكنها ظلت تصرخ صراخًا متواصلًا، بينما تتابع أمها فيلم «الطالع» The Omen، وفجأة نظرت ليلى إلى رضيعتها وثبتتْ عينيها عليها وهمست لتُسكتها: «أنتِ مثله تمامًا، ملعونة، شيطانة، ابنة شيطان، أليس كذلك؟»، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي حملتها فيها أمها؛ إذ وجدت الرضيعة تتوقف عن الصراخ فجأة، وتجيبها بصوت هامس كأنه فحيح أفعى: «نعم. فهذا الملعون الشيطان هو أخي الصغير».

صرخت ليلى وألقت رضيعتها على الأرض، وصعدتْ إلى غرفتها، فالتقطتها جدتها هاجر وهي تهدهدها، وتقول لابنتها بصوت عالٍ: «حرام عليكِ، يا مجنونة». .. وظلت هاجر طوال شهرين كاملين تقنعها بأنها تخيلت أن الرضيعة تتحدث، وأنها كانت جالسة معهما ولم تسمع شيئًا، بينما تهذي ليلى بأنهم عليهم أن يرجموها لأنها أنجبت شيطانًا، روحًا إبليسية واضحة الملامح لا ينكر وجودها إلا الأعمى. ثم تصرخ: «الأعمى، مثلك تمامًا يا هاجر».

منذ ذلك اليوم ونور في حجر جدتها، ولكن بعد ست سنوات وذات أمسية بعد سنوات اقشعر بدن هاجر، وقف شعر رأسها كله، عندما كن يجلسن ثلاثتهن أمام التليفزيون، وكان يعيد عرض الفيلم نفسه، نظرت نور إلى أمها حتى أجبرتها نظرتها النارية على تحريك رأسها لتواجه عيناها عيني ابنتها، فحركت نور شفتيها دون صوت بالجملة نفسها التي قالتها وهي رضيعة. كانت هاجر تعرف أن ما حدث هذا اليوم وأن هذه الجملة تحديدًا لم تتكرر منها ولا من ابنتها ليلى أمام نور. نظرت ليلى إلى أمها، وابتسمت لها بمرارة وتشفٍّ في الوقت نفسه، ونهضت تاركة الفيلم كالعادة دون أن تكمل مشاهدته.

******

تمر الأيام في ميت رهينة متشابهة، لا جديد تحت سمائها، ولا لونًا جديدًا يميز فصولها المتعاقبة، لا شيء يقطع رتابة الصباح والمساء والناس سوى الغرباء والحكايات، التي يتركونها لتدور في أفواه الناس لفترة طويلة ثم تختفي، إذا ما ظهرت بدلًا منها

حكايات جديدة: لقيطٌ ملفوف على باب جامع، الصراخ الفجائي لامرأة في أحد الحقول البعيدة، جريان رجل من بين أنقاض قطعة أرض، كان يحفرها بحثًا عن مقبرة فرعونية ما، ابتلاع حفرة ليست عميقة لفتاة صغيرة، نشوب حريق لا يعرف أحدٌ مصدره، انطلاق جنون أحدهم دون سابق إنذار، وصول غريب هارب من مكيدة إخوته أو بطش قومه أو بنيه، انتشال غريق من ترعة المريوطية، أو انتشار عدوى رؤية أحد الأشباح وهو يتجول ليلًا ونهارًا في بيوت وحقول الناس.

في هذه الأيام، رأوا جميعًا الخالة تبارك، وهي تكسر عليهم أبواب بيوتهم؛ حتى يتمكن جسدها الضخم من العبور، كانت توقظهم بإصرار غريب من نومهم لتسر إليهم بنبوءتها السوداء: «ستسيل في ميت رهينة دماء كثيرة»...

أنجبت الخالة تبارك ثلاثين بطنًا لم يتبق منهم إلا شحاته، الذي وضعته وهي في الخامسة والأربعين من عمرها، أسمته شحاته منعًا للحسد ولأنها بالفعل تسولت حياته من الله العلي القدير، بمجرد أن استمعت إلى صراخه الحاد عرفت أنه سيعيش، وأنه سيكون ولدًا صالحًا، فأخفته عن عيون أهل القرية الحاسدة، أطالت شعره، وفرقته من المنتصف وعلقت في خصلة من قُصَّته قرن شطة أحمر، كان يتحرك على جبهته كلما تحرك وسبب له فيما بعد الحول، وضعت قرطًا في أذنه، وأجبرته على أن يمسك في يده عروس قماش بضفيرتين سوداوين، وكانت تحممه كل شهرين مرة؛ حتى لا يغرق في طست الماء، يسألنها النسوة لماذا تسمي ابنتها باسم ولد فتصرخ في وجوههن: «ابعدوا عنها، خلوها تعيش، والله حرام».

كبر شحاته ووصل إلى الثلاثين من عمره وظل بدون زواج، فالخالة تبارك تخاف عليه أن يتزوج فلا تهتم زوجته بالحفاظ على حياته مثلما فعلت هي حتى الآن. ولأن شحاته كان جميل الوجه وناعم الجلد مثل أميرة تنام حتى الضحى، فلقد اقتربت منه بنات القرية بفضول ليتحققن أنه رجل بالفعل، وسمحن له أن يحتضنهن وينام إلى جوارهن على تلال التبن، وبمجرد أن يمسك إحداهن حتى يدهسها بجسده ليثبت لها أنه رجل وسيد الرجال أيضًا، تنهض البنت من تحته وهي تلم ذيل جلبابها، وتداري عارها، بينما يتابعها شحاته بابتسامة ساخرة على جانب فمه، ثم ينهمك في مضغ عود برسيم أخضر.

وذات صباح مشمس وعادي دخل المعلم سباعي جزار القرية بالساطور على الخالة تبارك، وقف فوق رأسها وهي نائمة وصاح: «الله أكبر»، فركت عينيها بهدوء وقالت له: «اتنيل، ما هي بنتك إللي هايجة»، ولكنها عندما خرجت من الدار ووجدت كل أهل القرية واقفين أمام بابها، ولمحت شحاته وهو يختبئ منهم وسط أقراص الجلة فوق السطوح، ربتت كتف المعلم سباعي وزغردت، ثم قالت: «فرح رحمة وشحاته يوم الخميس الجاي، ألف مبروك يا معلم».

وهكذا زوجت تبارك ابنها الوحيد رحمة، لم تتغير عادات شحاته كثيرًا بعد الزواج، فالخالة تبارك لم تكن تسمح له أن يخرج من البيت، وكان هو يواصل الهروب من البيت، في طفولته لم تسمح له بأن يذهب إلى الكُتاب أو المدرسة، ثم لم تسمح له في شبابه بأن يعمل أي عمل قائلة له ولنفسها إن الموت يتربص به، وكل عمل لابن آدم يحلق فوقه شبح الموت.

كان نهار شحاته طويلًا، وكان بعد أن يشبع من التسكع داخل البيت الضيق، لا يجد ما يفعله فيهرب من أمه، في البداية هرب ليلعب السيجة مع الفتيان، ثم واصل هروبه عندما كبر؛ ليساعد أحد الفلاحين في خلط الطين بالتبن لعمل الطوب اللبن، أو تشوين الغلَّة، أو مساعدة أحدهم في استحمام المواشي في الترعة، وكان عادة ما يجد الخالة تبارك أمام وجهه لتجره بطوق جلبابه فتحرجه أمام الرجال.

خرج شحاته من البيت خلسة في اليوم الأول من رمضان، وكانت الخالة تبارك قد رأت وقت القيلولة، وهي صائمة، أنها تحمل شحاته على ذراعيها وهو رضيع، وأن أدهم الشوَّاف يجري نحوها ليأخذ منها ابنها، انتبهت أثناء كابوسها إلى أن أدهم ميتٌ منذ أربعين يومًا، وانتبهت إلى أن شحاته صار رجلًا الآن، نهرت أدهم صارخة في وجهه أن يترك شحاته في حاله، ولكنه شده منها بقوة حتى أخذه وطار ولم يتبق في حضنها إلا ذراعه، استيقظت على صرختها ولم يتوقف صراخها، حتى بعد أن هدأتها رحمة وغسلت وجهها بالماء وتركتها لتكمل طبخ طعام الإفطار.

في الوقت نفسه، كان شحاته ينتظر على الطريق الأسفلتي الوحيد في القرية، حتى وصل موكب الشرطة، كان الضباط فوق خيولهم، وكان الجندي السمين القصير يضرب على الطبلة فيدق قلب شحاته من الفرح، سار خلف موكب مدفع رمضان وهو يرقص ويغني مع الصبية الصِغار، وبمجرد أن استقر المدفع في مكانه في الأرض الفضاء خلف بيت العمدة حيث سيظل رابضًا هناك طوال الشهر الكريم، مضى الأطفال كلٌّ إلى بيته ما عدا

شحاته، الذي أخذ يلمس كل جزء في المدفع ويتأمله بإعجاب، ثم ينظر إلى الجندي الواقف خلفه بإعجاب أكثر.

ولأن أهل القرية لا يعرفون اسمًا لهذا الجندي، فهم يطلقون عليه الجندي رمضان، أرسل بيت العمدة صينية إفطار الجندي، وكان شحاته يعرف أن أمه تبارك لا بد وأن تبدأ في البحث عنه الآن، فاختبأ خلف جذع شجرة اللبخ الضخمة حتى رآها من بعيد تمضي في طريقها، بعد أن فتشت المكان جيدًا، كان دعاء الشيخ سيد النقشبندي يرتفع إلى عنان السماء وهو يشدو «مولاي»، فيرق الهواء وتحمل نسماته رائحة اللحم والبازلاء بالجزر والخبز الطازج.

اشتهى شحاته بازلاء أمه تبارك، وتمنى ألَّا تترك طبخها لزوجته رحمة هذه، ولكنه نظر إلى صينية الجندي رمضان ممنيًا نفسه أن بها بازلاء أيضًا. أراد أن يرى بعينيه كيف يعمل هذا المدفع، فجأة أخذ المجند وضع الاستعداد خلف مدفعه، ومع الأذان أطلق قذيفته المدوية، دون أن ينتبه إلى شحاته وهو يمد ذراعه في فوهة المدفع الهائلة.

كانت الخالة تبارك قد أكملت دورتها البحثية عنه، وكانت في طريق عودتها إلى البيت، فوصلت إلى المدفع في اللحظة نفسها التي طارت فيها ذراع شحاته، أدركت الأمر قبل أن يدركه الجندي الصغير المذهول؛ فهي تنتظر هذه اللحظة منذ ثلاثين عامًا، تناولت ذراع ابنها واحتضنتها كما حدث في كابوسها الذي رأته في الظهيرة.

تعرف الخالة تبارك أنه لا فائدة من جريها أو جري أهل القرية، فمَن يستطيعون إنقاذ ابنها جالسين على موائد إفطار رمضان الآن. جلست إلى جواره بهدوء، ونظرت إليه بغيظ، تمامًا كما تنظر امرأة إلى زوجها بعد أن ضبطته وهو يخونها. ظلت تتأمل دماءه وهي تروي الأرض، بينما موسيقى ألف ليلة وليلة التي يبثها الراديو تتصاعد وتعلو على صراخ نسوة القرية، تتابع هرولة الجندي المسكين والعمدة والناس، وهم يحملونه بعيدًا عن عينيها.

يقول مَن شهدوا هذا اليوم البعيد إنها بقيت وحدها إلى جوار المدفع وإنها بملامح جامدة وعينين محملقتين إلى السماء، التهمت صينية إفطار الجندي عن آخرها، وإنها منذ هذا اليوم لم تخرج من بيتها لأي سبب، وإنها ظلت تأكل كل ما يقابلها من طعام حتى أخذ لحمها ينمو حولها دون توقف وصارت في وزن نصف فيل.

رحمة وحدها كانت تعرف ما تخطط له فتخفي عنها الطعام وتصرخ في وجهها أن تكف عن الأكل؛ حتى يستطيعوا إخراجها من الغرفة وحملها إلى قبر ابنها شحاته لترقد إلى جواره، ولكن الخالة تبارك ظلت تواصل التهام كل شيء في البيت الطيني الفقير، وإذا لم تجد شيئًا كانت تزحف بجسدها الضخم لتبتلع كسرات الخبز المنقوعة في الماء أمام الفراخ والبط وهي تتمتم بجملتها الوحيدة التي تسب بها رحمة طوال الوقت: «لا يبقى على المذاود إلا شر البقر، لم يتبق إلاكِ يا بومة يا قدم النحس».

بعد عام على مصرع ابنها، وفي صباح اليوم الأوّل من رمضان طلبت من رحمة أن تدعو هاجر إليها. أمسكت بيد هاجر وقالت

لها: «عفاف بنت شحاته أمانة في رقبتك يا ست البنات»، ثم نظرت إلى عينيها طويلًا، وهي تهمس: «توكلي على الله يا هاجر، ستسيل من قصرك دماء كثيرة، أرى دماء كثيرة... ربنا معك يا بنت سندس ولطفي مرجيحة». تقول رحمة إن الخالة تبارك كانت تستمع إلى دعاء «مولاي» بنظرة عين فارغة، انتظرت حتى انطلق مدفع الإفطار، ثم نظرت إليها وإلى أركان البيت بلا أدنى اهتمام، ونامت على جنبها الأيسر، داست على قلبها حتى أجهزت عليه، وتجمدت عيناها مع ارتفاع موسيقى ألف ليلة وليلة.

******

تضطر ريتاج إلى أن تذهب لزيارة عبد الجبَّار بنفسها، فهو يهرب من المجيء إلى واحة الشوَّاف، تطلب من هاجر أن تذهب معها، ولكن هاجر تواصل نحيبها وهي تشكو من مطاردة الخالة تبارك لها ليلًا ونهارًا؛ لتحذرها من مذبحة ما في بيتها، تشيح ريتاج بيدها: «ربي يُجرني من بيت المجانين هذا، الخالة تبارك زمانها تراب وتبن من زمن الزمان يا مخبولة».

تكتفي ريتاج بسائقها الهندي، فتمشي مستندة إلى ذراعه حتى تصل إلى بيت عبد الجبَّار. يحب عبد الجبَّار ريتاج كثيرًا، وينتظر وصولها كل عام في الصيف ليمرح ويقضي سهراته مع امرأة خفيفة الدم، مرحة، ثاقبة البصيرة، وداهية حقيقية في دنيا المال والأعمال، تقريبًا هو يعمل لديها، وينفذ لها أكبر قدر من صفقاتها. يحجز لها محصول الحقول في الأراضي التي تشير

إليها، ويحل كل مشكلات التوثيق والشحن في الموانئ الخاصة بشركات الشوَّاف للاستيراد والتصدير.

عندما تجده ريتاج منتظرًا أمام باب بيته بجلبابه البلدي الصيفي الخفيف، وعينيه المنطفئتين، وشعره المشعث الذي خفَّ كثيرًا من الأمام حتى بات أقرب إلى الصلع، تصيح في وجهه بأعلى صوتها: «أصبحت مثل الكتكوت المنتوف الريش، ماذا فعل الزمن بك
يا خي؟!».

يضحك عبد الجبَّار: «يا أهلًا وسهلًا يا ست الكل، نورتِ ميت رهينة، الحمد لله على السلامة»، تقبض ريتاج على يده وتتشبث بها كعادة العجائز، وتقربه منها وتهمس في أذنه: «البس هدومك، وتعال نجلس في المطعم هناك في واحة الشوَّاف، وبطل خصام العيال
يا عيل»، ويزداد صوتها المبحوح همسًا وتضيف باستجداء، وهي تمثل الجهش بالبكاء: «لا أستطيع يا عبده رؤية وجه امرأتك، أم قردان». يقهقه عبد الجبَّار، ويتركها أمام الباب مجيبًا وهو مطأطئ رأسه: «حالًا يا ست الكل، تؤمري».

منذ عام تقريبًا، وعبد الجبَّار لا يستطيع النظر إلى وجه ليلى، بعد أن طردته شر طردة من أرضها وخاصمته محذرة إياه من الاقتراب منها، فلقد استيقظت في أحد الصباحات على انهيار أحد جدران أجمل الشاليهات وأقربها إلى حمام السباحة، جراء حفر رجاله طوال الليل أسفله، أعادت ترميم الشاليه، وحرَّمت عليه الحفر، وإلا ستذهب وتبلغ عنه البوليس بنفسها.

قضى عبد الجبَّار هذا العام وهو يتسلل إلى بيتها سرًّا كل ليلة، ولا يفعل شيئًا سوى تجربة بعض المشايخ الجدد الذين ادعوا معرفة طرق جديدة وتعويذات، يمتلكونها هم فقط لفكِّ سحر المقبرة المختفية، وأصبح أكثر حرصًا أثناء الحفر، بحيث يعيد كل متر قام بحفره إلى سيرته الأولى قبل بزوغ الفجر.

جلسوا جميعًا في مطعم الواحة، كأنهم ضمن الفوج السياحي الذي يمرح بالقرب منهم في حمام السباحة، نظر عبد الجبَّار إلى ليلى شزرًا، فما كان منها إلا أنها ضحكت ضحكتها التي يحبها، وقبل أن يمسك بذيل ضحكتها، قالت له بدلالٍ: «ارتحت منك سنة بحالها
يا عم عبده، والله لك وحشة». يشاركها ضحكها ويواصلان حديثًا كأنه انقطع البارحة فقط.

يفكر عبد الجبَّار بينه وبين نفسه: «تزداد جمالًا كلما تقدم بها الزمن، بنت الشوَّاف هذه». شعرها ازداد طولًا وتموجًا ولمعانًا وهو يغطي ظهرها العاري، كانت تختار ملابسها عارية الظهر معتمدة على ستر شعرها له. ترتدي اليوم فستانًا أزرق حتى الركبتين، وصندلًا بسيور زرقاء، وطوال جلستهم أصبح ينتظر كل مرة تضع فيها ساقًا على ساقٍ حتى يختلس نظرة إلى ركبتيها المضيئتين وأوَّل فخذيها.

بدأت في تدخين الشيشة كما توقع لها منذ سنين، بل تفوقت عليهما هو وريتاج في طلب أحجار وفحم مشتعل أكثر، بالتأكيد رئتاها ما زالتا في أوج شبابهما ويحتملان المزيد. جلست هاجر معهم قليلًا،

ثم امتقع وجهها من الصخب والدخان فعادت إلى البيت محاطة بهالتها الحزينة التي لا تفارقها.

كانت نور تخرج لهم من حمام السباحة مرتدية مايوه بكيني مثل الأجانب، تجلس متأملة وجوههم وفي عينيها نظرة حاول عبد الجبَّار فهمها ولكنه لم ينجح، كان لا يصل إلى نتيجة محددة، فهي تجمع بين الاستخفاف بهم والشفقة عليهم، والسخرية والرغبة في الانتقام منهم جميعًا.

توقفت عينا عبد الجبَّار على فخذي الفتاة الصغيرة، كانتا مثل العصي المتخذة من شجرة توت، مقوستين وجافتين، ولكن عينه ازدادت اتساعًا عندما توقفت على تجاعيد صغيرة بدأت في الظهور، ليس فقط على فخذيها، وإنما تحت عينيها أيضًا، أشاح بوجهه بعيدًا عنها متتبعًا الأطفال المصاحبين للفوج السياحي الألماني، وهم يضحكون بصوتٍ عالٍ ويصيحون بكلمات لا يفهمها، وعندما عاد ليواصل النظر إلى هذه البنت الغريبة، اقشعر بدنه من نظرتها النارية الثابتة التي رمته بها، ثم سارعت برمي نفسها في بِركة هاجر.

بسبب ضعف نور ونوبات مرضها الغريبة المتعاقبة أثناء طفولتها، تأخرت ليلى في تقديم أوراقها إلى المدرسة الابتدائية، وفي سن الثامنة، اصطحبت ليلى ابنتها إلى مدرسة الأهرام الخاصة للغات، ودفعتْ خمسين ألف جنيه تبرعًا للمدرسة ليقبلوا نور، قائلة لناظر المدرسة إنها علمتها حروف الأبجدية العربية والإنجليزية ومبادئ الحساب، وهي تجيد القراءة والكتابة، ويمكن امتحانها ونقلها إلى الصف الثالث الابتدائي مباشرة.

ولكن بعد أسبوع واحد، تركت نور المدرسة إلى الأبد، بعد أن أثارت فزع المدرسين ومدير المدرسة وزملائها الصغار، وهي تُسمِّع كتب منهج السنة الثالثة الابتدائية في الساعة الأولى، وفي يومها الرابع وجدت مدرس اللغة العربية واقفًا أمام الباب، وفي يده جريدة الأهرام، فعرضت عليه أن تسمع له عدد الأمس من الجريدة نفسها من الصفحة الأولى حتى صفحة الوفيات.

في بداية أسبوعها الدراسي الثاني، دخلت إلى غرفة أمها صباحًا ونكزتها بالقلم في كتفها لتستيقظ، وعدلت نظارتها على أنفها الغريب، ورفعت إصبعها في وجهها صارخة: «إياك وإياك أن تخترعي لي المزيد من حيلك لإبعادي عن البيت، مَن أشار إليك بإرسالي لأجلس مع هؤلاء الجُهلاء؟ هل تظنين أنني أحتاج إلى مَن يعلمني: زرع وحصد وقرأ؟ هل تظنين أنني أحتاج إلى مَن يعلمني شيئًا؟» يومها ذهبت هاجر إلى المدرسة بنفسها، وسمعت ورأت وجوه الجميع المرعوبة، وهم يبحلقون في هيئتها كأنها شيطان بمجرد معرفتهم أنها جدَّة نور، عادت إلى البيت باكية.

وللمرة الأولى عرضت على ابنتها البحث عن طبيب ما أو شيخ صالح لمعرفة ماهية هذا الكائن الذي أنجبته.

عندما وضعت ليلى ملفًا، به كل أنواع التحاليل الطبية الموجودة في المعامل، وأجبرت ابنتها على الجلوس أمام أشهر طبيب أطفال في مصر الجديدة، نظرت الطفلة إلى عينيه طويلًا قائلة ببطء ونفاد صبر: «هه، خلصني، لست مريضة، لكن افحصني حتى تستريح أمي، وأكتشف ممَّا أعاني، ولو أنك تبدو لي أغبى من دابة».

ابتسم الطبيب العجوز بغيظ، وهو يفتح عينيها فاحصًا إياها، أبعدت يده بقرفٍ، فنهض متجهًا إلى مكتبه، وهو ينظر إليها باستغراب ورعبٍ، قلَّب في التحاليل بسرعة، ولم يكتب في الروشتة إلا مستحضر «موسيجور» فاتح الشهية، ولكنه لم ينسَ أن ينتقم من الطفلة الوقحة، فسأل أمها أكثر من مرة وهو يتلمظ بشفتيه، ولا يستطيع إنزال عينيه عن وجهها الجميل: «حضرتك متأكدة أنها ابنتك؟» وعندما صدته ليلى بجفاء: «أكدت لحضرتك هذا أكثر من مرة». قال وهو يضغط جرس الممرضة طويلًا داعيًا إياهما إلى الخروج: «ليس لديها شيء على الإطلاق. حولتها إلى طبيب نفسي».

خطفت ليلى نور، وهي تضع يدها على فمها حتى لا ترد عليه، ولكن نور وبمجرد أن جلست إلى جوارها في السيارة، لم تتوقف عن ترديد جملة واحدة وحتى وصولهما إلى ميت رهينة، وكأنها جهاز تسجيل أصابه عطبٌ ما: «جربي يا ليلى فقط أن تذهبي بي مرة ثانية إلى طبيب، وجربي أن تسمعي كلام هذا الغبي وتأتين لي بطبيب مجانين، فقط جربي».

تقضي نور معظم أوقاتها مع صلاح، وصلاح يشبه نور كثيرًا في الطِباع وحب الوحدة وعدم اللعب مع الأطفال الآخرين، ويختلف عنها في شكله الوسيم، ببشرته الخمرية وابتسامته الرائعة الهادئة وشعره الأسود الكثيف المتموج وخدوده المتوردة وعينيه السودواين الواسعتين اللامعتين والحزينتين دائمًا كما يليق بيتيم.

يحب صلاح صحبة نور فهو يقرأ معها في مكتبة جدها ويتحدثان كثيرًا ويجلسان أمام الكمبيوتر طوال الوقت، فصلاح ابن عفاف

بنت رحمة، فتحت عفاف عينيها على الحياة، لتجد نفسها في حجر أم ترتدي السواد ليلًا ونهارًا، ظلت مصاحبة لليلى طوال رحلتها التعليمية في القاهرة وعادت معها، ولم تفترق عنها إلا عامًا ونصفًا أحبت أثناءها وتزوجت مرسي المكوجي، الذي كان يتردد على شقة ليلى في المهندسين.

زوجتهما الخالة رحمة في غرفة «المقعد»، وبعد ستة أشهر بالتمام تبخر حب المكوجي لها، فكان يهج من ميت رهينة، تاركًا إياها وأمها يصرخان خلفه، ويعود إلى القاهرة وهو يودعهما بجملة صارخة واحدة: «حد يسيب مصر يا ناس، ويسكن في المخروبة ميت رهينة؟» ثم يعود بعد أيام عندما يمل من دخان وزحام القاهرة، ويشتاق إلى ابنه صلاح وزوجته عفاف وحمام أمها المحشي وفطيرها المشلتت، يعيش معها شهرًا أو أقل، ثم يعاود صراخه وفراره حتى صدمته ذات ليلة مقطورة نقل، على أوَّل الطريق السريع.

ومن يومها وعفاف حزينة وصامتة، فلقد أمسكت مخ زوجها السائل على الأسفلت بيديها ولملمته، وهي تحتضن رأسه المهشم في صدرها ولا تتوقف عن سؤاله: «لعلك تكون شبعت من الجري يا حزين».

******

منذ أيام انقطع الإنترنت تمامًا عن كل أجهزة الكمبيوتر في واحة الشوَّاف وعن اللاب توب الخاص بليلى، فذهبت لتفحص الراوتر المركزي، فوجدت كمبيوتر نور مفتوحًا، فأرادت أن تتأكد هل

انقطع الإنترنت أيضًا عنه أم لا، وفجأة انتبهت إلى شكل سطح المكتب حيث لا يوجد عليه شيء على الإطلاق، دخلت إلى ملفاتها فلم تجد شيئًا أيضًا، لماذا تترك نور جهازها، كأنه جديد لا أثر فيه لكتابة كلمة واحدة؟ وبحركة استغربت قيامها بها هي نفسها فيما بعد، فتحت ملف الوورد ولصقت عليه ما على الفأرة، وقرأت وهي فاغرة الفم:

«سأعترف لكَ منذ البداية بأنني سفَّاحة ميت رهينة، فقط لكي أجذب انتباهك للاستماع إلى حكايتي طوال الوقت، الذي قد يمتد دون نومٍ إلى أيام وليالٍ. لا أعرف بالضبط كم ستستغرق أحداث الحكاية، ولكنني في النهاية حتمًا سأخبرك أين خبأت جثث ضحاياي.

وسأظل أحدثك كل يوم ودون توقف، حتى ترى روح ميت رهينة وتصل إليها راضخًا أو راضيًا مرضيًّا. ها أنت مكبل اليدين والقدمين، ولن تستطيع الفكاك من قيودك قبل أن أنهي فصول الحكاية، وأنا على كل حال لا أشعر بأي تأنيب ضمير، فلقد أجبرتني على ذلك يا دكتور نور الدين، فأنت نفسك تعرف أنك لا تستطيع الاستقرار في مكان واحدٍ لأكثر من يوم واحدٍ. هل تظنني ليلى الشوَّاف التي هربتَ منها؟! أنت غبي كما ألاحظ يا دكتور، فالفرق واضح بيني وبين ليلى، هي كانت تحبك، والهرب من المحبة ممكن أما الهرب من الكراهية فهو مستحيل يا دكتور، وأنا كم أكرهك!».

لم تعرف ليلى ماذا تفعل، كانت عيناها تتسعان وأصابعها ترتعش، وبالفعل لم تستطع فهم الكلمات، وظلت تتساءل: هل

ابنتها نور غريبة الأطوار هذه، هي مَن كتبت هذه الكلمات؟! وماذا تقصد بمكبل اليدين والقدمين؟! هل التقت أباها؟! وعن أي جثث تتحدث؟! جفَّ حلقها فجأة. طبعت الرسالة بسرعة، ثم رفضت طلب الكمبيوتر عندما سألها هل تريد حفظ الملف قبل غلقه، وغادرت حجرة ابنتها.

******

تلكز ريتاج صدر عبد الجبَّار بلَي الشيشة، وتقول له: «بدلًا من هذا الخصام مع ليلى، وبدلًا من أن تعمل بدماغك النظيفة هذه وتكسب الملايين، أنت تسعى كل ليلة وراء وهم البحث عن المساخيط.
يا ربي! يا لك من غبي يا عبده!».

من آن إلى آخر، توشوش ليلى أحد العاملين لديها بم يفعل حين تعترضه مشكلة ما تواجه الأفواج السياحية، أو توقع أوراقًا وهي جالسة في مكانها، وأحيانًا تنهض فجأة وتسير أمام أحدهم لحل المشكلة بنفسها. عادت بعد ربع الساعة بوجه مكفهر، وهم يتابعونها من بعيد ويبدو أنها كانت توبخ المرشد السياحي مايكل سمير.

مايكل فارع الطول، يقترب عمره من الأربعين، ولكنه يبدو أصغر سنًّا بكثير، لون وجهه حائر بين أن يكون أبيض أم خمريًّا مشوبًا بلون الورد مثل لون وجه ليلى، له عينان واسعتان وسوداوان سوادًا آخاذًا، وأنف مستقيم وشفاه كبيرة وممتلئة، وشعر ناعم تركه يطول حتى أصبح مثل شعر بنت تفضله

مقصوصًا كاريه، يرتدي جينزًا أزرق وتي شيرت أبيض مرسومًا عليه مفتاح الحياة الفرعوني، ويتأرجح فوقه صليب ذهبي كبير.

يحدثها مايكل بصوت خافت ووجهه إلى الأرض وشعره الناعم يهتز، ولكن ليلى تتركه فجأة وتعود إلى مقعدها، تلتقط لَي الشيشة، وتصرخ في أحد شباب المطعم بغيظ: «نار». تراقبها نور التي جلست الآن على الأرض بالقرب منهم. نور وحدها تعرف سبب غضبة أمها، فلقد رأتْ مايكل وهو يضحك بصوت عال ويحيط بيده خصر الفتاة الألمانية الشابة، بل أمسك بيدها وهي في حمام السباحة وهو على حافته مواصلًا الضحك معها، بينما كانت عينا الفتاة الزرقاوان اللامعتان هائمتين في وجهه وفي وجه السماء الصافية.

المرة الأولى التي اكتشفت فيها نور علاقة أمها بمايكل سمير، كانت منذ أربع سنوات، في ليلة خريفية تصطك جرَّاء رياحها الشديدة مصاريع النوافذ نصف المفتوحة بعضها ببعض، والبيت كله يرتج قبل الفجر بقليل، قررتْ نور التي لا تنام أن تهرب من هذه الأصوات المفزعة الرتيبة، وتتسلل إلى حمام السباحة، لم تحتج أبدًا أن تفتح أبوابهم، كما لم يعرف أحدٌ في البيت متى ذهبت ومتى عادت، جسدها الصغير النحيل كان يساعدها أن تقفز من أصغر نافذة في البيت لتكون خارجه، ثم تعود منها أيضًا.

رأت نور ضوءًا خافتًا، كأنه ضوء شمعة ينبعث من أجمل الشاليهات، الذي كانت ليلى تستخدمه كمكتب لإدارة واحة الشوَّاف وأيضًا لاستجمامها الشخصي واستجمام عائلتها، سمعت نور أصواتًا خافتة آتية من الطابق الثاني، فتسلقت الجدار متشبثة

بحليات الطابق الأول الجبسية البارزة، واقتربت من نافذة غرفة النوم الوحيدة المضاءة، وكادتْ تسقط من علٍ، أمها عارية تمامًا بجسدها الرائع الذي يشع نورًا خافتًا، تشد شعر مايكل الطويل بعنف، وتتأوه بصوت عالٍ وهو فوقها، كانت عيناها مسبلتين وشفتاها مفتوحتين، تنطلق منهما همهمات وكلمات غير مفهومة، لا يقطعها إلا انكباب فم مايكل على شفتيها لالتهامهما، تخفت أصواتهما، وعندما يستلقيان على ظهريهما وهما ينهجان دون توقف، كأنهما جريا لمسافات طويلة.

تستغرب نور هيئتهما، وتتابع حركة الورد الأحمر على غطاء السرير، فجأة تفتح ليلى عينيها على اتساعهما، وتنهض بكامل عريها، تجلس على حافة السرير، وتبدأ في ارتداء ملابسها، فتفهم نور أن أمها ستعود الآن دون شك إلى غرفتها في البيت الكبير، وتنام في حجرتها لتجدها هاجر في سريرها صباحًا، وكأن شيئًا لم يكن.

تابعت في ظهيرة اليوم التالي مايكل سمير، وهو يخرج من نافذة الشاليه متسللًا ومتظاهرًا بأنه وصل حالًا، ليلحق بالفوج السياحي. تتطلع إليه ليلى بفتور، وكأنها لم تكن في أحضانه طوال الليلة الفائتة، فتهلل نور فجأة: «أريد أن ألعب لعبة الأسرار». تنظر أمها إليها بغيظ قائلة: «بعد الإفطار يا نور، ثم إننا لدينا عمل هنا». ولكنها تصرخ من جديد، وتكرر جملتها كعادتها دون توقف، وهي تُشير بزجاجة مياه غازية فارغة: «أريد أن ألعب لعبة الأسرار».

ولكي تتوقف عن الصراخ، أمسك مايكل بالزجاجة وأدارها، فظلت تدور حتى توقف بوزها أمامه، فصفقت نور بيديها قائلة: «قل لنا سرًّا لا نعرفه». ابتسم مايكل ابتسامته الآسرة ونظر إلى ليلى بهيام، وقال هامسًا: «أنا غارق في الحب حتى أذنيَّ». استشاطت ليلى غيظًا، وصرخت في وجهه: «يا أستاذ مايكل، هل ستترك الفوج وتجلس معنا هنا لتلعب». انقبضتْ أساريره ونهض فورًا وهو مرتبك، فأدارت نور الزجاجة بقوة حتى توقف بوزها أمام أمها، فصفقت من جديد هامسة بسخرية لليلى: «هيا، قولي لي سرًّا لا أعرفه عنكِ». همست ليلى بدورها بنفاد صبر: «طيب يا نور، أنا لا أجد طريقة للتعامل معكِ». أطرقت نور رأسها وهي ممتعضة من إجابة أمها المراوغة التي
لا تعتبرها سرًّا، ولكنها صرخت في وجهها: «هيا، أديري الزجاجة».

أدارت ليلى الزجاجة صاغرة حتى توقف بوزها أمام نور، فاقتربت أكثر من أذن أمها، وقالت بصوت أكثر همسًا ويشبه كثيرًا فحيح الأفعى: «أنا لا أنام مطلقًا، مذ ولدتني وأنا لا أنام، فانتبهي أكثر». وظلت تدير الزجاجة فيتوقف بوزها أمامها كل مرة، ويزداد فحيحها حدّة: «أنا أراكِ محاطة بهالة سوداء تخيفني». «أنا أرى دماء غزيرة تسيل منطلقة من قصرك المنيف هذا لتغرق ميت رهينة». «أنا سأعيش حتى أدفن كل مَن لا يعجبني هنا، رغم أنني ضعيفة ومريضة». «أنا أحب جدَّتي هاجر بهالتها البيضاء التي تصاحبها أنَّى سارت أكثر منك». ثم فجأة ألقت الزجاجة بعيدًا وذهبت خلف مايكل.

طوال أشهر طويلة، تهاجم نور الأفكار وتتكثف فوق رأسها مثل السحب السوداء، تكرر بينها وبين نفسها آلاف المرات اسم: «مايكل»، وتتساءل لماذا مايكل بالذات؟ من حق أمها أن تحب وتتزوج فهي شابة فاتنة ومجروحة من هذا الرجل، الذي تركها وهرب بعد أن أذاقها ضروبًا مبهرة من الحب والجنس في فترة قصيرة، ولكن لماذا اختارت مايكل بالذات؟ يتصاعد الغضب في رأسها ويفور مهددًا بانسكاب بخاره الساخن في وجه أمها، عندما تجد الإجابة عن سؤالها، بالتأكيد مايكل هو الخيار الأوحد الصحيح لليلى، فهي تستغله لتلبية حاجة جسدها الملحة؛ حتى يظهر رجلها الأوَّل الذي يواصل الهروب منها.

مايكل سمير مسيحي ومن أسرة محترمة وكبيرة وثرية أيضًا، ولن يضحي بديانته ويخسر أسرته من أجل الزواج بها، كما أنه حلٌّ مثالي للخرس عن علاقتهما المحرمة، فكلمة واحدة منه مع أصدقائه تفشي سرهما كفيلة بإلقاء جثته في ترعة المريوطية، بعد ذبحه المصحوب بتهليلة: «الله أكبر».

ترى نور منذ ذلك اليوم ظلالًا سوداء كثيفة حول جسد أمها، كانت على يقين تام أنها لا تحب مايكل أبدًا، وأنها ما زالت تسفح دموعها سرًّا على رجلها الأمريكي الهارب، والذي تدعي أنه أبوها، وما زالت تنتظره، بل إنها تصحو كل صباح وتعمل وتضحك وتراكم ثروتها على أمل أن يدق بابها ذات يوم، نور تحاول السيطرة على كراهيتها لأمها التي ظلت تنمو وتتمدد كل يوم، حتى صارت مثل ثعبان ضخم يمكنه التهام ليلى وظلالها السوداء.

كانت نور في الواقع ترى ظلالًا بيضاء حول مايكل سمير، بل تحبه، تحب ضحكته الآسرة، واتساع عينيه كلما حدثته عن شيء ما، وتحب صيحته وهو يداعبها بانبهار: «أنتِ طفلة معجزة!» كانت تعرف أنه يحب أمها حبًّا حقيقيًّا لا تستحقه.

تصحو نور من تأملاتها على صوت ضحكاتهم العالية، حتى ريتاج العجوز تضحك بصوتها المتحشرج ولا تتوقف عن الضحك إلا لتسعل حتى يكاد نفَسها ينقطع، تفكر نور في أن الطريقة المُثلى لقتل ريتاج هي إجبارها على الضحك حتى تخرج روحها من فمها. فجأة تصرخ فيهم بصوتها العجوز الغريب:

- «هل تعرفون أنكم الآن تجلسون بالضبط على مقبرة أحد الفراعين العِظام؟!».

******

نُبُوءَةٌ سوداء

في ميت رهينة يقعد الناس وهم رافعون رؤوسهم نحو السماء، وعندما يلكزهم أحدٌ في أكتافهم لكي ينهضوا احترامًا لمرور العمدة: «فز يا ولد، جناب العمدة»، يشيح بيده الرجل الذي نعتوه بالولد، كأنه منشغل بتأملات أهم، لاختراع نظرية جديدة حول نشأة الكون مثلًا، قائلًا باستخفاف وبلهجة تحذيرية: «بلا جناب عمدة، بلا زفت». ولكن الغريب يدهش تمامًا، عندما يرى بعد قليل الرجل نفسه وهو ينحني أمام العمدة قائلًا بمذلة حقيقية نابعة من الروح: «يا با العمدة، والله ما كان قصدي، أنا بهيم يا با العمدة، تأخذ على كلام بهيم
يا جناب العمدة!».

انقبض وجه صلاح ممتعضًا ومعبرًا تحديدًا عن هذه الحالة، مزج أقصى درجة من درجات الازدراء، ثم أقصى درجة من درجات التبجيل، عندما سألته ليلى الشوَّاف عن الذي يعرفه عمَّا تفعله نور. هتف: «نعم؟!». كانت كلمة «نعم» طويلة ومحملة بكل معاني الازدراء بترديد حرف العين حتى يخال مَن يسمعه ينطقها بهذا الصوت العالي أنها كلمة شتيمة جديدة. ثم استدرك بصوته الخفيض: «آسف يا هانم، والله، ما أقصد، فعلًا أنني استغربت من سؤالك، ولا أعرف شيئًا». ولكن ليلى كانت قد شعرت بالفعل بأنها دنيئة، وتريد استخدامه في التجسس على ابنتها.

وضعتْ ليلى يدها على كتفه فابتعد قليلًا، فانزاحت يدها، تذكرت أنه مثل نور تمامًا لا يحب أن يلمسه أحدٌ، فقالت هامسة

باستعطاف: «أنا قلقلة على ابنتي يا صلاح، أظن أن وضعها يزداد خطورة». ضحك بعصبية: «نور خطيرة؟!»، ثم أضاف كأنه يحدث نفسه: «طبعًا أفهم حدود المشكلة، لكن سأحاول شرحها لكِ ببساطة، هل تعرفتِ إلى نظرية نسبية الزمن لأينشتاين؟» هزَّتْ ليلى رأسها نفيًا فأكمل: «شيء نادر واستثنائي في طبيعة نور يجعل اليوم من عمرها يعادل عشر سنوات من أعمارنا، ولذلك تبدو لكِ أكبر منكِ سنًّا، أنا نفسي أحاول اللحاق بها»... وأضاف بصوت حزين: «ولكنني عادة ما أفشل». تهمس ليلى: «ربما لأنها لا تنام أبدًا». يطرق صلاح رأسه كأنه يقلب الأمر فيه: «ربما، أنا فعلًا لا أعرف إلا أن نور أنقى وأروع مَن في هذه الحياة».

يتركها صلاح وهي غائبة عنه وعن كل ما حولها، وأثناء خروجه يلوي عنقه بحنق، وهو يفكر في أن هذه المرأة الجميلة لا تعرف مع مَن تعيش، بالتأكيد لا يوجد في رأسها مخٌ. فتح صلاح عينيه على نور، تقريبًا لم يكن في حياته سواها، حيث كانت أمه عفاف تضعه في غرفتها طوال الوقت، وتذهب لتعمل في تنظيف القصر، علمته نور التي تصغره بسنوات القراءة والكتابة قبل أن يدخل المدرسة، أحبَّ صحبتها وكره اللعب مع الأولاد في حواري القرية.

علمته نور أسماء البلدان ولغاتها، وكم حلما أن يسافرا معًا إلى بقعة من العالم تشير إليها، وحين تضغط بإصبعها على الخريطة لتكبيرها بواسطة موقع جوجل إيرث، تصير البقعة التي أشارت إليها شوارع وحدائق وغابات، يتجولان فيها ويلعبان ويضحكان بصوت عال، وفجأة تنبهه نور إلى أنه لا يتحدث الإنجليزية فكيف

سيتواصل مع أهل المكان؟! فيقرران دراستها، وهكذا تعلما ثلاث لغات بالفرجة على مئات الأفلام العالمية، شرحت له ما كان يستغلق على فهمه، وكانت تجيبه دائمًا بإخلاص وحيرة كلما سألها عمَّن علمها كل ذلك، بقولها: «لا أعرف... بالفعل، لا أعرف».

وُلدت نور ولديها قدرة استثنائية وغير طبيعية على حفظ عشرات الصفحات من المرة الأولى لرؤيتها، كأن عينيها قمر اصطناعي بالغ التطور لحفظ الصور، أو كأن مخها مثل كاميرا فائقة الحساسية أو مثل طابعة تصوير الكتب والمستندات... كانت في طفولتها تُسمع عشرات الصفحات عن ظهر قلب دونما إحساس أو فهم، ولما كبرت لم يتغير الأمر كثيرًا، أيضًا حفظت عشرات الصفحات، ولكن بفهم أكثر.

تحاول نور أن تُكسب صلاح مهارتها، تمتحنه، ولكنه يقاطعها مازحًا، وهو يهزُّ رأسه ويغمض عينيه: «نور. نور. أنت حالة معجزة. أنا لست مثلك».

عندما التحق بمدرسة البدرشين الابتدائية، لم يفعل مثلها، عندما حاولت أمها إلحاقها بالمدرسة، بل جلس صامتًا طوال الوقت، ولم يكن يجيب عن سؤال، إلا إذا سأله المدرس وبأقل كلمات ممكنة ولكنها بالتأكيد صحيحة، حتى ظن الجميع أنه يعاني بلهًا ما. ولكنه كان بالطبع يطلع الأول على مدرسته كل عام.

اختار مع نور القسم العلمي في الثانوية العامة، ليس لأنه الأسهل، بل لأنه ما كان له أن يتحمل مقررات الجغرافيا والتاريخ علاوة

على الأدب العربي، وقد تجاوزها منذ سنوات، كان قد مر على تاريخ الشعوب كلها وليس تاريخ شعب مصر فقط، وقرأ مع نور في الصيف الماضي كتاب «شخصية مصر» للدكتور جمال حمدان، وموسوعة «مصر القديمة» لسليم حسن، وموسوعة «وصف مصر» لعلماء الحملة الفرنسية.

وافقت نور على اقتراحه أن القسم العلمي أهون كثيرًا. انتهى العام الماضي من الثانوية العامة وكان من أوائل الجمهورية. عندما ينظر إلى نور وهي تتحدث يرى بالفعل نورًا ينبثق من عينيها الضيقتين وشفتيها المزمومتين المسطحتين وحشرجة صوتها العجوز، شيء فيها غير بشري، شيء نوراني غير مرئي.

هو بالطبع لم يحبها هذا الحب الذي تعرفا عليه معًا في الروايات والأشعار والأفلام الأجنبية التي أدمنا مشاهداتها، كانت علاقته بها غريبة ليس في نظر أهل القرية؛ وإنما في نظريهما هما نفسيهما، لم تكن حتى بالنسبة إليه مثل أخته الصغيرة حنان التي أنجبتها أمه عفاف، بعد أن تزوجت بعد مصرع أبيه بعام، فلاحًا كبيرًا في السن يعمل في أرض الشوَّاف، وانتقلت معه إلى بيته، تاركة صلاح مع جدته رحمة، وهو على كل حال كان يقضي كل وقته مع نور في قصرها الأخضر، وعندما يرى أمه تنتقل من غرفة إلى غرفة لتنظيفها، كان يحييها وهو على عجلة من أمره كما يحيي أية امرأة غريبة عنه، تمصمص عفاف شفتيها قائلة للنسوة الواقفات معها: «المدارس لحستْ مخ الولد، يا ولداه».

كان صلاح يحب «نور» كما لم يحب أحدًا في حياته أبدًا، ويفعل كل ما تريد أن يفعله بعد مناقشات طويلة، وكان متأكدًا تمامًا أن لا أحد أحبه مثلما أحبته نور بطريقة محبته الغريبة نفسها.

كانا يقضيان أمسيات طويلة وهما يسخران من كل أهليهما وأهل القرية والساسة والمطربين والوزراء والممثلين والممثلات والرؤساء والزعماء ومدرسي صلاح في المدرسة، ومن كل شيء.. يقلد لها صلاح صوت عبد الجبَّار، وهو يلف شالًا حول بطنه ممثلًا أنه لديه بطن كبير مثله: «اطلعي بمقبرتي يا بنت الشوَّاف وإلا»... فتقلد له نور الشيخ برهامي مرتدية مفرش منضدة أبيض حول رأسها كأنه الشال الذي لا يفارقه: «دم بومة يا كبيرنا، مطلوب دم بومة عوراء».

يقول لها بعد أن يجلسا، وقد انقطعت أنفاسهما من الضحك: «تاريخ يا نور، تاريخ، سأدخل كلية الآداب جامعة القاهرة وأدرس التاريخ، اقتنعتُ بوجهة نظركِ أخيرًا، وسأتخرج لأدرِّسه، علَّنا نجد في دراسته وتدريسه مخرجًا لنا، اتفقنا». خاضا معركة صغيرة مع عفاف التي لا تعرف طريقًا إلى النبوغ، إلا أن يصير ابنها طبيبًا، دكتورًا يتحكم في أجساد عباد الله، يشرِّحها ويطببها ويعيدها إلى سيرتها الأولى فيكاد المرضى يركعون تحت قدميه.

لم تفهم عفاف أبدًا كيف يحصل ابنها على نسبة مئة في المئة في الشهادة الثانوية ولا يصير طبيبًا؟ ولأن صلاح من أوائل الجمهورية، فلقد قبض أول مرتب له كمكافأة لتفوقه بعد التحاقه بالجامعة، وظل يجوب القاهرة بقية اليوم؛ لكي يشتري به كله

هدية لنور، وبالطبع فشل، فما الذي يمكن أن تحتاج إليه نور هذه التي تشير فقط إلى الأشياء فتشتريها لها أمها.

عاد إلى ميت رهينة مغبرًا بتراب شوارع القاهرة، ومحبطًا، دخل عليها وهي جالسة كالعادة في غرفة المكتب، رفعت رأسها عن الكمبيوتر: «ما لك؟» وضع أمامها غاضبًا مكافأته كاملة: «أردت أن أشتري لكِ هدية، ففشلتُ، هذه أول أموال أحصل عليها من التعليم، وهي لكِ». نهضتْ وهي تكاد تطير من السعادة، وأخذته بيده ضاحكة وهي تفتعل المسكنة: «فسحني بهذه الأموال، فلنشترِ بها بنزينًا ونسطو على سيارة ليلى الجيب».

الآن صلاح لا يذهب إلى الجامعة بسبب ثورة يناير، لم ينتظم في الجامعة إلا أربعة أشهر، أثناءها التقت عيناه بعيني زميلته الجميلة داليا، وعرف كيف يرتبك ويقشعر جسده، ويكاد ينتفض قلبه بين ضلوعه، وهي تحدثه وتمشي في مكانها كالأطفال وشعرها الأسود اللامع يهفهف حول وجهها، تشير بيدها فيود لو أهداها فورًا قطعة السماء التي أشارت إليها، تحرك شفتيها فيريد التهامها مع كلماتها غير واضحة المخارج، تشرب أذناه صوتها، كما يشرب الصائم أول رشفة ماء بعد يوم صيام طويل في شهر رمضان حين يوافق شهرًا قائظ الحرارة.

داليا بعينيها السوداوين تعرف جيدًا ما تفعله بنظراتها الساهمة في الشاب الريفي الخجول كما تدعوه دائمًا، لا يريد إلا احتواءها في حضنه، ولذلك يشعر بضلوعه تكاد تقفز من مكانها، كلما رآها تهل من بعيد.

وقفت إلى جواره ذات يوم، وهو يرد على تليفونه الجوال، واستغربت حين نسي وجودها إلى جواره تمامًا، وانهمك في محادثة طويلة، استغرق أثناءها في الضحك كما لم تره يضحك من قبل، وأنهى المكالمة وصوته الرخيم يزداد رقة: «هه، وماذا تفعلين الآن؟»، ثم بنبرة أكثر رضوخًا ورقة: «طيب يا نور، لن أتأخر عليكِ».

سألته داليا بفضول: «أختك؟» فانتبه صلاح: «لا، ولكنها نور حياتي كلها». عندما عقدت داليا ما بين حاجبيها الجميلين، وأزاحت شعرها إلى الوراء بغضب، وغطتْ عينيها غلالة دموع، حكى لها بسرعة علاقته الغريبة بنور، وختمها بتأكيده أنهما لا يختلفان أبدًا، وكأنهما توءمان،
لا يستطيع أحدٌ الوقيعة بينهما، وأنه لم يُحزنها سوى مرة واحدة... يومها كان رأسانا في كتاب «هكذا تكلم زرادشت» لنيتشه نقرأ ونتحدث دون توقف، نحاول فهم العالم والأشياء من حولنا، وفجأة سألتها: «لماذا نكره نحن العرب الفلسفة؟».

رفعتْ نور رأسها عن الكتاب ووضعت علامة القراءة، وانطلقت متحدثة حوالي ساعتين بطلاقة ليست غريبة عليها عن كل ما قيل حول كراهية العرب للفلسفة منذ حوالي ألف عام، فهي من وجهة نظرهم تُغوي الشباب بالتشكيك في معتقداتهم وتُلهيهم وتُحرضهم على الشكِّ، وقد تجعلهم يبدلون من أفكارهم التي استقروا عليها منذ قرون طويلة، وهي جدلٌ لا نفع من ورائه، وإن التفكير النقدي الحر لمسائل الكون ومعرفة حقيقة الوجود يهدد ثبات العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

هتفتُ: «يا سلام! أوَ لم نقرأ، معًا منجز ابن خلدون والفارابي وابن سينا وابن الهيثم والغزالي وآخرين، أوَ لم يبهرنا ابن رشد نفسه، حين قال إنه لا يوجد تعارض بين الدين والفلسفة! ابن رشد الذي أهدى أوروبا مشعل تنويرها فساهم في انتشالها من القرون الوسطى المظلمة»...

قاطعتني: «نعم. نعم. أتحدث تحديدًا عن الفترة التي امتدت مذ تكفير ابن رشد ونفيه، وتمتد حتى هذه اللحظة»، ثم ضحكت بصوت متحشرج محذرة إياي بأصبعها النحيل المعقوف بالجملة العربية نفسها التي تزدري الفلسفة: «بلا فلسفة، وهيا لنكمل الكتاب».

لا أعرف حتى هذه اللحظة ما الذي جعلني أقول ببطء وأنا أتأمل عينيها الضيقتين الجاحظتين التي تبدوان أكثر قبحًا حين تخلع عنهما نظارتها، وشعرها الأصفر الشاحب القصير الخفيف وشفتيها المسطحتين الرفيعتين: «هل تعرفين أن الجمال مُعطِّلٌ للمرأة يا نور، الحمد لله، أنتِ لا شيء يعطلك عن المعرفة؟» ربما أردت أن أتفلسف أو أنني لم تكن لديَّ رغبة حقيقية في العودة إلى القراءة.

حتى قبل أن أستمع إلى ردها، شعرت بأنني ارتكبت جريمة لن أستطيع أنا نفسي غفرانها لنفسي، فقط أردت- لو أستطيع- أن أعود بالزمن دقائق إلى الوراء، لحظتها لما تفوهت بهذه الجملة الحمقاء، ولكن جملتي كانت مثل رصاصة انطلقت، ومن المستحيل أن تعود إلى فوهة بندقيتها ثانية. أحنيت رأسي، وظللت أنظر إلى الأرض، أتابع المثلثات الحمراء على سجادة أدهم

الشوَّاف الإيرانية، وأستمع إلى صوتها الذي وللمرة الأولى لاحظت أن نبرته مختلفة، هادئة، وحانية، وحزينة، وخالية من حشرجتها العجوز:

- «هل تأملت جيدًا يومًا من الأيام ليلى الشوَّاف يا صلاح؟ هل رأيت كيف تهتز خصلات شعرها الكثيف الكستنائي اللامع، عندما تقترب من بابٍ ما لتفتحه؟ وكيف أن وجهها الخمري حلو القسمات المنير يغضب أو يضحك أو يصيح؟ هل تابعتها وهي تدور مثل الفراشة في أرجاء الحديقة، تنتقل من مركز التجميل إلى حمام السباحة إلى المطعم بخطواتها الواسعة، وهي توزع ابتساماتها الخلابة على الجميع بالتساوي؟ هل رأيت طابع الحُسن في ذقن جدتي هاجر، حين يتحرك وهي تبتسم، كما لو كانت ورقات وردة تحركها نسمات الصباح؟ إن حركة جسد هاجر بين نخيل الواحة العالي هو آية في حدِّ ذاته»، وأكملت قائلة:

- «لا. والله يا صلاح، إن الجمال لا يعطل أبدًا، فالجمال هو أصل الحياة، وكل ما عداه هو خلق شيطاني»، ثم غبنا في صمت ثقيل طردني من أمامها. اختفيت عن عينيها أسبوعًا كاملًا. ببساطة، خجلت أن أريها وجهي ثانية حتى دعتني هي نفسها، وهللت في وجهي ضاحكة وكأن شيئًا لم يكن.

لمعت عينا داليا بالدموع، وشعرتْ فجأة أنها كبرت عشرات السنوات، وأحبتْ «صلاح» أكثر.

تتساءل ليلى متى انسحب صلاح من أمامها، من غرفة مكتب أبيها التي تعيش فيها نور تقريبًا. منذ طبعت ليلى رسائل ابنتها

وهي لا تدري ماذا تفعل بها، هي تعرف أن ابنتها غريبة، وقد تكون مضطربة نفسيًّا، ولكنها اعتادت الأمر؛ خصوصًا وأن نور لا تزعجها بصراخها أو بجملها الغريبة المبتورة إلا كل ثلاثة أشهر أو يزيد قليلًا، ومعظم وقتها تقضيه في قراءة الكتب أو الجلوس أمام هذا الكمبيوتر اللعين الفارغ من آثار خطواتها عليه، من أي أثر لنشاطها فيه، كانت توفر لها كلَّ ما يجعلها لا تصرخ في وجهها: إنترنت لا ينقطع... صلاح إذا غاب يومين أو أكثر لسفره إلى القاهرة، أو قضاء مشاغله وتليفونه الجوال لا يرد... شراء المزيد من الكتب بقوائم دورية تكتبها لها... تركها بمفردها وعدم اقتحام غرفة المكتب إلا إذا خرجت هي بمحض إرادتها؛ للجلوس على حافة بِركة هاجر.

أرادت أن تسأل صلاح، هل من المحتمل أن تكون ابنتها قاتلة أيضًا؟ ومَن هؤلاء الذين تتحدث عن جثثهم مع الدكتور نور الدين؟ هل كان عليها أن تعرض على صلاح الرسائل التي طبعتها سرًّا؟ تخرج ورقة من جيبها وتعيد قراءتها، رغم أنها باتت تحفظ هذه الرسائل عن ظهر قلب:

هل أطلت عليك يا دكتور نور الدين؟ طيب، ماذا أفعل لك وقد تغيبت كثيرًا عن ميت رهينة؟ هل تغيبت عنها أم أنك لم تزرها إلا عابرًا وناهشًا وسارقًا وعابثًا؟ أنا أحملك أيضًا مسئولية ضياع أول عاصمة مدنية في العالم. أردت أن أحكي لك كيف أصبحتُ سفَّاحة، ولكنك تشوشني بنظراتك وهمهماتك الغبية غير الواضحة، هل لهذا علاقة بمهنتك كمؤلف للموسيقى الإلكترونية؟

لقد خصصت ثلاثة أشهر للاستماع إلى موسيقاكَ يا دكتور، أنا لم أحب موسيقاكَ على الإطلاق ولم أفهمها، لم تتسلل إلى روحي دون تفكير، مثل بقية أنواع الموسيقى، تمامًا كما لا أستطيع فهم ما تقول الآن، لا باللغة الإنجليزية ولا باللغة العربية. لن أنتبه إذًا إلى حركة عينيك المملة التي ترميني بها الآن، وسأتابع، سأحاول أن أسيطر على حكاياتي وذكرياتي حتى لا أثقل عليك، هل تعرف أنه
لا توجد في اللغة العربية كلمة سفَّاحة؟ وأنني سأكون أوَّل مَن سيضعها في القاموس.

بحثت طويلًا فوجدت سفح الدماء ومنه سفّاح للمذكر فقط: سفَّاح، سفيح، سافح، مسفوح، متسافح، مسافحة، وحتى عندما تأتي الكلمة بمعنى الزنا فهي للذكر الذي يطأ المرأة دون زواج أو كتاب. خَلتْ كل القواميس العربية من وجود كلمة سفّاحة، وها أنا أمنح لتأنيثها الشرعية، لقد بدأت عملي كسفاحة منذ وقت قصير، وكان ابن ستيتة هو أول ضحاياي. المهم وكما وعدتكَ سأخبرك في النهاية أين خبَّأت جثث ضحاياي. فقط إذا ما استطعت معي صبرًا».

تحدث ليلى نفسها: «هل جُنَّتْ نور تمامًا؟ هل تكلم وتكتب رسائل طوال الوقت إلى دُمية أبيها الكاريكاتورية القبيحة، التي صنعتها بنفسها من صورة قديمة وجدتْها في أوراقي؟» إن نور لديها جرأة غير عادية على الجهر بأكثر تصرفاتها شذوذًا، دون خوف من أمها أو جدتها،
ولا تملك ليلى إلا الانصياع إليها، فهي تعرف أنها ستموت قريبًا على كل حال بسبب مرض نادر، لا يعرف أحدٌ من الأطباء ما

هو تحديدًا غير فقدان الشهية للطعام وللحياة، وتقول هاجر إنها ورثت مرض جدها أدهم الشوَّاف المجهول.

منذ أربعة أشهر وبعد ذهاب صلاح إلى الجامعة بشهرين، أرادت السفر إلى القاهرة، فقالوا لها إن الست نور أخذت سيارتها البيجو وخرجت بها مع صلاح، دهشت ليلى فابنتها لم تتعلم قيادة السيارات ولم تهتم بتعلمها، كما أن جسدها القزم وشحوبها الغريب وتعليقات المارة الجارحة يجعلونها لا تحبذ الخروج من غرفة المكتب على الإطلاق، فما البال بقيادة سيارة! أما صلاح فما يعرفه عن قيادة السيارات مثل ما يعرفه عن قيادة الطائرات. وبدأت في القلق على نور، حتى أنها انتظرتهما خارج حديقة واحة الشوَّاف على الطريق الرئيس لترعة المريوطية.

بعد ساعات طويلة في المساء، وقفت ودهشتها تزداد أكثر عندما وجدت صلاح خلف عجلة قيادة سيارتها، وهو يركن السيارة في مكانها بحِرفِية وثبات، حاولت لجم زمام غضبها، وسألت صلاح: «مَن علمك قيادة السيارات؟» أجابتها نور: «أنا». وأضافت وهي تنظر إلى صلاح بفخر: «وفي نهار واحد فقط».

تمتمت ليلى غير مصدقة: «طيب، وهل أنتِ نفسك تقودين سيارة، ومَن علمك أنتِ قيادة السيارات؟»

نظرت إليها نور باستهزاء وسخرية: «أنا»، ثم أضافت بصوت خفيض لأمها: «هل نسيت أنني جلست إلى جوارك كثيرًا، وأنتِ تقودين السيارة، هل كنت تعتقدين أنك تُجلسين دجاجة إلى جوارك مثلًا؟».

لم تستغرب أكثر ممَّا ينبغي، فنور وصلاح تعلما أشياء كثيرة جدًّا بمفردهما بمساعدة الكتب والإنترنت، فجأة كانت تجد صلاح يجيد السباكة وتقليم الأشجار والطهو والنجارة والكهرباء والطلاء والتمريض والإسعافات الأولية.

تهزُّ ليلى رأسها وتتركهما وهي تبتسم ابتسامة غريبة وأفكارها تطاردها... آه لو أن ابنتها عادية أو حتى أقل غرابة لرحبت ليلى بزواجها من صلاح، فهي لم تر في حياتها ثنائيًّا متوافقًا هكذا مثلهما، أحيانًا تتوهم أن نور على استعداد تام أن تذبحها أمام عيني صلاح إذا طلب منها ذلك، أو أن صلاح على استعداد تام لنحر أمه عفاف، إذا أشارت إليه نور أن يفعل ذلك.

لكن ليلى في الواقع تتفق كثيرًا مع ابنتها في محبة هذا الشاب، فلم تعرف ميت رهينة شابًّا في أدبه وعلمه ودماثة خلقه وابتسامته الفاتنة الخجول، التي تليق بيتيم فقير وأمين ومتفوق تفوقًا استثنائيًّا في الوقت نفسه.

كان صلاح يسير في طريقه في حواري القرية فيرفع الحجارة عن الطريق؛ حتى لا تتعثر بها البهائم أو الناس أو السيارات القليلة التي تمر، يجلس تحت ظلال الأشجار ويُعلم أطفال القرية القراءة والكتابة ويقص عليهم الحكايات، يأخذ بيد المرضى ويقرأ لهم روشتات أدويتهم، وقد يصحو فجر كل يوم لإعطاء الحقن لمريض فقير في وقتها؛ حتى ينتهي عدد الحقن المخصص لعلاجه.

يصلي الجمعة جماعة في جامع القرية، ويعتذر إلى شباب الجماعات السلفية بأنه غير قابل للتجنيد في تنظيماتهم، لأنه يعرف طريقه إلى الله وحده، كان اسمه أكثر الأسماء ترددًا بين المساكين: «صلاح، هات»... «صلاح، خذ»... «صلاح، ارفع معي»... يأخذ بيد مَن يبذر بذوره ويحصد مع الحاصدين، يعمل مع البنائين، ثم يترك أمه عفاف تدور على أصحاب الأراضي والمقاولين لتقبض مقابل عرقه؛ حتى تنفق على البيت وعلى أخته وعلى زوجها.. يقرأ ويتعلم طوال الوقت، وقد ينام على حافة الترعة والشمس فوق رأسه وكتابه مفتوح على صدره. ما هذه الرابطة الروحية التي جمعت بين صلاح المولود في بيت من الطين في ميت رهينة، ونور المولودة بمركز لورانس في نيويورك؟! يترك صلاح خلفه فتيات القرية الجميلات يتنهدن لوعة من فرط وسامته ويغذِّي خطاه ليلحق بقضاء أكبر وقت ممكن مع نور.

أهدته نور كمبيوتر محمولًا حين انتهى من الإعدادية، وكانا يجلسان كلٌّ منهما أمام شاشته بالساعات، وهما صامتان تمامًا كأنهما روبوتان. ذات يوم دخلت عليهما ليلى، وبعد أن تأملتهما طويلًا، هتفتْ: «هيييه، هل تخططان لحربٍ ما؟» أجابتها نور بصوت متحشرج، ودون أن ترفع عينيها عن الشاشة: «والله، لو شئنا لفعلنا، نحن سنخرج الآن من موقع البنتاجون، كم من السهل اختراق كل شيء في هذا العالم الإلكتروني يا ليلى!» صرخت ليلى: «هاكرز؟» فضحكت نور: «لا. لا. نحن لا نفعل شيئًا، فقط نريد أن نفهم أشياء». ثم رفعت كفيها المعقوفتين في وجه أمها مقلدة نبرة صوت «عادل أدهم» في فيلمه «حافية على جسر الذهب»: «أستطيع الآن يا قطة أن أجردك من كل ما تملكين في

دقيقتين بالدخول إلى حساباتك البنكية»، وغرقا الاثنان في ضحك، لم يستطع غضب ليلى أو صراخها إيقافه.

******

قادتْ ليلى سيارتها دون هدفٍ في شوارع البدرشين، هنا معارض الموبيليا لعمالٍ مهرة يكملون نصف عشائهم نومًا، عربات خضار وفاكهة طازجة واقفة على المزلقان القديم، صافرة قطار لا تعرف لماذا كلما استمعت إليها تهطل دموعها، فلاحة عجوز تبيع فطيرها المشلتت على الطريق السريع، شاب يسوق عربة يجرها حمار وينادي على البلح الأَمْهات، رائحة برتقال وليمون تعطر الهواء، شجارٌ بين طفل سرق حبَّات المانجو، وأحد ملاك حدائق المانجو والمشمش.

هنا بالضبط، تجولت مع الدكتور نور الدين، كان يمسك يدها حين يختفي هؤلاء المارة، فتشعر أن روحها تنسحب لتستقر في يده، يصيح مهللًا بدهشة طفل صغير، عندما يرى فلاحًا فوق النورج: «يا سلام، ما هذا الجمال؟!» يوقفهما صبي صغير، لا يتجاوز عمره عشر سنوات داعيًا إياهما: «تشتري عروسة يا باشا؟» لا يفهم الدكتور نور الدين ولكنه يبتسم ويتجه نحوه، تلكزه ليلى في ذراعه وتدعوه إلى الابتعاد، ولكنه يتركها ويمشي خلف الصبي الصغير؛ حتى يصلا إلى أقفاص البرتقال المرصوصة على جانب الطريق، يهمس الصبي في أذنه وهو يزيح المشمع الذي يغطي فجوة كبيرة بين الأقفاص: «مومياء... عروس؟».

يلمس الدكتور نور بيديه محتويات مقبرة فرعونية كاملة، وهو لا يصدق عينيه، يصرخ: «مستحيل، هل هذا حقيقي فعلًا، هل هذه آثار حقيقية؟».

يصرخ الصبي: «طيب هات أي فلوس، وخذ المقبرة كلها يا خواجة».

تهرع إليه ليلى ساحبة إياه بذراعه ليجريا بعيدًا عن الصبي، وهي تحذره ألَّا يتكلم معه أكثر. يستمع إلى دقات قلبها العالية، فيضحك مازحًا: «الجميلة ليلى الشوَّاف تحبُّ».

تستعيد كل كلمة قالها لها على مهلٍ، فلا تجد أبدًا أنه اعترف بحبه لها، بينما تستمع بوضوح إلى صوتها الصارخ بمحبته وهو يكرر كلمة: «أحبكَ» آلاف المرات، عيناه الزرقاوان وشعره الأصفر وبشرته الشقراء وتهتهته بجمل عربية بسيطة، بل كل شيء فيه لا يشير إلى مصريته، ولكنه كان مصريًّا ومن أبوين مصريين، هاجر أبوه إلى أمريكا وعمره خمسة أعوام.

ينظر إلى عينيها طويلًا ويقول لها ببطء وإشفاق: «وهل في أمريكا مَن هو أمريكي؟ أمريكا أرض الأحلام يا ليلى، هي حلم الشعوب بأسرها للحرية والديمقراطية، أمريكا ليست بلدًا، ولكنها فكرة
يا ليلى.. إن أوَّل سؤال يُطرح عليكِ هناك، مع ابتسامة متسامحة عريضة هو: «ومن أي أصل أنت؟».

بمجرد أن أنهى نور الدين دراسته الموسيقية أصبح يزور مصر بانتظام، وفي أوقاتٍ محددة كل عام. تعرفت إليه ليلى بعد عرض في المسرح المكشوف بالأوبرا للموسيقى الإلكترونية، نهضتْ من كرسيها في الصفوف الأولى وتمسمرتْ عند باب الخروج
لا تريد المغادرة، ودعتْ أصدقاءها، وعيناها ظلتا عالقتين بأصابع يده الطويلة التي تشير إلى نجوم السماء، وبابتسامته الآسرة، وهو غائب عمَّا وعمَّن حوله.

صفقتْ القاعة طويلًا، حين أسكت بإيماءة من رأسه أصوات الآلات وتدفق الجمل الموسيقية، ليطلق الكمان صوتًا يشبه صوت امرأة متألمة كأنها تلهث وهي تجري في مكانها في حجرة مغلقة أو كأنها تصرخ تحت الماء، أو كأنها تقاوم نيرانًا ما تحاصرها، أو كأنها تُغتصب في حقلٍ ناءٍ.

عندما خرج الدكتور نور من الباب وهو يحيط مذيعة الحفل من خصرها، ابتسمت ليلى له ببساطة وقالت ببطء ووقار: «كنتَ رائعًا،
يا إلهي... لم أسمع من قبل شيئًا مذهلًا كهذا!».

هل كان صوت هذه المرأة المعذبة في قطعته الموسيقية هو قدرها؟

ودع مذيعة الحفل بقبلتين على خديها، والتفت إلى ليلى باهتمام، صفَّر بشفتيه ولم يعلق على ما قالت، وإنما ردد بدهشة حقيقية خدَّرتها: «يا إلهي، هل يوجد في مصر كل هذا الجمال؟!»، لا تعرف حتى هذه اللحظة كيف نامت في سريره وفي حضنه، بعد

ثلاث ساعات فقط
لا غير من لحظة التعرف إليه.

دعاها إلى العشاء في مطعم صيني، وطلب من الجرسون أن يهديها عصا الطعام المزخرفة برسوم حمراء أعجبتها، حدثها عن عمله كمؤلف موسيقي في أوبرا ميترو بوليتان في نيويورك، عن أنه تزوج بالموسيقى، وأنه لا توجد زوجة غيرها في حياته.

سألته بدهشة: «لا توجد امرأة في حياتك على الإطلاق؟».

فأجابها بدهشة أكبر: «ما هذا السؤال يا ليلى؟ المرأة هي ملهمتي لتأليف المزيد من الألحان، أوَ لا تكون المرأة موجودة في حياتي إلا كزوجة؟!». ثم ابتسم ابتسامته الآسرة، فظهرت أسنانه المنتظمة البيضاء وانحرفتْ شفتاه البنيتان الشهوانيتان قليلًا، بما لم تستطع تفسيره، أهو ازدراء من سذاجتها أم مجرد سخرية طفيفة؟

عندما فتحت عينيها صباحًا وتأملت جسدها العاري وقطرات دم عذريتها على ملاءته البيضاء، حاولت أن تتذكر هل قال لها كلمة: «أحبكِ؟» وقررتْ أن تسأله مباشرة، وبمجرد أن فتح عينيه: «هل تحبني؟» فضحك بصوت به حشرجة النوم وصاح: «يا إلهي ساعدني على تحمل تلك الفتاة الجميلة، أنتِ مضحكة ومسلية للغاية يا ليلى». ثم أحاطها بذراعه، وضع رأسها على كتفه، وتأمل جسدها العاري في مرآة الخزانة، وتمتم بصوتٍ حزين تسلل إلى قلبها: «هل تعرفين إن الانجذاب أقوى من المحبة، قولي إذًا إنني منجذبٌ إليكِ؟».

كان دائم السخرية من أسئلتها وحيرتها ومحبتها وارتباكها، كان من الواضح أنه جرَّب عشرات الردود على مثل هذه الأسئلة، حتى صارت إجاباته عميقة وحزينة وغير مفهومة، كانت روحها تستشعر كل ذلك وأكثر، ولكن جسدها كان يرفض التصديق.

يضع أصابعه على شفتيها برقة ويهمس بصوتٍ مبحوح: «هل تعرفين ماذا قال جوته؟! إن الموسيقى تبدأ حيث تنتهي الكلمات».

تغوص أكثر بين ضلوعه: «ولكن أين هي الموسيقى الآن؟» فيقبض على شعرها الطويل ويخلص شفتيه بصعوبة من شفتيها: «اسمعي»... وبالفعل تستمع إلى موسيقى جسديهما، كان يتعامل مع جسدها كما لو كان بيانو، يضرب عليه بعنف أحيانًا وبرقة أحيانًا ويدوسه في أغلب الأحيان ليستمتع وهو مشدوه بآهاتها.

استمرت علاقة ليلى به، كأية فتاة تتعرف إلى رجل متعدد العلاقات، ويصور لها غرورها الأنثوي أنها ستكون محطته الأخيرة وامرأته الوحيدة.

كان يزور مصر كل شهرين لمدة أسبوع، وكان هذا الأسبوع هو الجنة كما وصفوها لها. معها مفتاح شقته، فكانت تستعد لمجيئه كزوجة متفانية، وهي التي لا ترفع كوبًا من مكانه في بيتها، كانت تغلق الشقة عليها، تنظفها وتشتري ما ينقصها، وتنثر تحفًا جديدة هنا وهناك، كلها تنتمي بالطبع إلى الآلات الموسيقية، ثم تذهب إلى المطار لتكون في أحضانه طوال الطريق... أسيرة لطفولته التي تنادي النساء بصفير سحري، لا يمكن الفكاك منه ليكنَّ أمهات له، أسيرة لحزنه الشفيف غير المفهوم، وغيابه عمَّا

وعمَّن حوله وتبتله في محراب الموسيقى، بمجرد دخوله إلى صالة الشقة الصغيرة، يخلع معطفه ويتجه إلى البيانو ليلمس أصابعه مطلقًا جملة موسيقية قصيرة حتى يشعر بأنه عاد بالفعل.

يتأمل كل شيء حوله ويهزُّ رأسه بنفور، ويغمض عينيه حين تقعان على مطفأة فضية عملاقة، اشترتها ليلى على هيئة بيانو: «ياااااااه! أي مخيلة وذائقة سوقية يمكنها أن تحول البيانو إلى مطفأة سجائر نتنة؟» علمها التدخين وشرب النبيذ، وعلمها أن تتأمل جسدها العاري في كل حالاته في المرايا وتحت ضوء ساطع، كان يهتف بدهشة وإخلاص حقيقي: «سبحان من خلق كل ذلك الجمال يا ليلى!».

تطفئ أنوار الشقة وهو يمسكها من خصرها ولا يريد إفلاتها أبدًا، ولكنها تتملص منه، وتشعل شمعة واحدة في كعكة مزينة بورد من الشوكلاته والفواكه: «اليوم يا حبيبي أكملنا عامًا على حبنا». فجأة يقبلها ببرود وهو ساهم تمامًا، ينتظر أن تشعل الأضواء من جديد قبل أن يتنهد: «يا سلام! عام كامل!» ثم ينهض من مكانه كمَن لسعته عقرب: «أنا أيضًا عندي هدية لكِ يا ليلى».

يرفع شريط فيديو في يده عاليًا كأنه راية، ويهتف بسعادة: «عُرض في دور العرض الأمريكية الشهر الماضي، ودفعت في هذا الشريط الكثير لكي نراه معًا، سنتفرج الآن على فيلمي الأثير».

كان فيلم «الكمان الأحمر» «The Red Violin»، ظلت ليلى مذهولة ومأخوذة وتكاد تموت خجلًا من مشاهد العري والجنس،

كانت مستغرقة في أحداث الفيلم باهتمام حين أوقفه نور الدين فجأة، وأضاء النور. رفع ذقنها ونظر إلى عينيها العسليتين طويلًا، وجزَّ على أسنانه بغيظٍ وأسى ويأس وحزن ونفاد صبر: «أنا هذا الرجل، أنا بالضبط «فريدريك» عازف الكمان».

كان الكادر الذي توقف عنده الفيلم هو عودة حبيبة وملهمة عازف الكمان «فريدريك» إلى حجرته من سفرها، فتجده يخونها مع غجرية، وهو يعزف على هذا الكمان الأحمر السحري المطلي بالدماء، فتطلق الرصاص من مسدسها على الكمان وترحل.

بعد أن أطفأ نور الدين النور، وضغط على زر تشغيل الفيلم من جديد، انسحب بجسده بعيدًا عنها ليجلس على كرسيه الصغير أمام البيانو؛ ليشعل سيجارة بأخرى، وهو يتابع من هناك بقية أحداث الفيلم، الذي يحفظه عن ظهر قلب كما يبدو، منذ هذه اللحظة وبشكل بدا لها فجائيًّا وغير إنساني لن يسمح لها أن تلمسه أبدًا.

كانت الحروف تخرج من بين شفتيه في البداية بصعوبة كأنه هو الضحية المُعذب: «أرجوكِ، ارحلي إلى حال سبيلك يا ليلى، فأنا لم أبقِ على امرأة معي لمدة عام أبدًا، وجودك أصبح خطرًا عليَّ». حزنُ صوته يمزقها تمزيقًا، ولا تستطيع النهوض من مكانها لتستر عريها الذي خجلت منه فجأة: «هل تتكلم بجد؟» يكشر عن أسنانه ويزداد غيظه حدة: «أنا لا أجيد المزاح، وليس لدي وقت له... اذهبي. رجاء، بهدوء وسلام ودون دموع، ودون قرف ميلودرامي، فأنا لا أحب الميلودراما».

تظل صامتة، كأنها وقعت على رأسها صاعقة، فيقترب منها وصوته يعلو صارخًا، وهو يشير إلى كل جزء من أجزاء جسدها: «هذا هو جسدك، لم تنقص منه خلية واحدة، كامل، وحر، وهو ملكك وحدك، تستطيعين أن تفعلي به ما تشائين، لكن بعيدًا عني».

كانت تفكر في أن الجيران بالتأكيد يستمعون إلى صراخه، فأسرعت إلى ارتداء ملابسها بيدين مرتعشتين، اقترب منها وظل ينظر إلى عينيها ببرود، كما لو كان ينظر إلى عيني بقرة: «هه، هل تفهمين جيدًا ما أقول؟» لا. هي في الواقع لم تفهم شيئًا حينذاك، غرقت تمامًا في بئر حزن عميق، جدرانه ملساء، لم تستطع الخروج منه طويلًا.

جربت معه كل شيء لتستعيده، تهديده بالانتحار، فيرد ببطءٍ: «في ستين داهية»، أو يرد بسرعة شديدة لكي يغلق تليفونه في وجهها: «نعم. نعم. ربما تأخذين سيارتك الفاخرة وتقلبين نفسك بها من فوق جبل المقطم، تمامًا مثل سعاد حسني في فيلم الحب الضائع».

جرّبت استعطافه بشتى الطُرق والكلمات ولكنه كان يجيبها بصوته الرخيم الحلو الحزين الهادئ: «أنتِ ضحية معتقدات شرقية غريبة
يا ليلى، لقد استمتعنا كل منا بالآخر، وانتهى الأمر، وأنا على كل حال لم أعدك بشيء».

جربت غلق تليفونها المحمول حتى يقلق عليها، ولكنها حين فتحته بعد أيام لم تجد منه أي شيء، لا رسالة ولا محاولة اتصال واحدة،
لا تصدق أنه هو الشخص نفسه الذي كان يتصل بها يوميًّا وبالساعات من أمريكا؛ ليستمع إلى صوتها النادر الحلو الملهم، كما كان يقول لها، مرددًا من آن إلى آخر بصوتٍ مأخوذ ومبحوح: «احكي لي أي شيء يا ليلى، فقط تكلمي. واصلي الكلام... أرجوكِ».

لم يترك لها شيئًا سوى مطاردته لأيام وشهور وسنوات، وصورة أخذتها من أوراقه خلسة، وحفنة من الأقراص المدمجة مسجل عليها موسيقاه الإلكترونية، باع شقته التي شهدتْ جنتها الصغيرة، وألقى شريحة تليفونه على ما يبدو في القمامة، وقد آلت بعد سنتين إلى صوتٍ أجشٍ، يبدو أنه لتاجر مخدراتٍ.

لم يكن له عنوان معروف لها في نيويورك سوى مكان عمله، وهناك أنكروا أنه مرَّ من هنا، وابتسمت موظفة السفارة الأمريكية في وجهها ببلاهة مرددة: «سامحيني، ولكنني لم أفهم سؤالك، أو ماذا تريدين تحديدًا من هذا المواطن الأمريكي؟!» وعندما سافرت خلفه لتبحث عنه، وتخبره بحمْلها، شكَّتْ كثيرًا أنه خُلق ذات يوم على هذه الأرض، كان تمامًا كأنه قطرة ماء تبخرت وصعدت إلى السحاب.

******

عادت ليلى إلى غرفة المكتب للبحث عن نور، يبدو أنها خرجت مع صلاح ثانية، في نور تحديدًا شيء يُشبه أباها كثيرًا، شيء قاس وساخر من كل شيء، وحزين، ومحب للوحدة، وعليم أكثر ممَّا ينبغي.

كانت تتأملها هي وصلاح وهما يقرآن معًا أو يجلسان أمام شاشة الكمبيوتر، أو يتبادلان الحديث بكلمات قليلة تختصر قصص حبٍّ أرقت جيلها أو أفلامًا من أفلام السبعينيات أو أغاني عاطفية أو حتى وطنية، يرددان معًا وبصوتٍ خفيض كلمات، مثل: «نحنحة»، «خنيق»، «ملل السنين»...

حين دخلت عليهما في صباح 28 يناير 2011، وصرخت في وجهيهما بوجهها المستثار: «كل شباب مصر في الشارع»، ردت عليها نور بهدوء: «نعرف يا ليلى، نعرف أنها ثورة، ولكننا لم نجهز أنفسنا بعدُ لحكم مصر»، ثم ضحكت ضحكة متحشرجة طويلة، وشاركها صلاح الضحك.

تمسمرت ليلى في مكانها غير مصدقة سخرية ابنتها من وجود معظم الشعب المصري في الشارع، حاولت نور تخفيف حدة صوتها: «ها نحن نتعلم دون توقف ونجتهد يا ليلى، نتعلم ما هي الثورة التي فوجئنا بها الآن، المصيبة يا ليلى أن الجذر معطوب تمامًا، وفساد الروح وصل من رأس السمكة إلى كامل جسدها، ها نحن نقرأ في تاريخ الثورات، ونحاول تصور ما ستئول إليه هذه الثورة بعد شهور وسنوات، ما زلنا نسأل أنفسنا يا ليلى مثل هذه التساؤلات، يعني، ماذا نفعل أكثر؟!».

بعد عام على نجاح الثورة، أغلقت ليلى واحة الشوَّاف، ولم تعد إلى فتحها حتى هذه اللحظة، واضطرت إلى أن تكرر ذات يوم جملة نور بحذافيرها، وهي التي كانت تذهب إلى ميدان التحرير طوال
الثمانية عشر يومًا وسيارتها ممتلئة بوجبات طعام للمعتصمين هناك!!

في فجر أحد الليالي، استيقظت من النوم فزعة، كانت أضواء النيران تتسرب من نوافذ القصر، وسرعان ما وجدت هاجر فوق رأسها: «الحقي يا ليلى». ارتدت ملابسها وجرت إلى منطقة الشاليهات والمطعم، وجدت مجموعة من الرجال الغرباء الملتحين، لم ترهم في ميت رهينة من قبل، كانوا يصرخون ملتاعين:

- «هل هذا يرضي الله؟» «هل هذا يرضي رسول الله».

ثم يشعلون النيران في الحصر التي تفرش أرضية المطعم، ويلقون زجاجات المولوتوف عبر نوافذ الشاليهات، كسروا كل ما في البار من زجاجات عصائر ومشروبات كحولية وغير كحولية، وألقوا الكراسي والشيزلونجات الثمينة في بِركة هاجر، أطلقوا سراح الخيول والحمير مروعين إياها بالنيران فهجَّت في الحقول، أتلفوا أسطول السيارات السياحية للواحة، هشموا زجاجها أولًا ثم أحرقوها عن آخرها، وكانت صيحاتهم تزلزل المكان: «الله أكبر». «الله أكبر».

سرقوا الثلاجات والشوايات الضخمة وشاشات التليفزيون الكبيرة المعلقة على حوائط المطعم وبالقرب من البِركة، أخذوا كل شيء في الواحة بحمولة سيارتين من سيارات النقل الثقيل، وأصابوا برصاصهم حارسي الواحة وخفيرها الأخرس، قبل أن يستيقظ أهل ميت رهينة، ويدخلوا إلى المكان، وعلى رأسهم عبد الجبَّار يتقدمه بطنه الكبير.

الآن، تتلفت ليلى حولها تحاول أن تجد أي أثر، أي أوراق، أي ذاكرة إلكترونية مخفية تحفظ نور عليها ملفاتها. رفعت شعرها الطويل الكستنائي اللامع في عقدة تشبه الكعكة وثبتتها بمشبك ذهبي. وفكرت في أنها ستسأل غدًا- على كل حال- عن ابن ستيتة الدجّال، هزَّتْ رأسها حائرة، وهي تتمتم: «لماذا ابن ستيتة بالذات، وهل تعرفه نور؟» جلست على كرسي المكتب أمام شاشة الكمبيوتر محبطة ويائسة، وسرعان ما اتسعت عيناها. كان كمبيوتر نور وللمرة الأولى مفتوحًا على ما يبدو أنه رسالة جديدة فقرأت:

«نحن نتقدم يا دكتور نور الدين، ونكاد نصل إلى النهاية، فلا تبتئس هكذا... أعرف أنك أكول ونهم لمباهج الحياة، وأكاد أستمع عبر أنفاسك إلى دعائك لله لكي يأخذني إليه الآن، أو يسخطني صرصارًا مثلًا لتدهسني بقدمك وتحرر نفسك من قيودك، وتذهب حرًّا لتنهل المزيد من متع الحياة، وتؤلف المزيد من الموسيقى الإلكترونية التافهة، فتصدع بها رأس الكون.

أعرف أنك لن تشبع من الحياة أبدًا يا دكتور إلا بعد أن يملأ التراب عينيك وأذنيك. ولكنني ما زال لديَّ أمل أن تأمرني بفكِّ

قيودك، لكي تجلس أمامي بكامل رغبتك وإرادتك لتستمع إلى بقية فصول الحكاية.. ما زال لديّ أمل أن تغيرك حكاياتي، وألمح ذلك التغيير في عينيك قبل أن أموت يا دكتور، وأنا بالفعل أقترب كثيرًا من الموت، سأموت قبل أن أكمل العشرين من عمري، وهو بحساباتكم الدنيوية الفانية ما يعادل مئتي عام.

أردت أن أرتب لك جرائمي وفقًا لتواريخ ارتكابها، ولكن ماذا أفعل لك وأنتَ تجبرني أن أشرح لك دوافعي، وأسهب في وصف المكان ووصف المقتولين، الذين هم قتلة في الوقت نفسه، وأيضًا في وصف مجاهل روحي المعذبة، فأنا لم أعرف أبدًا مَن أنا بالضبط
يا دكتور، هل أنا الفرعونية التي تشغل العالم ويتحاربون فوق تابوتها؛ للسطو على إرثها الذهبي الأسطوري الذي لا يُقدر بثمن؟ أم أنا حفيدة أدهم الشوَّاف الشاعر العربي الحالم والهارب من نيران فتنة قومه، والمهاجر إلى هاجر، فقط لكي يجلس معها على حافة البِركة تحت جذع شجرة التوت العملاقة، ويقرأ قصائده، أم أنني مجرد طفلة سِفاح لأب أمريكي، لا يجيد في الحياة إلا خدمة غرائزه ونهمه اللانهائي؟!

والله يا دكتور أريد أن أفكّ قيودك أكثر منك، وأريد أن أتخلص من حكاية ميت رهينة، ولكنك تعطلني بنظراتك، ولا تستطيع معي صبرًا».

******

سفّاحة ميت رهينة

في ميت رهينة، ليس غريبًا أن يجد العابر أحدَ الرجال، وهو يجمع ذيل جلبابه في تكة سرواله، وينطلق نحو الجمع مستغيثًا من كائنات خرافية تلاحقه، يفتح كفيه ويلقي ما لا يتبينه الجميع للوهلة الأولى في غبشة المساء، ودموعه لا تتوقف عن الهطول كما لا يتوقف لسانه عن ترديد: «أغيثوني»... «أنقذوني»... «دثروني»... يرمي الناس على الأرض ما رماه عليهم بعد أن يتأملوه طويلًا، ويكتشفوا أن ذقن التمثال الذهبي الصغير قد كُسرت وضاعت من يد هذا الموتور.

يظل تمثال تحتمس الثالث المهيب المنحوت من المرمر الوردي ملقًى على الأرض، ينثر ضوءًا خفيفًا، يجبر الجميع على السكوت والتحديق إليه إلى ما لا نهاية. لا ينغص صمتهم الذي يشبه الصلاة إلا ولولة الرجل، وهو يتمرغ إلى جوارهم حاميًا وجهه بكفيه، وطالبًا أن يسامحه الملك العظيم ويخلصه من لعنته ويطلق سراحه. لا يتجرأ أحدهم أن يقترب من التمثال ولا من الرجل، ولكن في الوقت نفسه لا تتوقف كركرات النارجيلة.

أخيرًا، ينهض عبد الجبَّار عن دكة السكري ببطء، يضع التمثال في جيب معطفه، ويعود إلى مكانه وكأن شيئًا لم يكن، آمرًا عزوز بن بهانة أن يسكب على رأس الرجل قُلّة الماء، فيهدأ الرجل، ويحكي لهم أنه وجد التمثال بالقرب من ترعة المريوطية، حيث ينتهي الممشى الحجري لقصر هاجر، وأنه مذ وضعه في جيب جلبابه، وهو يشعر بثعابين ضخمة تلتف حول جسده

وذراعيه، فإذا ما حاول الإمساك بها يجد عددًا هائلًا من الأكف تصفعه على خديه بانتظام ودون توقف، الصفعات ليست مؤلمة بقدر وتيرتها الصارمة التي تجعله يكاد يُجن.

يرمي عبد الجبَّار لي الشيشة من يده ويمسك بطوق جلباب الرجل فيجبره على الوقوف والتوقف عن التمرغ في الوحل، يصفعه على وجهه بكل قوة، لا لكي يخرج الرجل من حالة رعبه فقط، بل لكي يُخرج نفسه أولًا من الغرق في هوة يأس عميقة، من فرط عجزه عن الوقوف على باب مقبرته، التي تمنح محتوياتها لعابري السبيل والمعتوهين وتتمنع عليه.

بعد هذه الظهيرة التي ألقت فيها نور جملتها، محددة مكان المقبرة التي فتحها بيديه الاثنتين، وعبد الجبَّار يتبع البنت التي يسميها المسخوطة مثل ظلها، توقف تمامًا عن الحفر، كما توقف عن اصطحاب الشيخ برهامي وعزوز بن بهانة ومتولي الحرامي معه، لم يكن يعرف تحديدًا طبيعة المخلوقة المعجزة التي أنجبتها ليلى الشوَّاف، ولكنه اكتفى بما يعرف؛ لكي لا يُشتت تفكيره ويظل يتبعها حتى توصله إلى باب المقبرة.

حاول أن يتودد إليها ذات صباح فسألها وهو يتأمل زجاج نظارتها السميك ولا يستطيع منع نفسه من مصمصة شفتيه: «العلم أم السحر أسرع يا نور؟» عندما تلوي نور بوزها هكذا تختفي شفتاها وفمها تمامًا، ويصبح وجهها مثل وجه مسخ حقيقي، رسمه طفل على عجل مستعيضًا عن العينين بنقطتين باهتتين وعن الفم بخط متعرج.

لا يفهم عبد الجبَّار من كلماتها شيئًا، فهي تتحدث بسرعة، وفي الوقت نفسه بصوتِ عجوزٍ، تقترب من الموت وتجاهد لكي تكون كلماتها أوضح. يكرر خلفها بعض العبارات التي لم يقتنع بها أبدًا، تدَّعي أن السحر ليس له وجود، وأن المقصود بالسحر عند الفراعنة، هو التفوق اللانهائي للعلم إلى درجة أن الجهلاء أمثال عبد الجبَّار يظنون أنه سحر.

بعد كل عبارة تنعته بالأمي وبالجاهل، وعبد الجبَّار يتحمل شتيمتها، علّها في النهاية تتخلى عن حرصها وتخطئ وتفتح المقبرة فيدخل خلفها. لن يتردد وقتها في قتلها، ولن يرهقه دفنها، فهي لن تحتاج إلا إلى حفرة صغيرة تتسع لعظام قطة مريضة.

تحدثه عن التربة المُنداة والتربة الجافة لتحديد أماكن الآثار تحت الأرض، وتحدثه عن كثافة الزرع ونضارته أو اختفائه دون أسباب واضحة للعامة من أمثاله، وعن طريقة تفكير بُناة المقبرة العِظام الذين يعرفون مقدار طمع اللصوص السفلة، فيخدعونهم ببناء أكثر من باب للدخول إليها، ثم فجأة تشير إليه مؤكدة بغيظ: «اللصوص السفلة مثلك يا عبد الجبَّار».

لم تنادِه أبدًا مثلما تناديه أمها: «عمي عبده»، وعندما كانت تغضب عليه ليلى تناديه: «عمي عبد الجبَّار»، ولكن هذه الشيطانة الصغيرة المسخوطة تجد حرجًا في نطق كلمة: «عمي»، كأنها هي التي تكبره بأعوام.

راقبها وهو فاغر فاه، يعرف أن ليلى تُخفي المسخ الغريب الذي أنجبته خجلًا من هيئته، ثم تدعي أن ابنتها مريضة بالسرطان،

ولكنها ترتبك عندما يسألونها: أي نوع من السرطانات؟ يفكر عبد الجبَّار أنه ربما أصابت هذه البنت لعنة الفراعنة ذات ليلة في مقبرته، فشابت قبل أوانها، لقد رأى بنفسه شعيرات بيضاء بساقيها، وكان يسمع احتكاك عظام ركبتيها كلما نهضتْ أو جلست، كأنها امرأة في التسعين من عمرها، ولولا أنها مجرد جلد على عظم لزادت تجاعيدها التي تبدو واضحة تحت عينيها وفي رقبتها القصيرة.

كم كان يخافها عبد الجبَّار! حاول ذات مرة أن يستدرج أمها لتحكي له لماذا ابنتها على هذه الهيئة حتى أنها تخفيها عن أهل القرية، فنهرته ليلى طالبة منه بحسم ألَّا يفتح هذا الموضوع ثانية، وأن يهتم أكثر بتطوير أدواته كسارق آثار.

ترد نور على نظراته بنظرات أكثر ازدراء، وتستدير عيناها الصغيرتان وتضيقان أكثر، وهي تفح في وجهه فقط لكي تتخلص من ملاحقته لها: «سيموت الشيخ برهامي النصاب بعد أيام، وأحتاج إلى شيخ لأفتح لك المقبرة، هات لي ابن ستيتة».

اعوجت رقبة عبد الجبَّار فرحًا من تأثير صدمة كلماتها فيه، من سهولة انتهاء عذابه طوال سنوات، طارد فيها بابًا يختفي أمام عينيه كلما رآه، لا يسألها كيف عرفت بأن الشيخ برهامي سيموت بعد أيام، بل يؤنب نفسه ويكاد يلطم خديه سائلًا نفسه كيف لم يفكر في ابن ستيتة من قبل، ولا حديث لنسوة القرية إلا عن معجزاته؟ خصوصًا بعد أن لبسه شيطان ما، وجعله يبدو مثل شيخ هالك وهو بعدُ في عزِّ شبابه.

ولأنه لم يعرف أن نور قد التقت ابن ستيتة وعمرها أربعة أعوام، ولأن ابن ستيتة هذا لم يعد أحدٌ يتذكر اسمه، بل هكذا تدعوه القرية كلها، فلقد نهض كما لو لسعته عقرب، وهرول بضعة خطوات، ثم عاد إليها ليقطع نظراتها المستهزئة به وهو يقول بمذلة: «ابن ستيتة، حاضر، ابن ستيتة، حالًا».

******

وُلد ابن ستيتة في القبر لأم عجوز في الخمسينيات من عمرها، كان اسمها ستيتة، ماتت في أيام حملها الأخيرة فجأة، فسارعوا إلى دفنها، وعندما همُّوا بوضع أوَّل جاروف من التراب على جثمانها، شاهدوا الدماء تنطلق من كفنها الأبيض مثل نافورة صغيرة، وشاهدوا بطنها وهي تتقلص وتُشفط وتطرد ما بها، ووسط ذهولهم وتوقف نسوتهم عن النحيب والصراخ، استمعوا بوضوح إلى ما يشبه نهنهة الرضيع، ولكن الملقن ظل يلقنها ما ستقوله للملكين الكريمين، حين يسألانها عن ربِّها وعن دينها:

«قولي ربي هو الله، وديني هو الإسلام، ولقد عشت ومت على قول لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله».

«اذكري يا بنت آدم وحواء ما خرجتِ عليه من الدنيا: أنكِ رضيتِ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا».

وما إن سمع منكر ونكير هذا التلقين، وقبل أن يخرجا ويقول أحدهما لصاحبه: «انطلق بنا، ما يقعدنا هنا»، حتى انقضتِ النسوة من مؤخرة الجنازة على القبر، وأزحن الرجال جانبًا،

قصوا حبل الرضيع السُرّي عن أمه الميتة، وأعادوا غُسلها وتكفينها على عجل، وأهالوا عليها التراب، وأخذوه في حضنهنَّ، ومنذ هذا اليوم وهنَّ يطلقن عليه: «ابن ستيتة».

بالتأكيد منحوه اسمًا ولكن الجميع سرعان ما نسيه، وهو نفسه ارتاح لاسمه هذا، بعد أن قرر امتهان مهنة جلب المحبوب والرزق وطرد الشياطين من الجسم.. كل نسوة القرية اللائي أنجبن حديثًا آنذاك أرضعنه، واعتنين به، وهدهدنه مع أولادهنَّ، وكنَّ يلاحظن ازدياد غرائبه يومًا بعد يومٍ كلما كبر، وكيف أن عينيه الغائرتين تنبعث منهما إشعاعات تدوّخ مَن في حضرته.

حكوا أن إحداهن تركته يحبو في فناء بيتها، عندما كان عمره حوالي ثمانية أشهر، وعندما أظلمت الدنيا تذكرته، فذهبت خلفه لتحضره، وجدته في البقعة نفسها التي تركته فيها، يمص إصبعه ويضحك ووجهه كله مغطًى بالدماء، صرخت فلحق بها أهل بيتها ليجدوه يضحك دون صوت ونواجذه الوردية تضيء المكان حوله، كان قد قضم رأس ثعبان ضخم وأرداه قتيلًا مكومًا إياه إلى جواره، تناقلن سرًّا فيما بينهنَّ أنه مكشوف عنه الحجاب.

ذهب إلى الكُتَّاب مع أولادهنَّ، ولكنه كان أسرع منهم جميعًا في حفظ القرآن كله وهو صغير.. يقولون إنه سرق كتاب سحر قديم من شيخ الكُتَّاب، الذي علمه القراءة والكتابة مجانًا ولوجه الله تعالى، ولأنه كان يقضي معظم الوقت وحيدًا في حجرة أمه ستيتة، فلقد جرَّب فور بلوغه أن يُحضر الجن ويصرفه.

قالت النسوة إنه أتقن ذلك وهو لم يتجاوز بعد الرابعة عشرة، فعمل أحجبة للممسوسين والمهجورين والتواقين إلى محبوب عصي عليهم والمربوطين من الرجال، والمحرومات من الإنجاب، كان يبادرهنَّ فور دخولهنَّ بجملة لا يبدلها وابتسامته الطيبة على شفتيه: «خير إن شاء الله، اللهم اجعله خيرًا»، ويتبعها وهو يُطلق بخوره مغمضًا عينيه الغائرتين، وغائبًا في غيبوبة وجد: «يا معين، يا حي، يا قيوم».

تركت النسوة أسرارهنَّ لديه في غرفة ستيتة القذرة، التي لم يبدلها رغم الأموال الطائلة التي كنَّ يغدقنها عليه، ونادرًا ما كانت تعاود الواحدة منهن زيارته مرة أخرى بعد قضاء حاجتها، ولكنهن كن يوصينَ أقاربهن وجيرانهن بزيارته؛ خصوصًا إذا كانت المرأة عاقرًا أو كان زوجها كما تشكو مربوطًا.

لم يكن يخرج من حجرته إلا لجلب المزيد من الأعشاب والأحجار الكريمة والحبال وشمع المواليد الأبيض والحبر الأحمر، أو لفكِّ ربط أحد الرجال، يسير خلف الرجل المقصود الذي أشارتْ امرأته إليه، وفي غفلة من الرجل يُلقي على ظهره حفنة «رَدَّة» مقروء عليها تعويذة فكِّ الربط.

يقولون إنه سبب حمل الكثير من نساء القرية وإن سرَّه باتع، بينما يتندر عليه فتية القرية، الذين تفرقوا في جامعات مصر، قائلين: «ابن ستيتة يستغل النسوة الجاهلات ويحبلهنَّ بنفسه».

أحيانًا، كانت تعود إليه إحدى النسوة صارخة في وجهه بأنه قد مرت شهور، ولم يرزقها الله بالخلف الصالح، فيردد الجُمل ذاتها

ناهرًا إياها بنبرة مهددة: «لستُ إلهًا يا خالة، وإنما أنا رجلٌ على باب الله»، أو «كله من كرم الله»، أو «الرضا بالمقسوم عبادة»، كانوا يعرفن أن إفشاء سرِّ إحداهن له سيؤدي إلى كشفه، وربما قتله ورميه في ترعة المريوطية، أو في أحسن الأحوال إبلاغ الشرطة عنه، وفي هذه الحالة سيعترف بكل شيء وسيكتب لهم قائمة بكل النسوة اللائي زرنه، فكنَّ يلذن بصمتهن إذا ما جاءت سيرته، ويواصلن إرسال أخريات إليه.

عندما وصفتْ هاجر لإحداهن حالة حفيدتها نور ابنة الأربعة أعوام، وأنها تشكُّ في أنها ملبوسة بشيطان ما، يمنعها من أن تكون طبيعية وتأكل وتلعب وتتكلم وتكبر مثل بقية الأطفال، نصحتها بالذهاب إلى ابن ستيتة.

جحظت عينا الطفلة بمجرد دخولها إلى الحجرة القذرة، واختنقت من دخان البخور وحبَّات الكسبرة المحروقة فظلت تسعل، كان ابن ستيتة قد تجاوز العشرين عامًا بأيام، وضع يده على رأسها، وأمر هاجر بالانتظار في الخارج.

لم يصدق ابن ستيتة نفسه، وهو يراها تبتسم بسخرية، فالأطفال لا يبتسمون بسخرية، الأطفال لا يسخرون، فهم لم يتعرفوا إلى السخرية بعدُ، حتى أنه كان يحدد بلوغ أحد الأطفال المبكر عندما يلاحظ في عينيه نظرة سخرية أو استهزاء، ارتعد ابن ستيتة للمرة الأولى في حياته، وفرَّق شعيرات رأسها الصفراء الخفيفة عن بعضها البعض، فواجهته بوادر صلع في أكثر من مكان، ابتسم ابتسامة مفتعلة ليتغلب على رعبه، وهمس وعيناه الغائرتان تبحلقان إلى عينيها:

- «مَن أنت؟».

أجابته بدرجة الهمس نفسها:

- «أنا أكبر منكَ على الأقل بمئة عام».

أجلسها على حجره مثلما يُجلس قطة صغيرة، وشعر بشيء غامض يتسلل إليه من جسدها، فتجمد في مكانه تمامًا، ولم يستطع إزاحتها، لم يعد يقوى على تحريك أي جزء من جسمه حتى إصبع، بينما كان همسها يزداد فحيحًا: «هه، هل ستخرج الشيطان من جسدي؟».

ألجمته طلاقة لسانها كأن بداخلها امرأة أخرى عجوز تتحدث، لم يفهم شيئًا، أو أنه تعمد ألَّا يفكر في شيء، ظلت على وضعها، ولا يدري ابن ستيتة ولن يعرف حتى آخر يوم في عمره أية لعنة جعلته لا يلقيها بعيدًا، ربما بحكم العادة، بحكم ما كان يجيد فعله فقط مع كل النساء، أمسكها من كتفيها وأخذ يحركها، وكأنها تمتطي حصانًا خشبيًّا تحاول الجري به وهو في مكانه... تحملت الألم الذي يسببه لها بآهة مكتومة أو بآهتين قبل أن تفقد وعيها.

لقد جرّب ذلك كثيرًا من قبل مع نسوة في خريف أعمارهن، كن يستمتن في استحلاب آخر قطرات المتعة كآخر زاد سيتزودن به لمشوارهن الطويل نحو الشيخوخة، وهو أكثر مَن يعرف، كم كانت هذه النسوة ممتعات!

رفعت رأسها فجأة إلى سقف الحجرة لتتابع أعشاش العناكب هناك، ثم زفرت زفرة طويلة وغامت عيناها وهمدت فوقه حتى سكنت تمامًا ووقعت على الأرض، حتى ظن أنها ماتت.

عندما دخلت عليهما هاجر بعد ساعة تقريبًا، وجدت «نور» بالقرب من الباب مقرفصة تنظر بهدوء إليه، وعندما نظرت هاجر إليه بدورها صرخت مستنجدة بمساعديه من النسوة في الخارج: «إلحقوني»... كان الشاب قد شاب خلال هذه الساعة، ابيضَّ شعره الأسود الحالك كله، وغارت عيناه أكثر حتى أصبح من الصعب رؤيتها بين جفونه المتهدلة، وارتخت شفته السفلى ببلاهة، وكان يسيل منها خيط لعابه على جلبابه، وبرزت عظام وجنتيه، فأصبحتا مثل قرني شيطان.

صرخت المرأة السمينة العجوز التي تساعده، وهي تجثم عليه وتحتضنه: «شيطانها نال منك يا ولدي، يا خرابي يا ولدي».

حملت هاجر نور وأخذت تنظر إلى المرأة السمينة، التي تصرخ وتحتضنه دون أن تفهم شيئًا، ولكن جزءًا من وعيها كان سعيدًا على أمل أن يكون الشيطان قد غادر جسد حفيدتها بالفعل، وسكن جسد هذا الشيخ الشاب. لم يرفع ابن ستيتة رأسه وتظهر عيناه المرعوبتان كعيني حية، تحاول الهروب من شركٍ ما، إلا عندما تأثأت نور كما تتأثئ بالضبط طفلة لديها أربعة أعوام: «تيتا، تيتا، امشي، بيت».

******

تصعد نور إلى سطح البيت وتتفرج على عالم أمها من علٍ. تجدها خلف عمود آخر شاليه وهي تنظر حولها باضطراب وتطمئن إلى خلو المكان من الأعين المتلصصة فتواصل تقبيل مايكل سمير، تطمئن نور بدورها حين تنتهي قبلتهما الطويلة، وتزيحه أمها عن طريقها وتعود لتجلس على كرسي وسط أطلال المطعم المحترق، تكاد ترى الخراب مجسدًا وهو ينشر أذرعه على كل ركن من أركان البيت الذي كان قصرًا.

تقرأ ليلى بالتأكيد الرسائل التي تتركها متعمدة لها، بينما تظن أمها أنها نجحتْ في اختراق كمبيوتر ابنتها لمراقبتها ومعرفة أسرارها، يبدو من عينيها المغرورقتين بالدموع أنها بالتأكيد تقرأ الآن ما كتبته بالأمس فقط:

«تعرف أن الأمر ليس بيدي يا دكتور؛ فالحكايات لا تتوقف بمجرد انطلاقها إلا بعد أن تصل إلى نهايتها المحتومة، وكلما قررت أن أصل بسرعة إلى النهاية حتى أفكَّ قيودك، أجد النهاية تسابقني وتعدو أمامي وتغيظني، فأحاول اللحاق بها.

كل مَن قتلتهم يطاردونني بلا رحمة، ويجبرونني على ألَّا أنسى أي لحظة من لحظات حياتهم، وحتى وصولهم إلى حتفهم. عرفت أنني غريبة عن سائر البشر، عندما أدركت قدرتي غير العادية على تذكر الأحداث والناس، الذين مروا أمامي ولو لمرة واحدة، مذ كنت في الثالثة من عمري.

هل تصدق أنني أتذكر حتى شكل الهوام التي كانت تحلق فوق رأسي وأنا بعد في مهدي؟! هل لذلك كنت ملولة وتقريبًا أشاهد

كيف يعاملني الجميع، كما لو كنت شبحًا لا يراني أحدٌ، وإذا حدث ورآني أحدٌ، يتمتم بكلماتٍ ليس لها علاقة بما نتحدث عنه، كأن يقول: «أستغفر الله العظيم»، أو يتمتم كما يتمتم البلهاء الذين يعتقدون في الأشباح والأبالسة والشياطين فيبرطمون: «حلوة يا نور»، بالنبرة نفسها التي يرددون بها جملتهم الغبية: «أعوذ بالله من الخبث والخبائث»، أو كأن يقول أحدهم: «والله أنت طيبة وأميرة»، بالطريقة نفسها التي يرددون بها جملتهم الحمقاء حين يخاطبون الأرواح الشريرة: «انصرفي، لا تؤذيني، ولا أؤذيكِ».

لا أدري متى تحديدًا شعرت بحالتي الغريبة تلك؟ ربما بعد انتباهي إلى نظرات الرعب في عيني أمي، ليلى الشوَّاف. كنت أتأمل بهدوء حالتها النفسية السيئة وعصبيتها، وأعرف بالطبع أنها كانت تستمع إلى هسيس أصواتٍ قادمة من بئر منسي ومهجور حين تستمع إلى بكائي وأنا رضيعة، فتصرخ في وجه جدتي هاجر: «لا... لا... لماذا أنا بالذات يا ربي؟».

تختبئ نور في مخبئها السرّي الذي بنته بالحيلة طوال سنوات، وأخفته بذكائها عن الجميع، وهو بالكاد يسعها ويسع الكمبيوتر المحمول الصغير، الذي اشترته سرًّا وأخفته عن عيني أمها، ومخطوط جدها أدهم الشوَّاف.

تشعر نور بأن الوقت يداهمها وأنها على مشارف موت محقق، وما زالت تعمل على هذا المخطوط الملغز. أوراق جدِّها لم تكن كتابًا واحدًا، ولذلك لم تفهمه أمها أبدًا، بل أهملته ونسيته حتى أنها لم تنتبه منذ سنوات إلى اختفائه. ببساطة ترك أدهم ثلاثة كتبٍ في مخطوط واحدٍ، ولقد نجحت حتى الآن في فكِّ رموز المخطوط

الأوّل، فوفقًا للإشارات والأسهم، وذكر بعض رسائله القديمة إلى أصدقائه في المملكة، أو إلى ريتاج وبناته الأربع منها، أو رسائله المستقبلية، التي كان يكتبها أثناء مرضه إلى ابنته الرضيعة ليلى، وكلها كانت في محبة ميت رهينة ومحبة هاجر، وتمنياته لابنته بمستقبل أفضل، تستخدم لتحقيقه ما حباها الله به من ثروة وتنوع في جذور حضارتين.

استطاعت نور أن تجمع ديوان شعر ضخمًا في ألف صفحة تقريبًا، وجهزته للطباعة، جمعت الديوان، وهي التي قرأت ديوان الشِّعر العربي كله ابتداء من الشعر الجاهلي حتى آخر ديوان شعر نثري، تعرف جيدًا أن جدّها كان يكتب شِعرًا تقليديًّا خاليًا من الموهبة، كان قد سمى ديوانه: الأشعار الكاملة: «مدنُ البنفسج»... بقلم الشاعر أدهم الشوَّاف.

جمعتْ أيضًا كتابه الثاني، وهو سيرته الذاتية مذ كان طفلًا يلهو في رحاب الكعبة المشرفة حتى وافته المنية على صدر جدتها هاجر، وسمَّاه: «نحو المهد»... سيرة ذاتية بقلم الشاعر أدهم الشوَّاف.

والآن عليها أن تسرع من وتيرة عملها؛ لتنجز كتابه الفكري الأهم: «جذور الفتنة».

تحاول نور أن تحسب ما يلزمها من وقت للانتهاء منه خصوصًا وهي مهددة بالعمى؛ فقدرتها على القراءة تقل يومًا بعد يوم، والصفحة الواحدة بخطوطها الغريبة ونقاطها وهوامشها وعلامات استفهامها وإحالاتها إلى مجموعة من المراجع، تستغرق منها

شهرًا كاملًا، إذا لم تنقطع عن العمل، الذي يكاد يكون تأليفًا وفقًا للمنظور الذي حدده جدها مسبقًا، شهرًا كاملًا دون أن تزعجها أمها بصخب محبتها للحياة وعدم اكتفائها منها رغم اقترابها من الأربعين، ودون أن يزعجها
عبد الجبَّار بمراقبتها ومراقبة رجاله لها طوال الوقت، علها تقوده إلى المقبرة المختفية، وهو يظن بالطبع أنه أذكى منها وأنها لا تعرف أنه يراقبها، والأهم من ذلك كله، دون أن تقتطع من هذا الوقت ساعات؛ لكي تطمئن على جدتها هاجر.

منذ سنواتٍ وعندما اصطادت نور في عين عبد الجبَّار نظرة مرعوبة من هيئتها، اقتربت منه وقالت له، وهي تجزُّ على أسنانها: «هل تعلم أنك أغبى مخلوق شاهدته عيناي على الإطلاق؟» حدق إلى انتفاخ ما تحت عينيها وترهلات ذراعيها، وفتح فاه دون أن يجيبها، فواصلت: «لأن أسهل الطرق للوصول إلى مقبرتك الموعودة يا عبد الجبَّار كان أن تتزوج هاجر صاحبة الأرض نفسها».

في طريقه إلى حجرة ابن ستيتة، ظل عبد الجبَّار يسأل نفسه: «لماذا بالفعل لم يتزوج هاجر؟» لقد اكتشف أنه فعل كل ما فعل في حياته فقط، ليثبت لها أنه الأفضل، كسب الكثير من الأموال بطرق مشروعة وغير مشروعة ليكون أغنى منها، كانت الأموال لا تعنيه، فلقد كان يضعها أمامه على الأرض ليتأملها قليلًا ثم يفرقها على المحتاجين من أهل قريته، قبل أن تستحوذ عليها زوجته هند أم منقار أو أحد أولادها.

لقد اكتشف في هذه الأثناء أنه كلما وزع أمواله على فقراء ميت رهينة، اكتسب نفوذًا أكبر، وعاد ما أعطاه باليمين أضعافًا مضاعفة بالشمال، هل كان يخاف من زوجته وأبنائه إذا ما تزوج هاجر؟ أبدًا، إنهم يختفون من أمام عينيه، إذا ما شموا رائحة غضبه من بعيد.

إنه يتذكر جيدًا اليوم، الذي كادت فيه هاجر تعرض نفسها عليه، وهي تحمل على ذراعيها ابنتها ليلى ابنة العامين، كان يومًا شتائيًّا مشمسًا وكاد قلبه أن يسامحها، لولا أن منظر أبيها لطفي مرجيحة وهو يقذفه بالحجارة، كما يقذف شيطانًا ليبتعد عن عشته، عاد ماثلًا أمام عينيه، وامتلأت أذنيه بصوت ضحكات هاجر العالية، التي ظلت تطارده منذ ذلك اليوم.

لم يحب في حياته كلها إلا هاجر، لم يتمن امرأة سواها، كان يستمع إلى الشعر القديم الذي يتلوه عليه زوجها أدهم الشوَّاف فتدمع عيناه، ويحفظه عن ظهر قلب من المرة الأولى. حائطٌ ما عالٍ وصعب اجتيازه، كان بينه وبينها ولم يستطع تخطيه، يعرف أنها انتظرته أكثر من عشرين عامًا ليطرقَ بابها، قبل أن تستسلم تمامًا وتهمل الاهتمام بملبسها وشكلها وتعود إلى هيئتها الأولى.

عادتْ هاجر ترتدي عباءات سوداء تشبه كثيرًا جلابيبها الفلاحي، التي كانت تجلس بها على الأرض إلى جوار أرجوحة أبيها، واستبدلت بإيشاربها الشيفون حجابًا سميكًا يشبه ما ترتديه كل نسوة القرية، جمعتْ كل فساتينها القصيرة والضيقة الطويلة وبرانيطها والمعاطف الثمينة التي كانت تسخر منها ليلى وفرَّقتها على البنات الفقيرات، وظلت تهرب من ابنتها وحفيدتها، وتجلس

صامتة مثل متسولة أمام أحد الشاليهات التي بنتها ليلى على مكان عُشتها القديمة، وأمامها على الأرض طبقٌ به جبن قريش وحزمة جرجير ورغيف ساخن، أخذته من البنت سلمى الجالسة طوال الوقت أمام الفرن البلدي.

يقفز قلب عبد الجبَّار من بين ضلوعه كلما رآها هكذا، ساهمة وهائمة في ملكوت الله ومستغنية عمَّا وعمَّن حولها، تظن ليلى أن أمها تغيظها بجلبابها هذا لتحرجها أمام الناس، كما كانت سبب إحراجها طوال عمرها بملابسها السبعينية الغريبة، ويظن عبد الجبَّار أنها ربما عادت إلى هاجر البريئة الحبيبة؛ لكي يدق بابها من جديد، ولكن ما يحيره في الفترة الأخيرة أنها كلما التقت عيناها بعينيه تبتسم ابتسامة غريبة، وكأنها تحاول أن تتعرف إلى ملامح وجه ذلك الرجل، وهل رأته من قبل أم لا؟!

******

قبل أن ترفع نور رأسها عن الكمبيوتر، متوقفة عن الكتابة، شمتْ رائحته، وأخذت تسأل نفسها بجنون: «منذ متى وهو يقف خلفها، ولماذا لم تشعر به عندما دخل إلى مخبئها؟ هل هي في طريقها إلى فقدان السمع أيضًا؟» فحَّ في أذنها بما تعرف، بأن ابن ستيتة اختفى منذ أسابيع ولا يعرف أحدٌ في القرية أين ذهب، وكأن الأرض انشقّت وبلعته.

شاركها النظر إلى أوراقها وشاشة الكمبيوتر فأطفأتها، واستدارت إليه لتقول له بهدوء وسخرية، عندما سألها ببلاهة عمَّا تفعل في هذه العشة: «ألعبُ يا عبد الجبَّار، ألعبُ». لم يصدقها بالطبع،

وظن أنها تبحث في هذه الأوراق وهذا الكمبيوتر عن مقبرته المفقودة.

عندما تضطر نور إلى تغيير خططها ينتابها صداع نصفي رهيب، تمنتْ لو ظل عبد الجبَّار حيًّا لشهر آخر أو شهرين، تناولت وهي مغتاظة حبَّة ساماتريبتان، وسحبت خلفها عبد الجبَّار.

توقفت عند بار المطعم المحترق وسحبت خلسة من صندوق تحت رخامته نجا من الكسر زجاجة ويسكي بلاك ليبل، تعرف أن عبد الجبَّار -دون شكٍّ- قد أجهز على قرش حشيش كامل على الأقل على مدار النهار، حتى هذه اللحظة، فقد كان الليل يرخي عباءته ببطء على ميت رهينة. تهته وهو يحمل عنها الزجاجة: «تشربين الويسكي، يا بنت ليلى الشوَّاف!» هزت كتفيها باستنكار: «يا جاهل، أنا لا أشرب، أنت سوف تشرب والباقي سوف نصبه على باب المقبرة، فهذا شرط من شروط فتحها».

سيفعل عبد الجبَّار أي شيء، حتى شرب ما كان يسميه منكرًا ولا يلمسه مرددًا عندما يدعوه أحدهم إليه، بلسان ثقيل وعينين نصف مغمضتين من تأثير الحشيش، لقد قال حبيبي رسول الله ﷺ: «لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها».

الآن يحمل زجاجة الويسكي، ويضمها إلى صدره بحرص خوفًا أن تفلت من يديه فتنكسر على الممشى الحجري، يخيل له أن نور ستتوقف عند المطعم المحترق، حيث أشارت إلى مكان المقبرة،

فيتلفت حوله وينحني على أذنيها ليوشوشها: «ليلى ما زالت جالسة على حافة البِركة»، فترد عليه بصوت خفيض: «عارفة، سنلف من ناحية برج الحمام، سكة أبو زيد كلها مسالك يا عبد الجبَّار».

يسير عبد الجبَّار خلفها بجلبابه الأبيض، يبدوان من بعيد في الظلام مثل علامة استفهام مقلوبة وكبيرة، يباغته خوفٌ قلَّما شعر به، ولكنه يواصل السير خلفها محتضنًا زجاجة الويسكي... هذه الأرض يعرفها شبرًا بشبرٍ، كل طلمبة ماء فيها هو مَن قام بدقها، كل قناية هو مَن قام بشقها، لا يوجد شبر في هذه الأرض، لم يحفره بأظافره بحثًا عن المقبرة، التي استعصت عليه وأذلته، وجعلته يسير صاغرًا خلف تلك المسخوطة لتدله عليها.

فجأة يرقُّ الهواء وتتمايل شواشي الذرة من بعيد، وتنوء سباطات النخل في السماء بأحمالها، وينطلق صوت الكروان، ما أعذب غناءه! يريد أن يقول للمسخوطة نور إنه تعب، ولم يعد يريد هذه المقبرة، بل يريد الجلوس إلى جوار هاجر على حافة الترعة فقط؛ ليشاهد هفهفة طرحتها الشفافة على شعرها وخدها، يريد أن يعود به الزمن إلى الوراء لكي يجلب لها حفنة بذور عباد الشمس ليقزقزاها معًا وهما يشاهدان الغروب في الشتاء.

تخرجه نور من تأملاته وهي تقول بصوت لاهث: «ربنا يوفقنا يا عبد الجبَّار، ونصل إلى مقبرتك قبل طلوع الشمس»، بصعوبة كان يحدد ملامح المسخوطة في الظلام وهي تقول له بصوت مطمئن عالٍ: «لقد وصلنا»... يقف وقدماه متمسمرتان في

الأرض، ويقول لنفسه: «هل تخدعه هذه الحشرة، إنه باب قصر أدهم الشوَّاف الخلفي؟!».

صرخ في وجهها: «درنا طول الليل حول القصر...»، فشبَّتْ على أصابع قدميها وهمستْ: «هذا طريق مختصر، وإذا صرخت ثانية، فانسَ أمر المقبرة يا متخلف»، وضع يده على فمه وسار خلفها صامتًا، ولكن فجأة هاجمته نوبة ضحك دون سبب، ربما بحكم العادة؛ لأن هذه الساعة هي ساعة جلسة الأنس اليومية مع أعيان البلد في منظرة بيته، لا يفهم لماذا يزعج ضحكه تلك المسخوطة؟ تتوقف فجأة، وتقول له بهدوء كأنها أمه: «ارجع إلى بيتك يا عبد الجبَّار».

يكاد يبكي، ويركع تحت قدميها ويقبل أظافرها التي تشبه حوافر الكلب، يضع بوز زجاجة الويسكي المغلقة في فمه ليسده بها فلا يخرج منه صوت، فتبتسم نور مبتلعة شفتيها، يواصل السير خلفها... هنا إسطبل الخيل، ومخازن الغلال والعنابر، التي بنتها ليلى لمشروع مشغل المنسوجات اليدوية، الذي فشل وأغلقته.

تدور نور نصف دورة، مارةً بنوافذ القصر المطفأة أنوارها، ويعود عبد الجبَّار ليتساءل هل ما زالت هاجر مستيقظة؟ هل تفكر فيه كما يفكر فيها الآن؟ وإذا كانت نائمة، هل تحلم به كما يحلم كل ليلة بأنه يعتصرها بين ذراعيه، حتى تخرج من صمتها وتغرد تحته وتئن؟

يصدر الباب الخلفي الحديدي صريرًا يرعب عبد الجبَّار، فينتفض جسده وتطير الزجاجة من فمه إلى يده، يخاف أن يتفوه بشيء

فتطرده بنت ليلى الشوَّاف، يدخلان إلى بهو القصر، تخلع نور صندلها وتشير إليه أن يخلعَ حذاءه ويضعه تحت إبطه، في المكان نفسه الذي كان يضع فيه بُلغته في شبابه، توشوشه:

- «من هنا أقرب، حتى لا ترانا ليلى».

يتبعها، فتدخل حجرة فسيحة في الدور الأول للقصر، هي المرة الأولى التي يدخل فيها غرفة المكتب في قصر الشوَّاف، لقد زاره قبل موته في غرفة نومه، وكثيرًا ما زار هاجر وليلى وجلسا في الصالون، ولكن متى وكيف أحضر أدهم كل هذه الكتب، جدران الحجرة الكبيرة كلها مغطاة بأرفف عليها عشرات بل مئات الكتب الملونة كعوبها، يتأمل بإعجاب كبير وجوه الأسود الخشبية التي زين بها النجار زوايا المكتبة وسقفها، كانت الأسود في وضع الهجوم مكشرة عن أنيابها، يحاول أن يتذكر مَن من نجاري البدرشين، كان بإمكانه صناعة هذه التحفة الخشبية الرائعة.

تواجهه على الحائط ابتسامة أدهم الشوَّاف، تَوهَّم أنه ينظر مباشرة إلى عينيه بسخرية، هل يسخر منه؟ لم تكن صورة، بل كانت لوحة رسمها له أحدهم، جاعلًا أنفه أكثر استقامة وطولًا وعينيه أكثر بريقًا.

أضاءت نور شمعة صغيرة، وجلست أمامه على السجادة ودعته إلى الجلوس، جلس وهو لا يستطيع السيطرة على ضحكه من جديد، أمرته مبتسمة: «اشرب يا عبد الجبَّار، اشرب نصف الزجاجة على مرة واحدة»، يحاول عبد الجبَّار أن يخرج صوته هامسًا: «والمقبرة؟» تساعده في فتح الزجاجة، فيرفعها بيده

المرتعشة، ويشرب عندما يسمعها تهمس: «نحن على باب المقبرة».. يهز رأسه طربًا جرّاء الويسكي ويغمغم بسخرية: «آه، يعني، سينشق عنها الحائط». فتبتسم نور في وجهه مداعبة إياه كأنه طفل صغير: «تمام، سنشق الحائط وندخل إلى المقبرة، تمام، ما كل هذا الذكاء؟!».

تنظر إلى عينيه طويلًا بغيظ، وتسأله ببطء وهي تجز على أسنانها:

- «هل تتذكر كل ما نهبته منها يا عبد الجبَّار؟».

- «هل قمت بتذويب التماثيل الذهبية، التي تجاوز عمرها آلاف السنوات وسبكتها في سبائك ذهبية؟».

- «لماذا تريد الاستيلاء على بقية محتوياتها يا عبد الجبَّار؟».

- «هل تعرف أنك أحط مَن عرفتْ ميت رهينة؟! لقد أضعت الزرع والضرع، واستبدلت بهما قمصان نوم ملونة، خنقتَ زقزقة العصافير وهديل الحمام، وأطلقت في سماء القرية أصواتًا قبيحة لمغنين تطلقها دون توقف أجهزتك الكهربائية وتليفزيوناتك الكئيبة. لقد أضعت الأرض وما فوقها وما تحتها».

آه لو يستطيع حتى أن يتمتم لقال لهذا المسخ إنها أرض أجداده وإنه حفيدهم، وما زال حيًّا فلماذا تضع الحكومة إرثه في المتاحف ليتفرج عليه الغرباء؟ إنه لم يلعب أحدٌ في أصله مثلها، وإنها كاذبة فلقد أخذ ذهب المقبرة وحوله إلى أراضٍ، زرع عليها

ذرة وفولًا وقطنًا وربى على حشائشها بقرًا وجِمالًا وأغنامًا ليطعم الناس ويكسو أبدانهم العارية».

هو يسمعها بوضوح، ولكنه لا يستطيع الرد عليها، لا يستطيع تحريك لسانه، لا يستطيع الحفاظ على رأسه ليظل في مكانه، كلما أعاده إلى مكانه يندفع رأسه إلى الوراء، جرّاء هذا الويسكي اللعين، تغيب ملامح المسخوطة الجالسة أمامه، وتتحول إلى فم مشوه يطلق كلماتٍ غريبة، يراها الآن مثل الجعران بذراعيها الرفيعتين المرعبتين، يسحبه صوتها من تفاصيل حلمه القديم المكرر؛ حيث رأى فيه موته، هل ستكون نهايته على يد هذا المسخ؟

يسمع صوتها كأنه قادم من تحت بئر ماء: «هيا بنا يا عبد الجبَّار، حان الوقت، اترك نصف الزجاجة لنسقي بها باب المقبرة»، عيناه زائغتان، ولكنه حدد بالضبط الكتاب الذي رفعته من المكتبة، وتأمل بإعجاب الأسد المكشر عن أنيابه الذي ظهر خلفه.

ضغطت على ناب الأسد الأيمن الأحمر، فدار ما حسبه جدارًا نصف دورة وانفتح، تُعيد خلفهما الجدار إلى مكانه، فيشم رائحة المقابر، ويستمع إلى أنين مكتوم آتيًا من تحت الأرض، تمسك شمعتها التي كادت أن تذوب وتنبهه ألَّا يتعثر في الدرجات التي أمامه، يهبط خلفها الدرج بصعوبة، يكاد يجر جسده جرًّا، تحدثه الآن بصوت عالٍ: «هذا السرداب سيوصلنا إلى المقبرة».

لا يصدق أن الأمر كان بهذه البساطة، وأنه كان أمام عينيه طوال الوقت، لا يصدق أن عمره ذهب هدرًا في حفر كل شبر في

الأرض، بينما مدخل المقبرة من هنا، من غرفة في القصر نفسه، يلعن أدهم الشوَّاف في سرِّه آلاف المرات، فبالتأكيد هذا انتقام أدهم منه، أوَ ليس هو مَن أمر بتصميم هذه المكتبة بسردابها إلى المقبرة.

يقسم عبد الجبَّار أنه لن يترك ثأره من أدهم حتى لو في جهنم، وأنه سيختصمه أمام الله هناك. هنا الهواء قليل ويكاد يختنق، ما زالا يسيران في سرداب طويل يحاول أن يخمن اتجاهات التواءاته الحادة من وقت إلى آخر، ليعرف في أية بقعة تحديدًا سيخرجان، وهل سيخرجان؟!

فجأة يرى باب المقبرة التي أغلقها بيديه بالصخور والهيش آنذاك، ولكن جسده خانه وسقط على ظهره قبل أن يصل إليها، حاولت نور أن تجعله يسير بضعة خطوات أخرى، الآن فقط ارتفع صوتها وظلت تصرخ بصوت عال: «لا. لا تسقط الآن هنا». زحف بظهره لكي يرضيها فتكف عن الصراخ، خيل إليه أنه رأى منذ لحظات رجلًا سمينًا نائمًا وهو جالس على كرسي هناك، وكاد يتعثر بكرسي ضخم ذي عجلات متحركة.

يعرف جيدًا أن الحشيش يجعله يدرك ما يحدث بعد حدوثه بلحظات، ويجعله بطيئًا في فهم ما تراه عيناه، وها هو الآن يرى رسومات المقبرة من بعيد، أربعين عامًا كاملة لم يستطع رؤيتها، أربعين عامًا بكل ما مر عليه فيها من زواج ومحبة وفقد وعيال ومؤامرات ومعارك صغيرة وكبيرة وضحك كالبكاء، وحزن ممتع، وجري في أزقة ميت رهينة.

الآن يرى نفسه شابًّا تتفصد القوة من عضلاته، يسير وخلفه العشرات من أهل قريته، وهم يهتفون بأصوات عالية ترجُّ بيوت ميت رهينة: «يا محني ديل العصفور. وكبيرنا هو المنصور»، كان ذلك عندما أراد تأديب حماه لمدة يومين، فقرر أن يخوض الانتخابات ليدخل مجلس النواب، لأن حماه أثناء مشاجرة عابرة نعته بأنه دون أصل أو فصل.

ولما رأى النائب محمد القاضي سطوة زوج ابنته ونفوذه، توسل إليه أن يترك الأمر، فتركه عبد الجبَّار وهو يبتسم في وجهه بسخرية. الآن يرى نفسه وقد انتفخ جلبابه بالهواء فصار مثل بالونة بيضاء ضخمة، كان يطير على عجلته النارية وخلفه تطير سحابات دخان محركه، كما لو كان طائرًا أسطوريًّا، لم يبدل بعجلته النارية سيارة أبدًا، وهل كان يمكنه أن يستبدل بهذه المتعة شيئًا؟!

كان يشتري لأولاده سيارات فاخرة آخر موديل، ويبقى هو على عجلته النارية، يقول للشيخ برهامي ساخرًا: «يا شيخ النصابين، أنت لا تفهم شيئًا، ثمن الموتور الذي اشتريته اليوم أغلى من أحدث سيارة، ولكنني لا أستطيع الاحتماء من الطريق خلف حديد وصفيح وزجاج، أريد أن أركب الطريق وأواجهه وجهًا لوجه، أريد أن أركب شيئًا يشبه الحصان، والموتوسيكل يحقق لي هذه الرغبة».

هل تكلمت المسخوطة؟ لا. لم تتكلم، ولكنه يستمع إلى ما يشبه الصلوات من هذه الرسوم... تغيب عيناه في سقف المقبرة الأسود الغامق المائل إلى الزرقة، الذي يراه من بعيد، والذي ما زال

يتذكره جيدًا، وتأخذه النجوم الصفراء الذهبية التي تزين السقف إلى أوَّل نفق أبيض، نفق كأنه من نور خالص لا متناهٍ، يشعر أن أحشاءه وكل أعضائه تنصهر وتتحول إلى سائل ساخن يواصل بخاره الصعود إلى حلقه.

يريد فقط أن يحرك عنقه حتى لا يختنق بقيئه، يريد أن يتحرك حركة بسيطة كان يقوم بها، حتى وهو في عزِّ نومه عندما يسعل، هو سنتيمتر واحد إذا أمكنه نقل رقبته إليه سينقذ حياته.

عندما يجلس فوق صدره هذا المسخ، هذا الجعران، يبتسم له ولا يستطيع الحركة، الجعران الأسود الكبير يلقي بظله الهائل على جدار السرداب، يرى قطرة كبيرة منصهرة من الشمعة تأخذ طريقها إلى صدره، ولكنه لا يشعر بسخونتها، تتحرك أرجل الجعران التي تتزايد الآن لتسد كل فتحات جسده... يبدو أن المسخوطة تتكلم، وهي جاثمة على صدره، ولكنه لم يعد يسمع شيئًا، يظل مبتسمًا حتى تنقبض ملامحه فجأة، ويتوهم أنه استمع إلى جملة أخيرة من داخله هو وبصوته هو نفسه:

«هأنت تموت يا عبد الجبَّار مختنقًا بقيئك، دون أن تملك حتى أن تحرك إصبعًا».

******

شَرَكٌ ينادي فرائسه

إذا كان الداخل إلى ميت رهينة قادمًا من موقف البدرشين، سيرى الناس محنية الرأس، وأنظارها مصوبة إلى الأرض، يتوقف فجأة ليتابع كيف اصطدم أحد التكاتك بالآخر متعمدًا، فانقلب مثل سلحفاة على ظهره، يخلص الناس السائق الصبي من التُّكتك المقلوب، يرشون على وجهه الماء، فينتفض هاجمًا على السائق الصبي الآخر في التُّكتك الذي قلبه بالضرب والشتيمة، يفرق المارة بينهما حتى يأخذ كل واحد فيهما تُكتكه، ويمضي في طريقه.

يمضي جميع الناس سائرين ببطء وتثاقل، يكاد الغريب يزن ويلمس حجم الحزن الذي تنوء به أكتافهم، حزنٌ يجعل أعينهم معلقة بأعين بعضهم ببعض دون أن يستطيعوا تحويلها، كأن نظراتهم شِفرة استغاثة جديدة، حزنٌ لا يخرجهم منه إلا تصايحهم وتقاتلهم بسبب أو غالبًا دون سبب... أن يغش بائعو الفاكهة في الميزان... أن يُحمِّل التُّكتك الناس قبل أن يحين دوره... أن يلمس أحد الرجال ثدي امرأة ناهدًا بقصد أو دون قصد في الزحام... أن يسب أحد عُمال محلات الموبيليا أحد العابرين متهمًا أمه بأنها أنجبته من عشرة رجال، لأنه فقط سار على الجزء الذي كنسه ورشَّ عليه الماء منذ قليل.

في الصباح الباكر، استيقظت القرية على صراخ قادم من بيت عبد الجبَّار. كان ابنه الأكبر عبد الموجود قد وزع أمس لحم الجِمال على فقراء ميت رهينة، وتهامس الناس فيما بينهم أن هذا

اللحم الكثير هو بالتأكيد لحم كل الجِمال، التي يمتلكها عبد الجبَّار، فلقد كان لديه مربض للجِمال في حظيرة المواشي، يحوي أكثر من عشرين جملًا، وكان يوليها عناية خاصة جدًّا، حتى أنه عيَّن لباب مربضها حارسًا خصوصيًّا.

قالوا إن ابنه الأكبر بالتأكيد ابن حرام وإلَّا كيف يحتفل باختفاء أبيه بتوزيع لحم الجمال، التي كان يحبها ويهتم بها أكثر من عياله؟!

لا يعرف أحدٌ منذ أسبوع أين ذهب عبد الجبَّار بجلبابه الأبيض وحذائه القماش البُني، اللذين لا يخرج بهما من ميت رهينة أبدًا، أشاعوا أنه هرب من زوجته هند أم منقار ليتزوج بفتاة صغيرة، ويردون على تخمينهم بسؤال: وهل كان عبد الجبَّار يخاف أن يتزوج فتاة صغيرة، بل يجلبها إلى بيت زوجته وأولاده لتعيش معهم؟!

قالوا ربما يكون ابنه الأكبر هو قاتله، وطبخ الأهالي فتة بالثوم على لحم الجِمال، وأكلوا وتسامروا أمام التليفزيونات حتى منتصف الليل وهم يقلبون أمر اختفاء عبد الجبَّار فيما بينهم، حتى استيقظوا على الصراخ صباحًا وعرفوا أن ابن عبد الجبَّار الأصغر قتل أخاه الأكبر ذابح الجِمال وموزعها عليهم.

وحدها ليلى الشوَّاف لم تصدق أية كلمة ممَّا يردده أهل القرية عن حكاية هرب عبد الجبَّار هذه، أو حكاية قتله على يد ابنه الأكبر عبدالموجود، ولكنها عندما نظرت إلى عيني أمها الساهمتين

واللامعتين بدمعة متحجرة أيقنتْ أن عبد الجبَّار قُتل ودُفن وشبع موتًا في قبره ولن يعود أبدًا.

ثقلتْ خطوات هاجر، كأنها كبرت عشرات السنين بين ليلة وضحاها، كانت منذ أسبوع متماسكة، وهي تخطو بهدوء نحو الستين من عمرها، وتحسدها نسوة القرية لأنها تبدو في الخامسة والأربعين، يمصمصن شفاههن هامسات: «لا عيال هدتْ حيلها، ولا رجال نشفتْ ريقها».

سألت ليلى بطريقة لا تثير الشُّبهات عن ابن ستيتة، فقالت لها سلمى وهي ملتاعة: «آه صحيح. ابن ستيتة اختفى... كأنه فص ملح وذاب». سألتها أن تسأل عنه الخالة رحمة ثم تأتي بها. وجلست لتعيد قراءة رسالة نور الجديدة:

«ما الذي يغري الغرباء في ميت رهينة يا دكتور؟ حقيقة، أكثر ما يحيرني هو تكالب الغرباء على هذه البقعة من الأرض، يأتون إليها هاربين من ظلم إخوتهم أو غزاة أو حتى عاشقين؛ فتكرمهم وتأويهم، ولكنهم لا يتركونها إلا وهي مجروحة ومغتصبة ومنهكة القوى، ما الذي يغريهم فيها منذ أهدت تاريخهم فجره؟!

ما الذي يجعلهم يعطلونها عن الوقوف على إرثها الذهبي الأسطوري برأس مرفوع، لكي تمسح التراب عن آثار مجدها، وتعيد تقديمه إلى العالم من جديد؟! تقريبًا لم توجد جنسيةٌ في الأرض إلا وطمعت في الاستحواذ على بريق مقابرها.

أنا لا أريدك أن تهز رأسك هكذا كما تهز بطة سمينة رأسها وهي تمشي على حافة ترعة المريوطية، فقط أريدك أن تفكر معي في الأمر قليلًا: ألا يزعجك حقًّا أن البشر يعيدون الصعود إلى سلم تحضرهم مرة بعد أخرى؟! مثلًا لقد وصل الفراعين إلى ذروة هذا السلم، فلماذا قضت على آثار خطواتهم شعوبٌ أخرى، ليبدأوا صعود الدَرَج من أوله ثانية؟!

أخشى يا دكتور نور الدين أن يكون هذا هو جوهر الحياة الأوحد، شيء شبيه بلعبة المكعبات، لا نبني أثرًا إلا لنهدمه، ونسارع ببنيانه من جديد، ربما أصل إلى إجابة قبل أن تنتهي رحلتي، ولسوف أطلعك عليها إذا ما استطعت معي صبرًا».

وضعت رحمة طبقها الخوص على الأرض، ورمت شالها القطيفة الأسود بشراشيبه اللامعة الذي لم تعد تلبسه نساء القرية منذ سنوات، أراحت مؤخرتها السمينة على حشية، فهذه هي جلستها المفضلة، ورفعت حاجبيها الرفيعين المضحكين المرسومين بقلم فحم أسود.

جاهدت رحمة لتفتح عينيها اللتين كانتا مجرد خطين صغيرين تحتهما، وأخبرت ليلى بأن عبد الجبَّار سأل عن ابن ستيتة أيضًا منذ أيام، وأنها حين دخلت إلى حجرة ابن ستيتة القذرة، وجدتْ رائحته النتنة في جلبابه المعلق على مسمار خلف الباب، كان لا يبدل هذا الجلباب أبدًا وهو جالس أمام موقد الفحم والبخور، ظنًّا منه أن رائحة المسك التي يغرق بها نفسه ستتغلب على رائحة إفرازات جسده.

رائحة المسك والبخور لم تستطع كذلك التغلب على رائحة الغرفة الخانقة التي كانت مزيجًا من عرق نسائي، ورائحة مَنيٍّ مجفف على الأرض، ورائحة غريبة ناتجة عن سخونة ارتطام أعضاء حميمية، لبان دكر، قطرات بول، دماء طيور تجلطت واسودت...

كانت رحمة تكره ابن ستيتة وتعتبر وجوده في الحياة هو سبب قطع رزقها، فهو يمتهن مهنتها نفسها التي ورثت أصولها عن حماتها تبارك، وهي أمهر منه في كل شيء ابتداء من قراءة الفنجان وخطوط الكفِّ حتى سلب عقل أحد الرجال من رأسه ووضعه في مياه المحيط البعيدة.

في النهاية، تعرف منها ليلى ما تريد أن تعرفه: اختفى ابن ستيتة منذ شهرين فجأة، ولا يوجد له أي أثر في ميت رهينة، ونبش جيرانه غرفته القذرة، لعلهم يجدون النقود أو الحلي الذهبية، التي كان يأخذها من نسوتهم ولكنهم لم يجدوا شيئًا.

ترتعش يد ليلى وهي تبحث في الأوراق التي تطبعها وتجمعها من كمبيوتر ابنتها، تتذكر يوم دخلت عليها منذ عام، وهي تتحدث مع صلاح في غرفة المكتب، ولا تدري لماذا ارتعدت ووقف شعر رأسها والشعر الذي على ساقيها وذراعيها، عندما ضحك صلاح، وهو يسألها: «ماذا يا نور، هل تكتبين رواية مثلًا؟!»، فوضعت نور ورقة كانت تقرؤها عليه جانبًا، وقالت له وهي تنظر، دون أن يطرف لها رمش في عيني أمها: «أنا لا أكتب الروايات، أنا أخلق الروايات، أنا أفعلها». تهز ليلى رأسها دون توقف وتكلم نفسها كأنها جُنت: «ماذا يعني كل ذلك، ماذا يعني، ماذا يعني، هه؟» تقرأ آخر رسالة طبعتها من رسائل نور:

«بالتأكيد أنتَ الآن بتَّ تخمن أن كل مَن أحكي لكَ سيرتهم هم قائمة ضحاياي، هم الذين قتلتهم بدم بارد الواحد تلو الآخر، أو سأقتلهم مستقبلًا. وهأنت تستشعر يا دكتور أنني منصفة وأنا أأتيك بأخبارهم، فلست في حاجة إلى تزوير سيرتهم؛ لإثبات أنهم شياطين أو أشرار، ومن ثمّ أجبروني على قتلهم، لا يا دكتور، لقد تطور الشر كثيرًا حتى تكاد تراه في أجساد ملائكية.

على كل حال، أنا أعرف أنك لا تفقه شيئًا ممَّا أقول، فأنت عشت طوال عمرك بعيدًا، تحت حكم القانون وليس حكم الضمائر، نحن هنا يحكمنا الضمير، لم نعترف بعدُ بحكم بضعة كلمات منمقة في مواد وبنود وفصول وأحكام، الناس في بلادي يتحايلون على مثل هذه الأشياء ويستخفون بها ويعودون مرة أخرى إلى الأحكام التي تُمليها عليهم ضمائرهم، وهم متمسكون بها، سواء كانت هذه الضمائر نقية أو ملوثة بالسواد، فأنَّى لك أن تفهم ذلك وأنت بعيد عن ميت رهينة؟!

كنت أكبر بسرعة. ليست روحي التي وُلدتْ كبيرة بالطبع، وإنما كان جسدي يكبر ويشيخ بسرعة أمام عيني، وتكبر معه قدرتي غير الطبيعية على فرز الأرواح الشريرة من الأرواح النورانية.

كنت لا أرى الناس بشكل واضح، حتى أن أمي ليلى أخذتني إلى طبيب عيون وأنا في الرابعة من عمري ومن يومها وأنا أضع هذه النظارة ذات الزجاج السميك، ولكن عوضًا عن فقدان بصري الذي كان يضعف يومًا بعد يوم كانت بصيرتي تزداد حدَّة، فكنت أرى حول الناس ظلالًا بيضاء أو ظلالًا سوداء، وكنت أضيق ذرعًا بالأجساد التي يحيطها السواد ويتلبسها إبليس

بشكل واضح ومبالغ فيه، فأرسلها إلى الجحيم متى استطعت إلى ذلك سبيلًا، قد أستمتع بمراقبتها عامًا بعد عام أولًا، ولكنني في النهاية كان يؤرقني جدًّا وجودها في الحياة، وسترى بنفسك بعد قليل كيف أنني صبرت عليهم جميعًا.

لعلَّك تسأل نفسك الآن: وماذا عني أنا نفسي، كروح شريرة اتفق الجميع على كونها شيطانة؟ وأقول لك: سترى أنني ضمن هذه القائمة أيضًا، ولكنك لا تستطيع معي صبرًا».

******

ليلى شبه متأكدة الآن أن عبد الجبَّار لحق بابن ستيتة إلى مكان مجهول ما أو حتى قبر ما.

فتحت ليلى باب المكتب دون أن تطرق الباب كعادتها، الآن لا تخاف من صراخ نور، فلتصرخ كما تشاء. تتأمل نور شعر أمها المشوش، والسواد تحت عينيها فتبتسم ابتسامة غامضة في وجهها، وتهددها مباشرة كأنها تعرف كل كلمة ستتفوه بها أمها قبل أن تنطقها: «دورك قادم يا ليلى دون شك، أنا لو مكانك لسارعت بالهرب إلى أمريكا التي تعشقينها فورًا»، إنها هي إذًا، ولكن كيف استطاعت وحدها قتل وإخفاء اثنين بجسدها هذا الهزيل القزم المريض؟ لقد نصحها الطبيب منذ عام أن تشتري لها كرسيًّا متحركًا، واشترته، ولكن نور ظلت تصرخ في وجهها لمدة يومين متهمة إياها بأنها تريد وأدها حية ودفنها في هذه العجلات المتحركة اللعينة، فأخفته بعيدًا عن عينيها في مخزن الغلال.

تتمتم ليلى وهي غارقة في تساؤلاتها: «هل قتلتِ الاثنين فعلًا، وأين أخفيتِ جثتيهما؟» تصرخ نور في وجهها وهي تقترب من أذنها أكثر مجيبة عن سؤالها بسؤال: «هل تسألينني أنا عن صديقك ناهب الآثار، وعن المسخ المشعوذ الكريه؟» ويعلو صراخها حتى يرتعد جسدها كله: «هل تلعبين معي الآن دور الضابط الجنائي يا ليلى، وأنا أريد إنقاذك؟»، ثم تهمس بصوت تحاول أن تجعله حنونًا: «ارحلي اليوم إذا استطعت يا ليلى، اتركي هذا البيت الملعون، وارحلي».

لم تقل لها ليلى مَن الاثنان اللذان تسألها عنهما، ولكنها أقرت واعترفت بما اقترفت، ولكن كيف؟ تكاد ليلى تُجن، وتحاول أن تسيطر على الحروف، وهي تسألها بصوت مرتعد: «هل تطرديننني من بيتي؟» تعود نور إلى الصراخ وبنبرة جافة وإصبع معترض معقوف مرفوع: «إنه بيت هاجر، وليس بيتك»، ثم أضافت بهدوء وبصوت حاولت أن يكون رقيقًا: «مع الأسف يا ليلى، لن أستطيع حمايتك إذا ظللتِ هنا، إذا ظللتِ هنا، سيرجمونك بالحجارة بتهمة الزنا، وسيصلبون مايكل سمير على إحدى النخيل العالي، صدقيني ليس أمامك حلٌ آخر لمشكلتك إلا الرحيل عن ميت رهينة»، وابتلعت ريقها وعدَّلت من وضع نظارتها على أنفها الغريب الشكل، وثبتتْ عينيها المدورتين الضيقتين إلى وجه أمها: «ارحلي عن ميت رهينة قبل أن تُقطعي إلى قطع صغيرة يا ليلى، فرائحتكما فاحت في القرية كلها».

منذ شهرين تقريبًا لم يزر مايكل سمير الواحة، فلقد توقفت الوفود السياحية عن زيارة مصر منذ قيام الثورة، ولذلك لم تجد ما يشجعها لترميم الواحة بعد هجوم ذوي اللِّحي عليها، وبالتالي

توقف مايكل عن مصاحبة الوفود وعن العمل بشكل عام وأصبح عاطلًا، ولم يعد يجد مبررًا لزيارتها.

آخر مرة رأته وهو يتابع معها آثار الاعتداء على الواحة، وما نجم عنه من خسائر، قال لها بصوت منكسر خفيض: إن أخاه الأصغر سافر منذ أيام مهاجرًا إلى كندا، تُرى هل لحق به؟

الغريب أنها نسيت مايكل سمير تمامًا، نسيت حتى أن تسأل عنه، لم تحاول الاتصال به ولو مرة واحدة هاتفيًّا، ولم تتساءل لماذا لم يعد يطاردها بتليفوناته، هل يكون مايكل سمير ضمن القائمة السوداء التي تكتب عنها ابنتها؟ هل يكون مايكل قد اختفى إلى الأبد؟ تصحو من تساؤلاتها على صوت طرق على باب المكتب، إنه صوت طرقة صلاح المهذبة شبه الموقعة بثلاث نقرات.

تجولت نظراته بين وجهيهما، وجه ليلى المحمر الباكي المنكسر، ووجه نور المغتاظ، قال: «صباح الخير»، كانت تحيته بطيئة حائرة وممطوطة. قطعت عليه نور حيرته: «ليلى الشوَّاف ستسافر خلال أيام إلى أمريكا يا صلاح». سأل بعد فترة صمت بصوت قلق: «وأنتِ معها؟» فأجابته بصوت حاولت أن يكون مرِحًا: «سأبقى مع جدتي هاجر، حتى تدفنني أنت هنا، أنا على كل حال بيني وبين القبر الرخامي الذي بناه جدي بضعة أيام»، يتمتم صلاح بصوت خفيض: «وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت»، «ربما سبقناكِ كلنا يا نور إلى هناك، فمَن يعرف موعد أجله؟».

تهرع ليلى إلى هاجر، منذ زمن طويل لم تجرب إلقاء رأسها على صدر أمها، أصبحت هاجر الآن غائبة عمَّا وعمَّن حولها، كأنها تعوم في غلالة شفافة غير مرئية، ولكنها احتضنت رأس ابنتها بقوة، وابتسمت لها ببلاهة حتى غار طابع الحسن في ذقنها أكثر، وتمتمت: «آه يا بنتي، آه يا ظالمة نفسك!». ترتعد ليلى وتبتعد عن حضن هاجر، ويطاردها هاجس مرعب لا تستطيع احتماله: «هل تكون هاجر هي مَن تساعد نور في ارتكاب جرائمها؟».

******

تهامس الأهالي فيما بينهم عن الاختفاءات الغريبة لبعض ناس ميت رهينة، وأصبحوا فجأة يتابعون الجرائد اليومية، لعلهم يجدون بها ما يحدث في قريتهم. قرروا ألَّا يخرجوا ليلًا أبدًا لأي سبب من الأسباب، وأن يرسل شبابهم المتعلمون إلى مواقع التواصل الاجتماعي استغاثات، حول حوادث الاختفاء التي يرونها غرائبية في ميت رهينة حتى تتحرك الحكومة ولا تكتفي بتحقيقات القسم الجنائي في مركز الشرطة. قرروا أن يمنعوا أولادهم من اللعب في ساحات القرية وأزقتها، وألَّا يسيروا فرادى، بل في جماعات حتى يروا بأعينهم كيفية اختفاء أحدهم هكذا، دون أن يترك خلفه أثرًا يدل على مكانه، سواء كان حيًّا أم ميتًا.

منذ أيام، كتب أحد الصحفيين تحقيقًا عن وجود حفرة غير مرئية تبتلع أهالي ميت رهينة، تمامًا مثلما حدث في الإسكندرية منذ سنوات حين كانت تبتلع الأرض وبشكل غامض عروسًا حديثة الزواج تسير إلى جوار عريسها... طفلة صغيرة تسير إلى جوار

أبيها ويدها في يده... صيادًا عائدًا مع شروق الشمس إلى بيته وفي يده سلة بها سمك ما زال حيًّا، يبحلق إلى وجوه المارة الذين التفوا حوله باحثين عن الرجل... حصانًا مريضًا ترك دماءه على ذراعي العربة الكارو الخشبية، وكان يُسمع صهيله وهو يخفت تدريجيًّا، قبل أن يتوارى تمامًا مع جثته تحت الأرض. متسولًا عجوزًا وجدوا في غرفته أثناء التحقيق في واقعة اختفائه ما يقارب المليون جنيه مدفونة تحت البلاط، وقد صادرتها الدولة.

أشار الصحفي إلى أنه سيواصل متابعته لحوادث الاختفاء في ميت رهينة، كما تابع أساتذته حوادث الاختفاء التي وقعت في الإسكندرية منذ سنوات. ألقى الأهالي الجرائد بغيظ على الأرض، حين عرفوا أن الصحفي كتب فقط ما يردده الصبية الصغار، وهم واقفون في حلقات على حافة ترعة المريوطية؛ ليجربوا في الخفاء تدخين سيجارة حشيش أو شرب علبة بيرة مثلجة أو التفرج على سيقان امرأة ذهبت لتلقي زبالتها في الترعة.

حُبس عبد الجليل ابن عبد الجبَّار الأصغر، أربعة عشر يومًا أخرى على ذمة التحقيق، اعترف أثناءها أنه بالطبع قتل أخاه الأكبر
عبد الموجود ذابح الجِمال.

كان عبد الجبَّار وكأنه دفن صندوق شرور العالم في بطن جِماله. فلقد طارت نتيجة تحقيقات الشرطة فوق رؤوس الأهالي، مثل سُحب سوداء لونت شكل أيامهم، وكانوا يتحدثون إلى أنفسهم في طرقات القرية المتربة، مرددين أن الشيطان نفسه لا يستطيع أن يفكر مثل

عبد الجبَّار الله يرحمه، ها هم يعرفون أخيرًا سرَّ اهتمامه بجِماله، فلقد كان يستخدمها كمخزن للحشيش، إبليس نفسه لا يستطيع تخمين مكان هذا المخزن، كان يلف المخدرات بورق ألومنيوم ثم يضعه في أكياس بلاستيكية ويجعل الجِمال تبتلعه لتظل عائمة في كرشها وسط أربعة لترات من الماء، حتى يحين وقت بيعها بالثمن الذي يريده، فيسارع بذبح الجَمل المقصود.

ارتدت نور جلبابها الممزق وشالًا تتلفع به للخروج، حتى يصعب التعرف إليها، ذهبت إلى القسم لكي ترى من بعيد الضابط الذي يحقق في جريمة بيت عبد الجبَّار أيوب كما أسموها في القرية. حكى لها صلاح أنه ملازم شاب خفيف الدم، رفع رأسه وهو جالس في منظرة بيت عبد الجبَّار، وانقطع عن كتابة ملاحظاته فجأة سائلًا هند القاضي: «يعني، كل أبنائكم من الذكور عبيد، عبد الموجود
وعبد الرحيم وعبد الجليل، وأبوهم عبد الجبَّار، والله أنتم تصعبون الأمر عليَّ».

ظلت نور جالسة تتسول على باب القسم، وهي تخفي وجهها بشالها، تأملته حال دخوله، عندما أشار إليه العسكري الرابض في الجهة المقابلة أمامها على الباب، قال هامسًا: «الباشا، الباشا محمد أبو العينين، امشي من هنا يا حاجة».

كادت تضحك بصوت عالٍ، وهي تستدير لتعود إلى بيتها متسللة كعادتها من نافذة غرفة المكتب حيث تركتها مفتوحة. طوال الطريق، وهي تبتسم وتسأل نفسها: «شارب مثل هذا الشارب في الألفية الثالثة، في القرن الواحد والعشرين!»، كان شارب الضابط

كثّا حالك السواد، مصفرًّا عند المنتصف، من أثر التدخين، أما طرفيه فلقد كانا مرفوعين إلى أعلى كعلامتي استفهام مقلوبتين.

تقول نور لنفسها ضاحكة: «مَن يحرص على تربية هذا الشارب بعلامتي استفهامه المقلوبتين، سيحرص على غلق كل القضايا فورًا، حتى ولو قيدها ضد مجهول».

******

لم تتوقف جملة «المقبرة الرخامية» التي قالتها نور عن تكرار نفسها في عقل ليلى، قالت لنفسها: «ولمَ لا؟ ربما تدفن نور مَن تقتلهم في المقبرة الرخامية التي بناها أبوها ولم يُدفن بها». إنها لم تمر على هذه المقبرة المهملة منذ سنوات، تعرف فقط أن أباها أراد بشدة أن يظل في هذه الأرض وأن يُدفن بها، ولكن أهالي ميت رهينة وإدارة الحكم المحلي رفضوا الاعتراف بها كمقبرة، منددين بهذا الغريب الذي يريد أن يُدفن بمفرده في أرضهم، كما لو كان وليًّا من الأولياء، ومعلنين عن خوفهم من أن تتحول المقبرة إلى مزار ديني بعد سنوات من ترديد بضع شائعات عن كراماته.

أمرت ليلى الخفير الأخرس أن يبحث في أرضها عن تُكتك بحالة جيدة ومملوء بالبنزين، ليسوقه حتى المقبرة الرخامية، عبرت الأرض الزراعية غير المستوية، ومع اهتزازات التُّكتك الصغير الخفيف الوزن، ظلت تتأمل أشجار الجميز والبرتقال وعراجين البلح العالية وهي تزين السماء، رائحة أشجار الليمون تملأ

خياشيمها، وصوت موتور التُكتك يجرح السكون المكتمل الذي من الممكن لمسه بسهولة.

هل هي تنتمي فعلًا إلى هذا المكان؟ إن كل محاولاتها ومشاريعها هنا كانت لتغيير شكل هذه القرية، هل أحبت ميت رهينة، أم أنها استغلتها فقط للمتاجرة بوجهها البريء وبيعه إلى طالبي الفرجة من السائحين، كما تتهمها ابنتها دائمًا؟

وقفت ليلى تتأمل المقبرة طويلًا قبل أن تأمر الخفير بتحطيم أقفالها، بالفعل كان المبنى «نشاز» وكأنه نتوء غريب عن الأرض الخضراء من حوله، بُني من الرخام الأبيض المطعم بفسيفساء عبارة عن مثلثات رخامية خضراء صغيرة، وبوابة ونوافذ ذات أقواس نصف دائرية مثل التي في جامع الشوَّاف في مدخل القرية ولكنها أصغر، أما سقفه المرتفع فلقد تم تحديده بمآذن رباعية وأهلة وقباب وتيجان نباتات اللوتس، وكتب أعلاه في المنتصف: «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي».

كان الشاهد في مكانه، وبعد أن أزاحت ليلى التراب وأعشاش النمل بين الحروف، استطاعت أن تقرأ الجملة التي نقشها خطاط القرية، بعد إعلان وفاته بثلاث ساعات: «الشاعر أدهم الشوَّاف (1925- 1977)»، أشارت إلى الخفير أن يحضر أدواته، ودخلا إلى الحوش، يبدو أنه كان مزروعًا بالنجيل الذي جف منذ زمن والتصق بالأرض، وكان يصدر خشخشة غريبة عند المشي عليه.

كل شيء هنا يعلن أن هذا المكان لم يُفتح منذ رحل أبوها عن ميت رهينة إلى الأبد، الغربان تحلق في قطعة السماء المفتوحة على فضاء المقبرة، ولا يوجد هنا أي أثر لدخول حتى قطة تائهة، كانت تتأمل قطرات العرق وهي تتكاثف على جبين الخفير وهو ينبش المقبرة، ويلوي شفتيه وهو يزوم بما يعني أنه لم يجد شيئًا.

هل كل الذي عليها فعله الآن هو الرضوخ إلى رغبة ابنتها بالمسارعة بالرحيل من هنا؟ هي تعرف أن نور قادرة على فعل أي شيء، فهل تسارع هي إلى قتلها أولًا لتريح العالم من هذه الروح الإبليسية التي أنجبتها؟ ولكن مَن يدريها أنها لن يُحكم عليها هي نفسها بالإعدام بعد ذلك علاوة، على فضح علاقتها بمايكل سمير التي بدأت بالفعل تراها في أعين المحيطين بها؟ هل تسلم ابنتها للبوليس بيدها؟ وماذا يدريها أن نور لن تقول كل شيء عن علاقتها بمايكل هناك؟ بل قد يسخرون من ليلى خصوصًا؛ إذا أثبتوا أن ابنتها تكتب مجرد تهديدات طفولية من فرط غيظها ممَّن ذكرت أسماءهم فيما يشبه الرسائل؟

إن ليلى حتى لا تعرف هل أرسلت نور هذه الرسائل إلى الدكتور نور الدين عبر الإيميل، أم أنها كتبتها لتصل إلى يد أمها فقط لا غير حتى تنغص عليها أيامها؟ عادت ليلى مع أذان الظهر بعد أن وضعت قفلًا جديدًا على بوابة المقبرة الحديدية، وظلت طوال الطريق تمص ظفر الإبهام الطويل، الذي كُسر من المنتصف وأخذ يؤلمها، كانت تتمنى أن تصل بسرعة حتى تستطيع البكاء بحرية.

******

ينتظر ابن عبد الجبَّار الأصغر عبد الجليل، إحالة أوراقه إلى فضيلة المفتي ليُعدم شنقًا، وستُغلق القضية باطمئنان النيابة إلى اعترافه ضمن أقواله بأن أخاه الأكبر عبد الموجود قتل أباه، لأنه كان هو الوحيد الذي يعرف مخزن المخدرات، وقد ذبح الجِمال كلها للاستحواذ وحده على ما في كروشها، وأنه اضطر إلى قتله حتى يخبره بالمكان الذي خبأ فيه جثة أبيه، حتى يكرم جثته بالدفن ولا يتركه هكذا مجهول القبر كالكلاب.

تتابع نور دموع أمها التي تهطل بصمت وهي تجوب أركان البيت، كأنها تبحث عن شيء ما، تشعر أنها رضخت أخيرًا إلى الحل الأمثل بالرحيل عن ميت رهينة؛ لأن عينيها الجميلتين الواسعتين العسليتين سارحتان، تجوبان المكان ببطء كما لو كانت تودعه.

لم يعد لدى صلاح وقت ليقضيه مع نور، منذ فاجعة بيت عبدالجبَّار، فهو يلازم عبدالرحيم ليلًا ونهارًا لتعزيته في مصيبته، عبدالرحيم بن عبد الجبَّار الأوسط والوحيد من أولاده الذكور الذي بقي على قيد الحياة ليدير كل شيء، أكد لها صلاح أن عبد الرحيم هذا هو أحن أولاد عبد الجبَّار، وأنه مختلف عن هذه العائلة تمامًا.

كان يعلمه وجعله يحصل على شهادة «الثانوية العامة منازل»، وهو في الأربعين من عمره، بدأ عبد الرحيم في قراءة الكتب وكلما تقدم في المعرفة كره أسرته وجشع أبيه وإخوته، عبد الرحيم مثله مثل ليلى الشوَّاف لا يظن أن أخاه الأكبر عبد الموجود قتل أباه، فلقد كان هو أقرب الإخوة إليه والأكثر شبهًا

وتشبهًا به، كما أنه كان مخزن أسراره وساعده الأيمن تقريبًا في إدارة ممتلكاته الشاسعة.

لا تجد نور ما تفعله، فلقد انتهت من مخطوط جدها، وتخلصت من ثقل شعورها باللاجدوى، وهي تعيد كتابة مخطوطه الثالث على الكمبيوتر، فلقد كان ممتلئًا بالدماء والصراع على حفنة أقاويل منقولة، عبر آلاف السنين لرجال دين ماتوا وشبعوا موتًا، وتحولت عظامهم إلى رماد تحت قبورهم.

فكرتْ أن تحرق هذا المخطوط بالذات، فجرح هذه الفتنة عميق وسيظل نازفًا إلى الأبد حتى ينتهي من قلوب المسلمين أنفسهم، فطالما الأسباب موجودة ومن أهمها إسباغ القدسية على ما ليس مقدسًا، فستظل النتائج تُعيد ولادة نفسها إلى ما لا نهاية، ماذا لو دفعت بديوانه هذا المضحك إلى النشر، وأيضًا بمخطوط سيرته الذاتية التي تجدها أروع ما كتب، ثم تدفن الكمبيوتر المحمول بكل ما يحتوي عليه في المقبرة، فلعلهم يجدونه بعد سنوات طويلة، مع الآثار التي حافظ عليها جدها حتى هذه اللحظة.

تدور نور منتقلة من حجرة إلى حجرة، ومن ركن إلى ركن في البيت الكبير بحثًا عن جدتها هاجر، تستمع فجأة إلى همس خافت في غرفة نوم هاجر التي لم تعد تدخلها منذ وقت طويل، تضع أذنها وعينها بالتناوب على ثقب الباب... كانت جدتها هاجر جالسة على حافة السرير ابتسامتها الطيبة المنسية على شفتيها، وأمامها امرأة نحيفة ترتدي السواد من رأسها حتى صندلها الأسود المرصع بخرج النجف.

تجاهد نور لتستمع إلى كلمات المرأة التي يزداد همسها: «لم يحب غيرك يا هاجر، رأيت هذا في عينيه منذ الدقيقة الأولى في يوم الدخلة، فلقد دخل عليَّ، وعلى شفتيه ابتسامة مثل التي على شفتيك الآن، وكأنه نسيها على شفتيه هكذا منذ وقت طويل، أو كأنها لغيري، ظل ينظر إلى ما خلف وجهي، إلى ما لا أراه أنا على الستائر وهو يجردني من فستان الفرح وطرحة الزفاف، ثم فضَّ غشاء بكارتي في أقل من دقيقة، واستلقى إلى جواري على ظهره، ناظرًا إلى الستائر ليتابع ما فاته هناك».

إنها هند القاضي زوجة عبد الجبَّار، هل تترك بيتها الذي يحتشد في حوشه أهالي ميت رهينة منذ أسابيع للعزاء في ولديها وزوجها، وتأتي إلى هاجر لتُسر إليها بهذه الكلمات؟!

زيارة هند لهاجر كان لها مفعول السحر على البيت كله، عادت هاجر إلى حياتها، أشرق وجهها من جديد، اشترت ملابس جديدة، اختارتْ أن تكون عباءات غالية من كرداسة، مشغولة بخيوط فضية ومرصعة بالترتر وقشر الذهب عليها رسوم للأهرام وسنابل قمح تصعد من الذيل حتى خصرها، ونفرتيتي بتاجها الأزرق الكبير المرصع بالياقوت، ونوار قطن أبيض متناثر على عباءة خضراء.

أتتْ بعاملة الكوافير التي تركت العمل في واحة الشوَّاف بعد الهجوم الإرهابي عليها، فقصت لها شعرها وصبغته بلونه الأسود الأصلي فأصبح رائعًا، تتأملها نور بإعجاب وتقول لها مداعبة: «لن تكبري أبدًا يا هاجر».

منذ زمن لم تستمع نور إلى ضحكة هاجر العذبة، تحتضنها جدتها وهي ترد عليها مداعبة: «جيل قليل الأدب فعلًا، يا بنتي أنا جدتك، قولي: ستي. كرريها ثلاث مرات»، حدثتها نور عن فرحتها بما يفعل صلاح وعبد الرحيم لقرية ميت رهينة، كان عبد الرحيم قد تبرع بقطعة أرض من إرثه وشرع في بنائها لتكون مركزًا ثقافيًّا ومكتبة عامة، وسيدير صلاح هذا المركز.

لا تتذكر نور أن أمها احتضنتها هكذا كما تحتضنها جدتها هاجر. عندما دخلت عليهما ليلى بعينيها الذابلتين الدامعتين اكتشفت بالفعل أنها لا تنتمي إلى هذا المكان، رأت ذلك في أعينهما وانقطاعهما عن الحديث بمجرد دخولها، قالت بهدوء وصوت خفيض: «الحاجة ريتاج كلمتني ولن تزورنا هذا الشهر، وأنا مسافرة الأسبوع القادم».

عندما رد مايكل سمير على تليفونها أخيرًا، اتفقا على أن يلتقيا في مقهى بعيد في شارع الهرم، تعمد ألَّا ينظر إليها طوال الجلسة، وكادت أن تسمع دقات قلبه العالية، مايكل هو الوحيد الذي أحبها بإخلاص، كان قد حلق شعره الطويل فبدا عمره أكبر.

أخبرها بأن عبد الجبَّار هدده بعد الهجوم على الواحة بألَّا يضع قدمه في ميت رهينة ثانية، وأن المقدس فانوس نبهه إلى خطورة هذه العلاقة وانسداد الأفق أمامها، ثم سكت تمامًا وانشغل طوال الوقت بلي الشيشة، ظلت تحدثه عن كل ما حدث في ميت رهينة منذ انقطع عن زيارتها ما عدا رسائل نور والشكوك التي تنتابها حولها، وعندما طال صمتهما، نهضتْ فأوصلها إلى سيارتها وتعمد ألَّا يصافحها ثانية.. ولكنه عندما رفع عينيه لينظر إلى

وجهها، كانت عيناه لامعتين بغلالة دموع، قال لها إنه سيتزوج الأسبوع القادم ابنة خالته إستير، وقالت له إنها مسافرة الأسبوع القادم فيما يبدو أنه هجرة.

******

هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها نور وجه صلاح هكذا... كان وجهه مسودًّا وكظيمًا وشاحبًا، كأن آخر نقطة دم قد هربت منه، جلس أمامها واضعًا كلتا يديه على رأسه، كمَن ماتت كل بهائمه دفعة واحدة، كانت عيناه تتسعان من فرط شعوره بالازدراء، تأملته نور طويلًا، وهي تسأل نفسها: «هل عرف شيئًا؟» ثم تُجيب على الفور: «بالتأكيد، لا، لم يعرف»؛ ففي عينيه أيضًا نظرة استغاثة بها، تشجعت أخيرًا وسألته بتردد: «ما لك؟» تبدلتْ ملامحه فورًا واكتستْ بالخجل، وتمتم متوسلًا ربما للمرة الأولى منذ طفولته: «نور، أنا في مصيبة كبيرة لن ينقذني منها غيرك».

أخرج هاتفه المحمول الذكي الذي أهدته إياه بمناسبة نجاحه في الثانوية العامة، فتحه بكلمة السر التي وضعتها بنفسها له، وأعطاها إياه فاتحًا ملف الصور، أخذت نور تتفرج عليها وهي مصعوقة، كانت معظم الصور يظهر فيها ظهر صلاح عاريًا وهو منبطح بطريقة مقرفة وغريبة فوق سلمى العارية، كانت سلمى تحته فاتحة عينيها الخضراوين الجاحظتين على اتساعهما، وفي لقطات أخرى قريبة، تظهر مؤخرة صلاح وفخذ سلمى الأبيض الممتلئ وهما ملتحمان معًا، تمسك قبضة يده المتراخية

خصلات شعرها المفرود على الوسادة، أو ينزاح صلاح قليلًا في لقطات أخرى ليظهر ثديها الأيسر ويكاد يملأ فضاء اللقطة.

أخذت نور تقلب بإصبعها الصور، الواحدة بعد الأخرى بسرعة، كما لو كانت تبحث عن شيء ما، أكثر من مئة صورة ولكنها كما يبدو من ابتسامتها لم تجد هذا الشيء، وضعت التليفون بهدوء وقالت: «تكاد تكون صورة واحدة يا صلاح، رغم أن الغبية الجاهلة سلمى حاولت تغيير الأوضاع أكثر من مرة».

أخذ صلاح نفسًا عميقًا ونظر في وجهها بامتنان، فأضافت: «أي أحد سيراها سيكتشف أنك غائب عن الوعي، وأن سلمى كانت تحمل عصا كاميرا بلوتوث سيلقي طوال الوقت بيدها اليمنى، ولذلك تبدو يدها اليسرى متشنجة هكذا».

لا يدري صلاح كيف شك للحظة في ذكاء نور، قال بغيظ: «طيب يا نور، كل الناس في ميت رهينة ليسوا مثلي ومثلك، وقد يصدقون هذه الصور... سلمى تبتزني بها الآن». ولخص لها الأمر بسرعة، أنه رغم معرفته بأن سلمى كانت دائمة التحرش به، إلا أنها استطاعت جرجرته إلى غرفتها فور دخوله إلى البيت بكذبها عليه وإدعائها أن الست هاجر وقعت في غرفتها دون حراك، وآخر ما يتذكره أنها رشت على وجهه رذاذ شيء ما، واستيقظ ليجد نفسه ملقًى على الأرض أمام باب غرفة المكتب.

سألها صلاح بعد ذلك: «هل تتذكرين منذ ثلاثة أيام، عندما أخبرتك أنني فقدت الوعي اليوم»، هزت نور رأسها، فاسترسل في الحديث عمَّا تعرفه، كان صلاح يعامل خادمتهم بأدب حتى

لا يجرحها، ولكنها أمس زارته في بيته قائلة بثباتها الغريب وملامحها الجامدة ونبرة صوتها الغبية أنها حامل في الشهر الرابع، وأنه والد الطفل، وعندما طردها وحذرها أن تكرر هذه الكلمات مرة أخرى، فرجته على هذه الصور، واتهمته بأنه لا يتذكر ما حدث بينهما، وهددته بأنها سترسلها إلى كل أرقام الهواتف المتاحة لها، وأن شباب القرية سيرحبون بنشرها على مواقع التواصل الاجتماعي.

تجولت عينا نور الضيقتان في غرفة سلمى المعتمة، هواء الغرفة خانق ومشبع برائحة أحلام وأنفاس محمومة لمراهقة جاهلة وصامتة دائمًا كالقبر.

تعرف نور أن جسد سلمى بدائي غير مهذب بأية مشاعر إنسانية، وتستطيع ببساطة إحصاء الأفكار التي تدور في مخ هذه اللقيطة الغريبة على أصابع يدها الواحدة... أن يأخذها ذكرٌ ما بعيدًا عن ميت رهينة حيث لا يعرف أحدٌ أصلها... أن يرضى ذكرٌ متعلم ووسيم مثل صلاح أن يواجه الجميع بمحبته لها، فترتدي له قمصان نوم قصيرة وملونة كل ليلة... أن تجد طريقة لكي لا يلسع سيخ الفرن ذراعيها البضتين من آن إلى آخر، مشوهًا جسدها الذي هو رأس مالها في الحياة... أن تنجب أكبر عدد ممكن من الأطفال في بيت كبير، ربما تتصوره في أحلامها أكبر من قصر هاجر.

أركان الغرفة ممتلئة بمساحيق غريبة مختلفة ألوانها، جعلت نور تواصل العطس طوال الوقت، بقايا شمع مواليد أبيض محترق، خرقٌ مبتلة بزيت لاذع الرائحة، موقد فحم عليه حبَّات كسبرة

وقصاصات، لم يكتمل احتراقها وبقايا لبان دكر وشبة، اتخذت أشكالًا مفزعة بعد حرقها، زجاجة سفن أب خضراء بداخلها بقايا قطعة قماش بيضاء وعود ثقاب محترق حتى منتصفه، أحجبة مثلثة تحت الوسادة وأخرى متدلية من الستارة القذرة المهترئة...

كما خمنتْ نور تمامًا، أخفت سلمى تليفونها المحمول تحت المرتبة، حتى لا يضيع منها أثناء تلبيتها طلبات هاجر طوال اليوم، أخذت التليفون إلى حجرة مكتبها، فوجدت عليه الصور، تفقدت ذاكرته الفقيرة، وعرفت أنها لم ترسل الصور منذ التقطتها إلى أي رقم، سلمى الجاهلة تستعيض عن كتابة أسماء مَن في البيت ومعارفها برموز يوفرها الهاتف، فهي مثلًا تسجل رقم هاجر بعلامة اللانهائي وليلى بعلامة النجمة، وزمت نور شفتيها بغيظ عندما وجدت رقمها مسجلًا بثلاث علامات استفهام.

لماذا تحب جدتها هاجر سلمى هذه وتعطف عليها؟ بل إنها تحرص في كل مناسبة من مناسبات القرية، سواء في تجمع فرح أو عزاء، أن تعلن أنها ستجهز سلمى كما لو كانت حفيدتها بمجرد أن يدق بابها ابن الحلال، نور أيضًا حاولت هي وصلاح أن يعلماها الكتابة والقراءة، ولكنها كانت تهرب منهما طوال الوقت وهي تنظر إليهما بنظرات دجاجة وجلة، تعرف أنها في قبضة مَن سيذبحها بعد قليل.

مسحت نور ذاكرة تليفون سلمى، وأعادت وضع برامج جديدة له، تأكدت أكثر من مرة أن كل ما فيه قد تم محوه، الصور والأرقام والرموز الغبية، ولكنها قبل أن تعيده إلى غرفتها تذكرت أن لا شيء يتم محوه تمامًا من هذه الأجهزة، وربما استطاع خبير ما

استعادة كل ما تخلصت منه ثانية، فعادت مرة أخرى إلى المكتب وعيناها تلمعان من الإثارة، أحضرت إناء من المطبخ ووضعت فيه سائل ماء النار ثم أغرقت التليفون وشريحته في الإناء، وانتظرت حتى نصف ساعة قبل أن تخرجه بعصا، استغرقت في الضحك وحدها.

كان التليفون قد انبعج انبعاجات غريبة مضحكة، فأعادته إلى مكانه تحت مرتبة سلمى، حرصت أن تدق نور باب غرفتها في المساء، وابتسمت في وجهها عندما رأتها مرتبكة ووجهها أصفر، وضعت سلمى يديها المتشابكتين أسفل بطنها، وأخذت تواصل فركهما باضطراب ودون توقف.

أيقظتها نور بصراخها: «أنا أتصل بك منذ ساعتين ولا تردين على تليفونك»، تتطلع سلمى إليها من علٍ بحيرة ولا ترد كعادتها، وإنما تتمتم بما لا تفهمه نور، وتنتظر ما ستطلبه منها بنفاد صبر، وكأن نور تعطلها عن شيء مهم ما.

تشير إليها نور أن تقترب منها، وعندما تنحني لتسمعها بشكل أفضل، تختلج رموشها الطويلة المعقوفة إلى أعلى، وتتسع عيناها الخضراوان أكثر، وتحاول فهم كل حرف تنطق به نور: «هل أقول لك سر يا سلمى، هذا القصر مسكون، أمس حدثت لي أشياء غريبة، اختفى اللاب توب الصغير، ورأيت شبحًا مخيفًا يخرج من غرفتك، ويجري نحو غرفة المكتب، أنا خائفة، ممكن أطلب منك طلبًا، لكن لا تخبري أحدًا أبدًا، أبدًا»، هزت سلمى رأسها مرتين علامة الموافقة، فازداد همس نور: «هاتي لي بسرعة

الشيخ برهامي، وادخلا إلى غرفة المكتب، دون أن يراكما أحدٌ، مفهوم».

خطفت سلمى طرحتها ولفتها على شعرها أكثر من مرة وهي تثبتها بدبابيس ملونة تضعها في فمها، ثم قالت بحروفها الممطوطة ودون أدنى انفعال: «حاضر».

******

لم تتصور ليلى أبدًا أن الجرح العميق الذي سببه لها الدكتور نور الدين سيلتئم هكذا فجأة ودون سابق إنذار، وفي ثانية واحدة، هي الزمن الذي استغرقته لرفع يدها إلى فمها بحبَّة لوز، ولم تنزلها إلى الطبق إلا وقد برأ جرحها تمامًا، عادت من لقاء مايكل وقد استكانت ملامحها واستعدت لاستقبال ابتسامة ساهمة، كانت تنساها على وجهها منذ الصباح حتى المساء، رغم عينيها الدامعتين.

لم يعد يُسمع في البيت صوتها الغاضب وصراخها، بل كانت تمسح دموعها بظهر كفِّها فيلمع عسل عينيها أكثر، استيقظت في هذه الثانية تحديدًا لتكتشف أنها لم تحب طوال حياتها إلا مايكل سمير، أخذت وجنتاها تتلونان باللون الأحمر، وهي تسترجع كيف كان لا يستطيع السيطرة على يديه، حتى وهما بين الناس، كانت يداه منجذبتين إلى جسدها المتوتر، كما تنجذب بُرادة الحديد إلى المغناطيس.

تتسع ابتسامتها أكثر، وهي تتذكر أنه لم يكن ينام إلى جوارها أبدًا بإرادته، وإنما يظل ينظر إليها بوله وإعجاب بعينيه الواسعتين السوداوين الجميلتين حتى تنغلقا فجأة، ويقع رأسه على الوسادة مثل طفل تعب من اللعب ونام رغمًا عنه، وبين يديه لعبته المفضلة.

تكاد ترى الآن غلالة المحبة التي تحيط جسده، وهو يشرح لها وحدها تاريخ «رمسيس الثاني»، عندما اصطحبها مع فوج سياحي لزيارة متحف ميت رهينة، كانت عيناه تتعلق بوجهها وحدها فتتعمد النظر بعيدًا لتعيده من جديد هذه الأشعة المُحبة، ضحك أعضاء الفوج فرحين وهاتفين في صوت واحد: «أوه».

عندما أشار إليها وهو يصف جمال نفرتاري زوجة أعظم الملوك الراقد أمامهم الآن نصف تمثاله الضخم، كان يبتسم ابتسامته الآسرة وهو يقول: «نفرتاري» يعني: المحبوبة التي لا مثيل لها، أو جميلة جميلات الدنيا... انظروا إلى ليلى لتروا صورة حية منها»، يومها هربت من أمامهم خجلًا من أعينهم المبتسمة، التي ظلت تلاحقها بإعجاب، خرجت إلى ساحة المتحف، ووقفت تنتظره هناك أمام تمثال أبي الهول المرمري.

هل تحب مايكل سمير؟ نعم. الآن فقط تفهم أن رغبتها في الانتقام وغضبها المبالغ فيه وملاحقتها للدكتور نور الدين... كل ذلك لم يكن إلا ستارًا مثقوبًا ومتهالكًا لإخفاء محبتها لمايكل، المحاطة بمخاطر
لا تعرف إلى أين ستؤدي بها.

بعد أن حزمتْ ليلى حقائبها، طرقتْ باب غرفة المكتب ودخلت، لم تجد أثرًا لنور، تأملت شاشة الكمبيوتر المضيء، وفجأة اقشعر بدنها كله، خُيل إليها أن ثمة هسيس أصوات لا تستطيع تبينها تنبعث من الكمبيوتر، أو تنبعث من الكتب الرابضة فوق أرفف المكتبة، وتحديدًا من كتاب «ألف ليلة وليلة» أو من الأسود الخشبية المكشرة عن أنيابها في زوايا المكتبة.

مدت ليلى يدين مرتعدتين وعينين مغرورقتين بالدموع، وفتحت كل الأيقونات الموجودة على سطح المكتب، لا شيء كالعادة، لا شيء على الإطلاق من رسائلها السابقة التي طبعتها، وهذا أكثر ما يجعلها تشك في أن نور تريد توريطها في الإعلان عن هذه الرسائل، ولذلك تتركها لها متعمدة وبهذا الترتيب، طبعت الرسالة الجديدة والوحيدة، وجدتها بسهولة ملقاة على سطح المكتب وكأنها تقول لمَن يفتح الكمبيوتر: «خذني».

تعمدت ليلى خداع الجميع أمس، وأخبرتهم بأن طائرتها ستقلع في السادسة من مساء اليوم وليس في السادسة صباحًا، فهي تكره أن تودع أحدًا، أيضًا خدعتهم بأنها مسافرة لمدة شهر فقط لا غير. خرجت من البيت، وشعرت بأن قدميها لن تطآه ثانية، أغلقت خلفها الباب الحديدي الأخضر الصدئ بهدوء، ولكنه أصدر صريرًا جرح سكون الفجر.

بالتأكيد جميعهم نائمون الآن، جلست متعبة على حقيبة من حقائبها في انتظار أن يضع السائق كل شيء في السيارة، وأخذت تستمع باهتمام إلى نقيق الضفادع وزقزقة العصافير، شعرت بعظام كتف نور تلتصق بكتفها، لم تسألها عن الرسائل، لم تلتفت

حتى إليها، فقط تنفستْ بعمقٍ حتى لا تبكي، وتابعت مع ابنتها بصمت يليق بجلال المشهد صعود قرص الشمس لتزيح أشعته الحمراء طبقات الظلام دُفعة واحدة عن بيوت وأزقة وتلال ميت رهينة. في طريقها إلى المطار، أعادت قراءة الرسائل حتى الرسالة الأخيرة:

«كدنا نصل يا دكتور نور الدين، ولعلك لاحظت مثلي كيف هو صعبٌ الإجهاز على امرأة! ربما لأن المرأة طالبة حياة، بينما الرجل طالب موت أو شهادة... سمِّ الأمرَ كما شئت، ولكن الرجل لديه استعداد فطري أن يستبدل بالحياة المجد أو الخلود أو تحقيق طفرات عبقرية أو أي شيء من هذه الخزعبلات.

هكذا يحدثنا التاريخ، ويصور لنا كيف أن الرجل أجهز على حيوات ملايين البشر بالنحر والخوزقة والسحل والتفنن في قطع الأطراف، ثم الرمي بالرصاص والنابالم والقنابل النووية والذرية؛ من أجل أشياء تبدو لي غريبة... مثل المزيد من الفتوحات والهيمنة على بقاع أخرى من العالم، أو -وهذا الأهم بالنسبة إلى الرجال- كما يبدو لي أن يسجل هذا التاريخ أسماءهم ضمن كلمات، مثل: الزعماء، أو المجاهدين، أو العظماء أو الأباطرة أو خلفاء الله في أرضه.

الغريب في الأمر أنني أضحك كلما لخصتُ التاريخ في فترة زمنية ما؛ لأرى أحد قادتهم يجري وهو يحمل عصًا عليها قطعة قماش يُطلق عليها راية، ويواصل الجري حتى تكاد تنقطع أوردة قلبه في مقدمة جيوش موحدة الزي مثل الجعارين تكاد تشق الأرض بزعيقها.

أما المرأة فهي لا تطلب إلا الحياة، تطلب الرجل المشغول دائمًا بألعاب القتل لأنه هو مَن سيمنحها الحياة، ولذلك كان صعبًا عليَّ جدًّا الإجهاز على امرأة. ولكن كما تعرف أيضًا يا دكتور، ثمة نساءٌ خانتهم الطبيعة ومنحتهم جينات ذكورية أكثر من الجينات الموجودة لدى بعض الذكور، وهنَّ في سبيل رغبتهنَّ الجامحة في اقتناص الحياة قد يحرقنها أو يدمرن أروع ما فيها.

كدنا نصل، لترى أمامك قائمة الأسماء الكاملة، التي ساهمت في الإجهاز على أوَّل عاصمة مدنية في العالم، وسمحت لآثار ميت رهينة أن تعوم في مياه المجاري. الأمور ستزداد تشابكًا وتعقيدًا في الأيام القليلة القادمة، ولكنها ستكون أكثر سهولة بالنسبة إليَّ كسفاحة، فلقد انتهينا معًا من وضْع الشَرك، وليس علينا الآن سوى انتظار مَن سينجذب إليه تجديدًا، سترى بنفسك كيف سيأتي المقتولون تباعًا بأنفسهم إلى حتفهم. فبحثًا عن ذهب المقبرة، سيأتي الدجالون والموتورون ورجال الأعمال الجشعون والمنقبون عن الآثار، وكلُّ مَن عاثوا في ميت رهينة فسادًا، سيأتون ليلقوا بأنفسهم في الشَرك كما تُلقي الفراشات نفسها في النار راضية مرضية.

ليتك فقط تكف عن هذه النظرات الغبية الصلفة والمتسولة لما تظنه حريتك، وليتك تستطيع معي صبرًا».

******

ما يصعبُ محوه

على القادم من تل العزيزية إلى ميت رهينة أن يسير في طرقات ملتوية وغير معبدة، وبعد أن يترك خلفه حوض زليخة زوجة عزيز مصر، يستطيع أن يرى الصبية وهم واقفون، كما وقفوا منذ أيام الفراعنة حتى هذه اللحظة، على أسطح البيوت، وفي أيديهم النبال، يُطلقون منها أحجارًا صغيرة نحو أفخاذ النساء، اللائي يجلين الأواني ويغسلن ملابسهن ويملأن الجرار من النهر، أو على الغرباء من العابرين.

يمسك الغريب قفاه متألمًا، ثم يرفع وجهه ليرى مَن ضربه، وهو يصيح: «آآآآي». ثم يكتشف أنه في قلب الظلام... هنا في ميت رهينة، وفي فصل الصيف تحديدًا يتبدل النهار إلى ليل... هكذا فجأة ودون سابق إنذار، بدون أن يلون الغروب الأفق ولو للحظة، فقط تختفي الشمس في ثوان معدودات، وكأنها ضاقت ذرعًا بوجودها طويلًا في السماء.

يستمع الغريب إلى همس النسوة المتدثرات بالسواد على عتبات البيوت، ويستطيع اصطياد مقاطع من حكاياتهنَّ عن العفاريت وعن الشيوخ، وقد يلتبس عليه الأمر فيجفل، حين يرى إحداهنَّ تجري فجأة أمامه ويحسبها عفريتًا، فيتعثر أكثر من مرة في بقايا أعمدة حجرية مدفونة في الأرض، تسيل الدماء من قدمه المجروحة، فيقرفص متفقدًا إياها، ولا يستطيع النهوض مثل جَمل حرن وبرك في مكانه.

يظل يتأوه؛ حتى يستطيع بعد وهلة التمييز بين تأوهاته وتأوهاتها، فينسى جرح قدمه ويتأملها طويلًا.

كانت ترتدي فستانًا من الكتان الأبيض دون أكمام، عليه قلادة ذهبية ضخمة تبدو كأنها ياقة الفستان لتزيين وتغطية صدرها كله في الوقت نفسه، تضع سوارًا أعلى كل ذراع يحبس لحمها ويضيئه، غابت عيناه في نقوش السوارين الذهبيين المرصعين بالزمرد، وفي ذيل عريض ذهبي يتدلى من حزامها من الأمام، بالضبط من منتصف خصرها حتى قدميها، يبدو الذيل كما لو أنه رباطة عنق طويلة وعريضة تصل إلى الأرض.

يتأمل الغريب ملامح وجهها الجميل، وعينيها الواسعتين السوداوين المحددتين بكحل أسود، يمتد بخطين إلى أبعد من مستوى الحاجبين، وشفتيها المدعوكتين بأوراق وردة حمراء، كانت زرقة جفنيها تلمع في الظلام فتزيد بريق عينيها، أنفها يتشمم بنهم الهواء، كأنها حُبست تحت الأرض طويلًا.

ترفع وجهها بسعادة رغم تأوهاتها، يبتسم في وجهها حتى تختفي من أمام عينيه وتذهب إلى حال سبيلها، ولكنها تعدل تاجها المرصع بالياقوت الأحمر؛ لتلم شعرها الأسود المجدول في ضفائر لا حصر لها، وتمد إليه يدها البيضاء فيمسك بها ويحاول فحص جرحها، الذي يبدو أنه جراء القطع بسكين، فتقول له بنغمة صوت تشبه صوت الكروان الذي يصيح فوقهما: «لم تكن المشكلة في فرط جمال يوسف، وإنما في هالة النور التي أحاطت به، كان يشع نورًا يا أخي، ولذا لم نشعر بالسكين، وهي تقطع البرتقالات ثم تقطع أيدينا».

لم تلاحظ نور فقط، بل لاحظ كل أهل القرية أن صوت هند القاضي بدأ في الارتفاع، حتى باتت القرية كلها تسمعه على مدار اليوم لأسباب كانت دون شك تحدث أثناء حياة عبد الجبَّار، كأن تتشاجر وتظل تصرخ في وجه عبد الرحيم، ابنها الوحيد الذي ظل يعيش في بيتها، أو عزوز بن بهانة أو أزواج بناتها الثلاث، أو الفلاحين وعمال محلات الموبيليا المنتشرة في البدرشين.

في الأيام القليلة الماضية، تأكدتْ نور أن هند القاضي لم تأت لزيارة القصر؛ لكي تعترف بمحبة عبد الجبَّار لهاجر، وإنما لكي تضع قدمها على الأرض، وتجلس فوق المقبرة التي فشل زوجها في فتحها، لتحاول البحث عن طرق جديدة لإيجادها.

تبتسم نور في وجه جدتها عندما تخبرها بأن الحاجة هند والمقدس فانوس جرجس زاراها اليوم، وأنها ضحكت معهما كثيرًا في جلسة استمرت طوال النهار على حافة البركة. تغمغم نور: «آه، وهل جاءت بمفردها أم في كوكبة من صبيان عبد الجبَّار وصبيان فانوس، وعلى رأسهم طبعًا عزوز بن بهانة؟» تهز هاجر رأسها بالإيجاب بسرعة، حتى لا تفقد حماسها في وصف خفة دم المقدس فانوس، الذي أحضر لهم هدية من حصاد أرضه، أقفاص مشمش صفراء تعكس أشعة الشمس. هتفت هاجر: «تسلم يدك يا مقدس فانوس»، فأجابها بجدية مازحًا: «والله لو أسلمتْ يدي لقطعتها يا ست هاجر»، وهكذا طوال الجلسة لم يتوقف ثلاثتهم عن الضحك.

فانوس جرجس هو شريك عبد الجبَّار في نصف متاجر الموبيليا بالبدرشين، وفي مزرعة الدواجن علنًا، وشريكه في تجارة الآثار

والمخدرات سرًّا، ورحلة صعوده إلى طبقة أعيان ميت رهينة تشبه كثيرًا رحلة صعود عبد الجبَّار، فبدايتها غامضة ومسكوت عن بعض محطاتها.

كان فانوس هو الأقرب إلى عبد الجبَّار في جلسات الأنس التي يعقدها كل ليلة، وكان مثله خفيف الدم ودائم السخرية منهم ومن الدنيا كلها بما فيها السخرية من نفسه، ولذلك يجد الجميع ومن بينهم عبد الجبَّار صعوبة في السخرية منه. ودائمًا ما يرددون قفشاته التي تتحول إلى نكات في ميت رهينة.

يحكون أنه ذات مساء ضرب عزوز بن بهانة علقة موت؛ لأنه حاول أن يروي السيرة الهلالية بصوته النشاز الأجش، وأقسم بالمسيح الحي أن يطرده من ميت رهينة، وكان كلما رأى عزوز جالسًا في مكانه يقذفه بحجر صائحًا: «قم يا بن البرطوش من هنا».يغرق عبد الجبَّار في الضحك ويمسكه بذراعه ويهدئه: «خلاص يا مقدس، عزوز أقسم على المصحف، بألا يغني أبدًا»، فيكاد يبكي وهو يقول: «قالوا للحرامي احلف، قال: جاء الفرج، وأنا أقسمت بالمسيح الحي
يا عبدالجبَّار»، ويجري وراء عزوز قاذفًا إياه بالحجارة.

عندما يعود ليجلس في مكانه، يقول بصوت مقطوع الأنفاس:
«يا مَن يعيد إلينا إذاعة الشعب، والسيرة الهلالية التي كانت تُذاع آنذاك عبرها، نلتف حول الراديو الخشبي في دكان السكري ونكاد نطير مع صوت الربابة لنقطع وهادًا وأراضي وتصم آذاننا حمحمة الخيول»، فيهمس عبد الجبَّار ساهمًا، وهو يطلق الدخان من فمه: «آه والله يا فانوس، أو نشرب شاي الوزة ونرتشف معه

صوت أم كلثوم كل يوم خميس من أول كل شهر، يا أخي كانت أيام الخميس هذه تشبه الأعياد».

يحكون أن فانوس دخل ذات يوم إلى منظرة عبدالجبَّار فوجد الشيخ برهامي جالسًا، فنظر إليه بغلٍّ، ثم خلع عمامته وسرّح شعره الأسود الغزير بأصابعه وأحاط ذقنه بيده، وكاد يبكي وهو يسأله: «انظر إليَّ جيدًا، ألست جميلًا يا شيخنا؟» أجابه الشيخ برهامي وهو يعدل باروكته الشهيرة القميئة مرتبكًا: «طبعًا يا مقدس، تبارك الله فيما خلق»، فاقترب منه فانوس، وألقى باروكته بعيدًا، فظهرت صلعته البشعة، نهض الشيخ برهامي بسرعة، وأخذ يجري وراء باروكته ليضعها على رأسه من جديد، بينما صرخ فانوس: «طيب، لماذا يُحكم عليَّ بزواج واحدة، وأنت بشكلك الجعر هذا تتزوج وتطلق كل يوم ما تشاء من الأبكار الحِسان؟».

يضج عبد الجبَّار ورجاله بالضحك، وتهتز لَيَّات الشيش في أيديهم، ويضع الشيخ برهامي باروكته على رأسه ويعيد فوقها شاله الأبيض، ثم يقول له بغيظ: «قل أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأنا أزوجك يا مقدس الغبرة». فيمثل فانوس أنه يفكر تفكيرًا عميقًا في الأمر، وبنبرة متوسلة باكية يقول لعبد الجبَّار: «يعني يا عبدالجبَّار
يا حبيبي، إما أن أعيش بوزي في بوز أم بطرس طول العمر، وإما أخرج من ديني؟».

لم تقتصر خفة دم المقدس على جلسات الأنس فقط، وإنما في عزِّ الظهيرة أيضًا وقبل أن يدخن أول حجر حشيش، كان يمر على

محلاته ليتفقد حركة البيع والشراء، فإذا وجد زبونًا يتحدث مع أحد البائعين يعرفه بنفسه قائلًا: «أنا فانوس جرجس، صاحب المحل، مسيحي بس طيب»، وإذا ما دخلت فتاة مسلمة جميلة يهتف: «والمسيح الحي، موافق، أقطع أذني بنفسي بسكين ثلمة، وأكون معكِ يا قمر».

كل أهالي ميت رهينة يحبون فانوس جرجس، ويحترمونه. ولم يروه حزينًا أبدًا إلا مؤخرًا، وتحديدًا في الأوقات التي يعتلي فيها الشيخ خالد الطوبجي منبر جامع الشوَّاف، ويصل إليهم صوته عبر الميكرفون وهو يهنئ الأمة بحلول شهر رمضان، ويذكِّر الناس بأن شهر رمضان الفضيل ستُحبس فيه الشياطين والقردة والخنازير... كان فانوس جرجس يبتلع كلماته فورًا إذا كان يتكلم، وينظر إلى وجوه أصدقائه بوجه متجهم أسود، ويواصل صمته مهمومًا طوال الوقت.

لم يبدل المقدس فانوس المليونير جلبابه البلدي وعمامته البيضاء أبدًا، ولكن كانت لديه هواية غريبة في شراء أغلى الأحذية وأندرها على الإطلاق، أحذية عندما يعرف أصدقاؤه وأقاربه أثمانها، يكادون يقعون على الأرض من فرط الدهشة، ولذلك كان الرجال في المنظرة يسارعون إلى النظر إلى قدميه بمجرد دخوله إليها؛ لاستطلاع شكل حذائه الجديد.

******

بعد سفر ليلى، عادت هاجر إلى صمتها، واستكانت مثل أي عجوز إلى الجلوس منذ الفجر حتى التاسعة مساء على حافة

البِركة لتراقب الصباح والمساء، وهما يمران أمام عينيها. ثم تتكور حول نفسها لتنام في المكان نفسه الذي كان عليه سريرها في عشتها القديمة. كانت هيئتها تبدو من بعيد، وكأنها لتمثال يبتسم بسلام مَن لا يستطيع النهوض من مكانه.

حاولت نور أن تخرجها من حالتها تلك كثيرًا، ولكنها كانت تنظر إليها بدهشة وابتسامتها الطيبة لا تفارق شفتيها، أطلقت من أجلها عبر سماعات ضخمة صوت أم كلثوم، وجلست إلى جوارها تكتشف عظمة صوت كوكب الشرق؛ هي التي طالما سخرتْ من شعبيتها الجارفة في الماضي القريب قائلة لصلاح: «وهل تكرر كل جملة كثيرًا هكذا إلى حدِّ الملل حتى يحفظها جمهورها من المرة الأولى؟!» تكتشف الآن أن أم كلثوم لم تغنِ جملة مكررة أبدًا، وإنما كانت تغنيها كل مرة بطريقة جديدة، حتى لو غنتها عشرات المرات.

تنتبه نور إلى أن صلاح يجلس إلى جوارهما ربما منذ فترة طويلة، فتقول له بصوتها العجوز الحالم: «في صوتها تصول وتجول مخلوقات الله في فضاءات شاسعة وأرض رحبة، في بساتين صوتها الغنَّاء، تستطيع لمس السكون وهفهفة أغصان الأشجار وصهيل خيول وهدير بحار... تستطيع رؤية الحب الأزلي الملحمي الذي يجمع بين آدم وحواء، ربما لذلك كتبوا عن صوتها كثيرًا أنه ليس صوت أنثى وليس صوت ذكر، تحمل بحة صوتها النادرة كلَّ صخب العالم، الذي نعرف والذي لم نتعرف إليه بعدُ... العالم بكل ثقله وعواصفه وأعاصيره وجماله وقبحه وليله وصباحاته وقمره الحالم وشمسه الحارقة والدافئة ونجومه البعيدة اللامعة... حين تستمع إليها وهي تغني، تكاد تسمع صوت

الشعب العربي كله، وترى جيوشًا تزحف لتنتصر أو تعود وظهورها محنية جراء هزيمتها، ترى باعة جائلين، ودموع وآهات عشاق ملتاعين، ومآذن تخترق السماء، ورفرفة راياتٍ فرِحة، وأجراس كنائس تداعب المساء».

ينتظران حتى تنتهي الست من آخر مقطع في قصيدة الأطلال، ثم ينهضا صامتين تاركين هاجر في مكانها، وقد اتسعت ابتسامتها أكثر. يعاتبها صلاح في الطريق: «انتظرت أن تخبريني يا نور، هل تحدثت مع سلمى؟ وماذا قالت؟ ولماذا اختفت هكذا فجأة؟».

تحكي له نور بسرعة أنها طردتْ سلمى منذ يومين، وتمد له تليفونها المنبعج بطريقة غريبة من تأثير ماء النار. يقلبه صلاح بين يديه ويضعه على المكتب دون مبالاة، يسألها ببطء: «طردتها؟!» فتهز نور رأسها بابتسامة متشفية، وهي ترى كيف ينهشه حب الاستطلاع، ثم تشفق عليه وتنهض لتدور حول كرسيه مثلما يفعل المحققون في أفلام الأبيض والأسود:

«كانت سلمى تحبك حب زليخة لسيدنا يوسف، ولذلك ذهبت إلى ابن ستيتة، وطبعًا، أقنعها أنه سيأتي بك؛ حتى تركع تحت قدميها، جعلها تسقيك دماء دورة طمثها الشهرية في كل أكواب الشاي التي قدمتها إليك، ونقش لها على شمع المواليد الأبيض نقوشًا غريبة وأمرها أن تضعها في فرجها، ثم تخرجها وتتركها مشتعلة في الحمام تأكل نفسها طوال الليل، لتذوب على مهل بشرط ألا يدخل عليها أحدٌ لليلة كاملة، فإذا ما اختفتْ آثار الشمعة في الصباح، يكون العمل قد نفع.

وبالطبع، كانت سلمى تجد بقايا الشمع على بلاط الحمام، فتواصل زيارته ليصرخ في وجهها: «قلت لكِ ألَّا يدخل أحدٌ الحمام طوال الليل، مؤكدًا دخول أحدُ الإنس على الشمعة»، ثم ينقش لها شمعًا جديدًا، جعلها تسرق أحد قمصانك البيضاء، وكتب عليه بالحبر الأحمر ما كتب، ثم قصه إلى شرائط طويلة، وبرم كل شريطة منها حتى صارت مثل الدوبارة، وأمرها أن تغرقها بزيت الزيتون وتضعها في زجاجة خضراء، ثم تشعل طرفها وتتركها لتحترق، حتى آخر خيط فيها ببطء، فإذا ما وجدت أن هذا الفتيل قد اختفى من الزجاجة، ولم يتبق منه شيء، يكون العمل قد نجح.

وبالطبع، كانت سلمى تجد بقايا مزق القميص في الزجاجة، سواء احترقت بكاملها أم لم يكتمل احتراقها، فتعاود الذهاب إليه، ليخبرها ابن ستيتة بهدوء وهو يرفع يديه إلى السماء مستسلمًا، بأن روحها أرضية ثقيلة وبأنها ليست امرأة طبيعية؛ ولذلك تحتاج إلى قبس من نوره يسكنها، ولا توجد طريقة لتحقيق ذلك إلا بأن يدخلها، وهكذا فض بكارتها، واعتاد معاشرتها كلما زارته لتثبيت قبس نوره فيها، وعندما أخبرته أنها حامل في شهرها الرابع، هتف فرحًا: «فُرجتْ»، وأمرها أن تجد طريقة، تثبت بها أنها على علاقة بصلاح، وأن ما في بطنها هو ابنه».

تمتم صلاح، وعلى شفتيه شبه ابتسامة ساخرة ويائسة: «وطبعًا ابن ستيتة اختفى منذ أسابيع»... ثم غرق في صمت ثقيل، وغامت ملامحه في سحابة حزن لم يستطع تحديد مصدره، بالتأكيد أن هذا ما حدث، وما تصوره هو نفسه بأن سلمى كانت على علاقة آثمة مع أحدهم في القرية، ولكنه ضبط نفسه أكثر من مرة، وهو يتعامل مع سلمى المسكينة كما لو كانت ميتة، همس

بعد فترة طويلة دون أن ينتبه: «الله يسامحها ويرحمها»، جفلتْ نور، ولاحظ هو ذلك، فاستدرك قائلًا: «الله يسهل لها».

حاولت نور أن تطمئن نفسها، وهي تتابع نبرة صوته الحزينة، بأن سبب حزنه هو الإخفاق، الذي يلاحق مشروع المكتبة العامة والمجمع الثقافي.

نجح عبد الرحيم في الانتهاء من بناء مركز رائع على الطريق العمومي، يطل على ترعة المريوطية، مذللًا كل العقبات البيروقراطية، ومتحملًا صراخ أمه في وجهه ليلًا ونهارًا بأنه سيبدد أرض أبيه على أوباش ميت رهينة، كانت هند القاضي تبكي طوال الوقت سائلة إياه كيف طاوعه قلبه أن يتبرع بأفضل قطعة في أرض عبد الجبَّار؟ ولكن عبد الرحيم وصلاح واصلا العمل؛ للانتهاء من افتتاح المركز الثقافي والمكتبة.

عندما حدَّث صلاح داليا في الجامعة عن المشروع جمعتْ وحدها وخلال شهر واحد فقط أكثر من عشرة آلاف كتاب، تبرعات من مكتبات كِبار الكُتاب ومدرسي الجامعات ومؤسسات وزارة الثقافة ودور النشر الخاصة، ثم زارت داليا ميت رهينة بنفسها، وقضتْ ساعات مع تلاميذ المدارس، وعلمتهم كيفية فهرسة وتبويب ووضع الكتب على الأرفف؛ وفقًا لمؤلفيها وموضوعاتها، ثم عمل ببلوجرافيا لما تحويه المكتبة.

تسأله نور مبتسمة: «داليا في ميت رهينة؟» فيقول لها: «وستموت لكي تلتقي بك لو سمحتِ»، تضحك نور: «طبعًا، أريد أن أراها لكي أطمئن على مستقبلك»، كانت قد رأت صورها

على تليفونه، وكانت تعرف أن داليا تغيرت كثيرًا، وأصبحت مهتمة برؤية ما حولها وليس رؤية جَمالها في المرايا فقط، حيث كان صلاح يشرف على برنامج قراءة مكثف لها... أضافت بعد فترة بحزن: «ولكنني لا أريدها أن تراني». يواصل صلاح صمته، فتهمس له بفرح: «وجدتها، اسمع
يا صلاح، دعها تزور هاجر واجلسا معها عند البِركة، وسوف أراكما من خلف النافذة».

تقول نور لنفسها وهي تراقبهما من خلف الستائر: «بالتأكيد كان هذا شكل هاجر وهي صغيرة»، كانت تمشي مثل داليا هكذا في مكانها كما يمشي الأطفال، وكانت تحرك رأسها هكذا فيتموج شعرها الأسود اللامع الجميل في موجات لا نهائية، تضحك بصوت يشبه زقزقة العصافير، وتظهر أسنانها المنتظمة فتشرق الشمس، تتحدث همسًا وهي تنظر إلى مَن تحدثه وعيناها تلمعان وابتسامتها تنير وجهها، على رقبتها الممشوقة البيضاء ظلال أوراق شجرة الخروع، وكأن جلدها الرقيق الشفاف مرايا تعكس الظل والضوء.

يقضي صلاح وداليا أكثر من ساعة مع هاجر، وعندما يصطحب صلاح داليا نحو بوابة القصر الحديدية محيطًا خصرها بذراعه، يستدير، وهو مبتسم ملوحًا بيده لنور، التي يعرف أنها خلف النافذة.

******

لا يدري أحدٌ متى أصبح خالد، ابن محمد الطوبجي داعية من الدعاة الجدد «المودرن» في ميت رهينة، ليتحلق الشباب حوله هكذا... وجهه أبيض متورد، على غير عادة وجوه الرجال والشباب في القرية، وشعره أسود ناعم يمشطه إلى الخلف مثل شكري سرحان، ولولا لثغته، لأصبح مؤهلًا لأن يكون ممثلًا سينمائيًّا بامتياز.

عندما يتحدث وهو يرتدي قميصه الشبابي الوردي وبنطلونه الجينز ينحني إلى الأمام بصدره كله، يكاد يبكي وهو يتلو بشكل ميلودرامي مبالغ فيه حكايات، استخرجها من الكتب الصفراء القديمة، ثم ينتفض فجأة وتتقلص عظام قفصه الصدري تحت قميصه، وهو يصف الثعبان الأقرع في القبر، وتهطل دموعه وهو يتحدث عن النساء المعلقات بشعورهن في جهنم، ويضحك ساخرًا من الشباب الذين يتشبهون بالفتيات، ولا يتعلمون الرماية والسباحة وركوب الخيل؛ فيسافر بعض الشباب إلى الصحراء لتعلم الرماية عائدين بلحًى طويلة وتعليمات جديدة بعمليات إرهابية، أو يلقي الشباب أجسادهم في ترعة المريوطية؛ حيث إنها المسبح الوحيد المُتاح للفقراء، ليغرق منهم مَن يغرق، وينجو منهم مَن ينجو ليُصاب بالبلهارسيا المزمنة.

لا يدري أحدٌ في ميت رهينة كيف صار خالد الطوبجي نجمًا تليفزيونيًّا شهيرًا هكذا بين ليلة وضحاها، وأصبح أهل القرية يتابعون برنامجه كل مساء على الشاشة الصغيرة، يسلمون عليه بصعوبة كلما رأوه سائرًا في الطرقات المتربة مع وكيل أعماله وحشد من الفتيان الصِغار، يشتري أراضي جديدة، يتابع أعمال البناء في جامع باسمه، وعد أن يكون به وحدة صحيّة بأسعار

رمزيَّة ومركز لتعليم الصِّغار، لا ينطق باسم أحد من أهله أو جيرانه، وإنما يدعو الجميع بأخي
أو بأختي.

أصبح يرتدي سترات حريرية غالية في المساء أو ملابس كاجوال من آخر صيحة في الصباح، وساعات مختلفة أشكالها ماركة روليكس، يحرص كل الحرص أن تلتقطها عدسات الكاميرات، يهبط من سيارته التي يقولون إن ثمنها نصف مليون جنيه ليستمع إلى هتاف الشباب له، يدخل بسرعة ليعتلي المنبر في جامعه الجديد، جامع الطوبجي، وابتسامته البلاستيكية لا تفارق وجهه، يسهب في حديثه معهم، آكلًا نصف الحروف بلثغته الغريبة. يصرخ حين يستلزم الأمر الصراخ، ويبكي حين يستلزم الأمر البكاء. يخجل صلاح من أن ينهض من آخر الصفوف ليخرج فيراه خالد، يجز على أسنانه وينكس رأسه مواصلًا الاستماع إليه.

صلاح هو الاسم الوحيد الذي يتذكره خالد الطوبجي دائمًا، فصلاح زميل دراسته ومنافسه الوحيد في ميت رهينة على التفوق، حصل خالد في الثانوية العامة على مجموع كبير يؤهله لدخول كلية طب القصر العيني، فدخلها، ومنذ قدم أوراقه إليها، والجميع يدعونه «دكتور»، ولكن مجموع صلاح كان أكبر بالطبع، وعندما فاجأ الجميع والتحق بكلية الآداب قسم تاريخ، قابله خالد، وسأله بازدراء، وهو يقلب شفته السفلى السمينة: «تاريخ يا صلاح؟!» كان يضغط على حرف الصاد الذي ينطقه ثاء بشكل مقزز، فتركه صلاح غاضبًا ومضى في طريقه.

خالد كان جاره أيضًا، تربى في بيت مبني بالطوب اللبن، وتربت أمه مع عفاف أم صلاح. يترك الشيخ خالد جميع مَن حوله ليلحق بصلاح، يمسك بكتف جلبابه الأبيض ويوقفه: «يا أخي، العجلة من الشيطان»؛ فيبتسم صلاح بمرارة وسخرية: «يا أهلًا وسهلًا يا مولانا». يمسح خالد على شعر رأسه الأسود اللامع المصفف والمثبت بعناية بدهان ما، وتتسع ابتسامته الملتصقة بوجهه دائمًا، ويهمس في أذن صلاح:
«لا تقول لي أن درس اليوم لم يعجبك». يتنهد صلاح بصوت مسموع، ويرد على مضض بنبرة صوت خالد الهامسة نفسها: «وما الذي قد يعجبني يا شيخ خالد في مضاجعة الزوجة الميتة، وشرب بول الإبل، وكيفية تأديب العبد؟!».

عندما يغضب خالد يبتسم، وعندما يصرخ يبتسم، وعندما يحزن أو يفرح يبتسم، كانت ابتسامته تندلق وحدها بعيدًا عن الكلمات التي يتفوه بها، كانت ابتسامته الممجوجة ملتصقة بوجهه في كل الأحوال؛ ممَّا كان يغيظ صلاح كثيرًا ويشعره بأنه لا يتحدث إلى إنسان من لحم ودم، وإنما إلى روبوت ما. يشيح صلاح بيده بنفاد صبر ويتركه فجأة.

******

كانت رياح الخماسين تعوي بين الأشجار في الخارج، وتعصف بكل شيء خفيف الوزن على الأرض فيطير في سماء ميت رهينة... طارت أوراق الجرائد المكورة على بقايا طعام، أكياس القمامة البلاستيكية السوداء، الرجال والنساء والأطفال، الذين يبلغون حدًّا من النحافة لا يُمكنهم من الثبات على الأرض،

أغصان الشجيرات الوليدة، أبواب البيوت المفتوحة والمصنوعة من نشارة الخشب، سعف النخيل، القطط الصغيرة المذعورة، الأتربة التي تطير في سحابات قبل أن تصفع وجوه المارة.

هذه هي الليلة التي قرر فيها خالد الطوبجي أن يزور المكتبة العامة والمشروع الثقافي للمرة الأولى، وكان قد أرسل قبلها بشهر مريديه من الشباب لفحص الكتب التي تحويها، وثني صفحات بعينها، بها مشاهد جنسية فاحشة أو كلمات بذيئة أو تجديف في الدين من أجل ازدرائه، أو خيانة زوجية ما تدعو إلى الرذيلة، أو آراء سياسية معارضة لنظام الحكم؛ حتى يتم توصيلها إلى ذوي الأمر لاتخاذ قرار بشأنها، أو ببساطة كل ما لا يفهمه الشباب من مقاصد المؤلفين.

بعد صلاة العشاء وصل الشيخ خالد وسط كوكبة منهم، ووقف أمام جبل كبير من الكتب، كان يسحب الكتاب بشكل عشوائي من الكومة ويجد بسهولة الصفحات المثنية، ويقرأ فيها قليلًا ثم يزوم: «هل هذا يرضي الله؟» «هل هذا يرضي رسول الله؟» «هل يسمح أحدكم أن تقرأ ابنته أو زوجته ذلك؟». وعندما أصبحت غمغمة الناس زئيرًا يصم الآذان، أمر الشيخ خالد الطوبجي أتباعه بحرق مبنى المجمع الثقافي والمكتبة، وكل ما فيها من كتب.

منذ هذا اليوم ووجه صلاح ممتقع بالسواد، كأن آثار حريق المبنى التصقت به إلى الأبد، كادت قدماه تنقطع عن قصر الشوَّاف، وصار مشغولًا طوال الوقت فيما لا تعرف نور... كلما اتصلت به يقول لها إنه في قسم الشرطة مع الضابط محمد أبو

العينين، الذي أصبح صديقه الجديد بعد تقديمه بلاغًا في الشيخ خالد الطوبجي، متهمًا إياه بحرق المبنى وإتلاف محتوياته، أو مع داليا في القاهرة أو مع شباب جدد تعرف إليهم ولا تعرفهم هي.

عندما جلس أمامها أخيرًا بكتفين متهدلتين كأنه كبر أعوامًا في هذا الشهر فقط، كان يستمع إليها بصعوبة، فلقد كان ثمة ميكرفون عاليًا ومفتوحًا على إذاعة القرآن الكريم، سألته وهي تخمن تقريبًا الإجابة: «عزاء جديد؟» فأجابها بصوت عالٍ: «عزاء الشيخ برهامي»؛ فمنذ أسابيع تقيم منصورة أصغر زوجات الشيخ برهامي سرادق عزاء دائمًا في بيتها.

كلما استمعت نور إلى جملة: «عزاء الشيخ برهامي»، لا تكاد تصدق أذنيها، هي تعرف بالتأكيد القصة التي يعتمدها فلاحو ميت رهينة، فلقد وصل إليها ما يعتقد ناس ميت رهينة أنه حدث بالفعل...

بعد موت عبد الجبَّار حزن الشيخ برهامي عليه كثيرًا، ولكي يستطيع التعايش مع هذا الحزن قرر أن يبني خُصًّا من عيدان الذرة في فناء بيته، ويدعو شلة الأنس نفسها التي كانت تجلس في منظرة بيت عبد الجبَّار. نعم لقد تفرق شملهم، ولكنه سيعيد أمجاد الجلسة، وسيجلس في الصدارة وسيمده المقدس فانوس بالحشيش، وسيحاولان طرد الحزن كل ليلة كما فعلوا طوال السنوات السابقة، ولكنه وبعد مجهود مضنٍ في إقناع الشلة بمكان جلستهم الجديد، وبعد يومين بالضبط من انتظام الجلسة، أكل الحريق هذا الخُص بكل ما فيه.

أخرجوا جثة الشيخ برهامي متفحمة، وتعرّفت عليها منصورة، زوجته الوحيدة التي تعيش معه في بيته الكبير، حيث إنه خصص لزوجتيه العجوزين الأولى والثانية بيتًا آخر غرب القرية.

في التحقيق، قالت منصورة إنها نامت كعادتها في التاسعة مساء، ولم تشعر بالحريق لأن نومها ثقيل. قالت إنها حذرت الشيخ برهامي كثيرًا من النوم في هذا الخُص وفحم الشيشة مشتعل إلى جواره، وإنها استيقظت عند الفجر مع أهل القرية على الصراخ؛ لتجد الخُص وكل ما فيه مجرد حفنة رماد على الأرض.

تمسك نور رأسها وتستدير لتأخذ حبَّة ساماتريبتان، لقد قتلت نور الشيخ برهامي، بعد أن قتلت سلمى أمامه، فمَن هذا الذي أحرقته منصورة وهو نائم في الخُص؟ تنظر نور إلى وجه صلاح وشفتاه تتحركان، يبدو أنه يتحدث ولا تستطيع الاستماع إلى صوته.

تستدير عيناها الضيقتان الآن أكثر من فرط حيرتها، تكاد تستمع إلى صوت الشيخ برهامي، وتستعيد اهتزاز شعيرات لحيته البيضاء القليلة، وطريقة فتح فمه المرعوب من هيئتها... قرأت في عينيه في هذا اليوم مدى إيمانه بكل ما فعل في الحياة، بوجود الجن والعفاريت واختلاطهم بالإنس في علاقات زواج وطلاق وإيذاء، وإيمانه بقدرته على تسخير صغار الشياطين لتنفيذ رغباته، على الفور حسب نور واحدة منهم، فحاول الاقتراب منها متمتمًا: «سلام قولًا من رب رحيم».

أخبرته متهكمة كيف كان من السهل أن تدخله إلى مصيدتها بطُعم، تعرف أنه يحبه كثيرًا ولن يستطيع رفضه، ثم ضحكت

بصوت عالٍ وهي تهز رأسها: «سلمى، الفتاة المراهقة الصغيرة كانت طُعمًا جيدًا، أليس كذلك يا شيخ برهامي؟!» حاول الاقتراب منها أكثر، وهو ما زال يغمغم: «سلام قولًا من رب رحيم»، ولكنها أوقفته في مكانه مصوبة إليه مسدس جدها أدهم الشوَّاف الفضي، وهي تقول له بغيظ: «بل أنت الشيطان نفسه، يا شيخ النصابين».

تنهش نور الظنون وتظل صامتة تتساءل بينها وبين نفسها: «مَن هذا الذي تفحمت جثته في عشة الشيخ برهامي إذًا؟» يقول أهل ميت رهينة إن زوجته الشابة منصورة أكثر حزنًا عليه من زوجتيه العجوزين.

فجأة، ابتلعت رياح الخماسين إشاعاتهم السابقة حول سلوكها المشين، حول قصة خطفها لوابور الجاز كل يومين، وصب كل ما فيه من جاز على جسدها من شعرها حتى أصابع قدميها، ثم إشعال عود ثقاب بيد ثابتة وإلقائه على جلبابها. عن تنادرهم بأن شباب القرية كانوا يجهزون إلى جوارهم دائمًا جرادل الماء، حتى يكونوا في وضع الاستعداد لإطفاء نيران جسدها.

ابتلعت رياح الخماسين كل الحكايات حول هروب منصورة من بيت الشيخ برهامي كلما حل الليل، بعد أن تفتعل مشاجرة معه، تقوم بعدها بشق جلبابها من طوقه وحتى ذيله ثم ترمي منديل رأسها بعيدًا وتختفي في الغيطان، حول ضبطها أكثر من مرة في حقل الذرة شرق البلد مع شاب من شباب القرية، تؤهله للدخول إلى الحياة الزوجية، حول صراخها الذي كان لا ينقطع ليلًا ونهارًا في وجه الشيخ برهامي بأن يطلقها.

سترث منصورة الكثير من بيوته المتناثرة على أطراف القرية، فالشيخ برهامي كان يحب كثيرًا أن يحول أمواله السائلة إلى بيوت كثيرة متناثرة في ربوع ميت رهينة، كانت لديه عقدة الجدران حيث إنه تربى في كنف أب يعمل كلافًا ولا يمتلك جدارًا، بل يطعم الماشية ويعتني بها ويربيها، ثم ينام معها في زرائب عائلة العمدة، تهز نور رأسها فجأة بغيظ، بالتأكيد أن الجثة المتفحمة هي لأحد عشاق منصورة، ولكنها لا تعرف بعد مَن هو.

******

فجأة، أصبحت ميت رهينة بناسها وأبقارها وبيوتها ومقابرها وأشجارها تجثم على أنفاس صلاح وتكاد تخنقه، تبلورت في أنفه بوضوح رائحة نور التي طالما حاول محاصرة مكوناتها، صارت مكونات تلك الرائحة شديدة الوضوح لأنفه الآن، وأصبح لا يطيقها، كانت خليطًا من هواء سرداب مغلق منذ آلاف السنين، ودخان ناتج عن طلقة مسدس ما، وتراب مقبرة مبللٍ حديثًا. لا يدري من أين علقت بنور هذه الرائحة، وهي تكاد لا تتحرك من مكتبة جدها المعطرة طوال الوقت برائحة ياسمين حادة؛ فنافذة غرفة المكتب الكبيرة المرسوم على زجاجها المعشق زهور خضراء، تطل على حديقة أشجار المانجو والبرتقال والليمون والياسمين.

تتجمد الأسئلة على وجه صلاح، حتى تكاد نور أن تقرأها بكل بساطة، وتتجمد الأسئلة على وجهها، ولكن صلاح يحاول جاهدًا قراءتها، غير مصدق نفسه أو أي شيء على الإطلاق.

يظن صلاح أن خالد الطوبجي هرب من ميت رهينة، ومن الضابط محمد أبو العينين الذي استدعاه منذ أيام للتحقيق في حريق المجمع الثقافي والمكتبة. تلوح على شفتي نور الغريبتين شبح ابتسامة منتصرة، فللمرة الأولى استطاعت جلب أحد ضحاياها بنفسها ودون مساعدة أحد على الإطلاق.

كانت قد انتظرت حتى نامت هاجر، وبعد صلاة العشاء وفي عزِّ نشوة خالد بانتصاره على صلاح بحريق المكتبة، ارتدت ملابس التسول، التي تتنكر فيها وتجعلها تشبه كثيرًا امرأة عجوز، وسارت خلفه حتى محطة البدرشين، وهناك أقنعته ببساطة أنها تريده على انفراد في موضوع خطير.

وفي الطريق سرقت من جيبه تليفونه الفضي اللامع وألقته في ترعة المريوطية خلسة، ثم قالت له إن صديقه صلاح مريض، وهو ينتظره لعقد جلسة صلح في قصر الشوَّاف، ولسوف يتنازل عن المحضر الذي قدمه ضده، نظر إليها مستهزئًا، ويبدو أنه لم يكن لديه ما يفعل فهز رأسه ومضى أمامها، وهو يطوح يده دون مبالاة. سارا في مِدَقٍّ مختصر عبر الحقول.

طوال الطريق كانت نور تحدث نفسها بأنها ستجري هاربة وعائدة إلى القصر، إذا ما اعترض أحد المارة طريقهما، وبأنها لو لم يكن لها هدف آخر إلا حذف هذه الابتسامة اللزجة الجامدة الملتصقة بوجهه من الوجود لكفاها هذا وأكثر. كانت ابتسامة الشيخ خالد هي الترجمة الأكثر دقة، لليقين المطلق، كانت ملتصقة بوجهه ليس تعبيرًا عن أي شيء، ولكن ليقينه المطلق بأنه المحامي الوحيد المُعتَمَد لله تعالى على هذه الأرض، وبأنه

يقوم بدوره تمامًا حيث يرسل أعداء الله إلى الجحيم، ويرسل أحباءه وعبيده المطيعين إلى الجنة.

لا شيء كان يشبه سعادة نور، حين أغلقت عليه المكتبة وظلت تتأمله بعينيها الضيقتين، أصاخ السمع لأنين صوت بشري آتٍ من بعيد، يبدو أنه وُضع على فمه شريط لاصق يمنعه من الصراخ... هنا فقط اختفت ابتسامته تمامًا، وحلت محلها تعبيرات تنم عن مشاعر متباينة مثل الندم حين فتحت له الجدار، فاقشعر جسده ولكنه لم يحاول حتى الهرب مستهزئًا بضآلة جسد هذه العجوز، مثل الشعور باليأس، وهو يمد يده متحسسًا جيب بنطلونه الجينز بحثًا عن تليفونه الجوال، مثل الشعور بالحزن وهو يرى نهايته أمام عينيه هكذا... وقد جاءت مبكرة جدًّا ولم يستطع لها دفعًا. اختفت ابتسامته تمامًا وحلت محلها كلمات مضطربة وغاضبة ومتوسلة لم تتبينها، فلثغته كانت بالفعل مروعة وتدعو إلى الرثاء، ربما كان آخر ما قاله: «يلعن أم هذه الحياة التي جعلت مسخًا مثلك يوقع بي».

******

ذبلت هاجر كثيرًا في الأيام القليلة الأخيرة، بدت فجأة وكأنها في التسعين من عمرها، كان موظف الشهر العقاري هو آخر مَن رأته قبل اختفائها؛ حيث قامت ببيع كل ما تملك لنور، لم يفهم صلاح سبب موافقة هاجر على هذا البيع، متجاوزة ردود أفعال ابنتها ليلى الشوَّاف، ولكنه يخمن أن نور استغلت غياب أمها، وغياب ذاكرة جدتها هاجر التي كانت في طريقها إلى التلاشي التام؛ فهاجر تدعو خطيبته داليا باسم حفيدتها نور، وتظن أحيانًا

أنها ابنتها ليلى، وتسهو عن الطعام والشراب، وتتوه عن طريق العودة إلى البيت بعد أن تأخذها قدماها بعيدًا حتى تصل إلى قبر أدهم الشوَّاف الرخامي الفارغ.

تشير نور إلى الخفير الأخرس بيديها لكي يذهب للبحث عن هاجر، بعد أن تفكر قليلًا: «ستجدها عند قبر جدي». أو «ستجدها جالسة تحت شجرة التوت العجوز عند ترعة المريوطية» أو «ستجدها واقفة عند البوابة الحديدية أمام بيت المرحوم عبد الجبَّار أيوب».

لا تحتفظ ذاكرة ميت رهينة طويلًا بأسماء الفقراء أو اللقطاء منهم أو الهمل، فرغم الاختفاءات المتكررة لبعضهم، إلا أن الضابط محمد أبو العينين يصر على اختصار قائمة نور هكذا: «حالات اختفاء قسري في ميت رهينة»: «الشيخ خالد الطوبجي!»

نور تفهم أن عبد الجبَّار أحد أعيان ميت رهينة، ولكن تم إغلاق التحقيق في اختفائه إلى الأبد، متهمين ابنه الأكبر عبد الموجود بقتله، لكن لماذا لا يذكرون شيئًا عن اختفاء ابن ستيتة أو سلمى أو عزوز بن بهانة من أمام أعينهم هكذا فجأة؟ هل كانوا يعتبرونهم ذبابًا مثلًا؟ أم مجرد أشباح اختفت فجأة كما ظهرت فجأة؟

إن نظرة واحدة إلى عيني منصورة زوجة الشيخ برهامي كافية ليعرفوا حقيقة ما حدث...

كان جسد منصورة يفور مثل قدر وُضعت في فرن حامٍ، وكانت منصورة لا تدري ماذا تفعل بهذا الجسد الهائج؟ فزوجها الشيخ برهامي عجوز، يعذبها طوال الليل وهو يتفرج على عريها ويتلمظ شفتيه قليلًا ثم ينام، يرفع جلبابه كل شهر أربع مرات، وعادة لا يلحق أن يدخله ليسكب ماءه فيها، فبعد ثانيتين يقذفه على الملاءة أو على فخذها، وسرعان ما يعلو شخيره، ويزداد فوران دمائها.

تشعر بالقرف فتستحم مرارًا وتذهب لتشم هواء نقيًّا في الغيطان. تسمح لمَن تصادفه من شباب القرية أن يعيد تكوير ثدييها، أن يتحسس بطنها وهو يهمس في أذنها بأنه مثل العجين وقد تخمر، أن يقبلها في فمها لتتذوق لسانه ولا تستطيع فتح عينيها من فرط المتعة، أن يحيط خصرها بذراعه القوية ويجذبها نحوه ليهصرها في حضنه، ولكنها تستيقظ ممَّا يشبه الغيبوبة وتبتعد عنه بسرعة، إذا ما حاول طرحها أرضًا؛ حتى وجدتْ ضالتها فيه، فهو بعيد عن الشكوك ولا يتحدث كثيرًا، وحتى إذا ما تحدث، فالقرية تعتبره شبه عبيط، عزوز ابن بهانة هو الوحيد الذي اقتحمها، وغيبها في فردوس كانت على استعداد أن تضحي بحياتها لكي يدوم إلى الأبد.

كل ما في قصة منصورة صحيح جدًّا، فلقد ضربها نوم ثقيل بعد العشاء في التاسعة تمامًا، وهي متكئة على الكنبة تفكر في غياب زوجها الشيخ برهامي ليلتين بنهاريهما، وتتردد هل تذهب إلى عزوز ابن بهانة، حيث ظل ينتظرها في الخُصّ، بينما رحل رجال جلسة الأنس كلهم إلى بيوتهم، بعد أن سألوها عن الشيخ برهامي فقالت إنه راح مشوار في البدرشين، ظلت تحاول إزاحة

شعور قوي مؤكد بأن زوجها الشيخ برهامي قد مات أمس وشبع موتًا.

لا تعرف منصورة كيف صرَّفت الأقدار ليلتها بهذه الطريقة، كيف تلاشى شوقها إلى جسد عزوز بن بهانة، كيف برد فوران جسدها هكذا فجأة حتى ضربها هذا النوم الثقيل؟! نظرة واحدة إلى عيني منصورة الحزينتين حزنًا مشوبًا بالفقد والحسرة على احتراق جسد عزوز بن بهانة، كانت ستدلهم على الحقيقة.

تتجمد الأسئلة على وجه نور، ولا يستطيع صلاح قراءتها، فمنذ الصباح وسلمى تطارده. يحس أنها ستظهر له في ركن ما لتواصل شد قميصه من دبر، وتطلب منه أي شيء كعادتها: «والنبي، يا صلاح تساعدني في نقل الكرسي الثقيل»، «يا رب يخليك يا صلاح، اطلب لي هذا الرقم»، «تعال يا صلاح، والنبي، عندي كلمتين»... لم يفهم صلاح أبدًا كيف تقبل سلمى بطرد نور لها هكذا، وترحل في سلام دون مقاومة، ودون إثارة المزيد من المشاكل؟

هو وحده يعرف قدر افتتانها به، كما يعرف أن الشابة المراهقة حين تحب شابًّا إلى هذا الحد وتطارده دون خجل، وتظن أنه سيكون ملكها وحدها، بل تدفع في سبيل تحقيق ذلك ثمنًا باهظًا، فهي لا تتخلى عنه إلا بكارثة أكبر من كارثة طردها والرحيل بسلام.

تنهشه الشكوك حول اختفائها الفجائي هذا، بالطبع يصدق كل ما قالته نور عنها؛ خصوصًا علاقتها بابن ستيتة، ولكنه لا يصدق

على الإطلاق بأنها رحلتْ هكذا بسلام، لم يحذف صورها الفاضحة معه من تليفونه الجوال، إلا بعد أن فرجها لداليا، وبعد أن تأملتها داليا بتمعن وملامح وجهها تنقبض بقرف، قالت ببراءة وخوف بالضبط ما كان يفكر فيه: «هذه البنت لن تتركك إلا قاتلة أو مقتولة».

كان يجلس مع نور مشوش الذهن، يعرف أن نور لا تحب الحديث أبدًا عن سلمى، بل تصرخ في وجهه كلما بدأ الكلام عنها: «اطوِ هذه الصفحة يا صلاح، وانظر إلى مستقبلك»، أو تسخر منه: «هل تفتقدها الآن يا صلاح، أنا فعلًا لا أفهمك؟!».

يطول صمتهما أكثر ويعلو الميكرفون في عزاء الشيخ برهامي، فيغيبان في صوت المقرئ الجميل، وهو يتلو الآية الكريمة: «واستبقا الباب، وقدَّت قميصه من دُبرٍ وألفيا سيدها لدى الباب».

******

الرائي الصالح

تشي طبقات الضباب التي تبتلع سماء ميت رهينة صباحًا بأنها قرية غارقة في الأسرار، وتشي شمسها الساطعة التي تزيح طبقات الضباب بعيدًا بمجرد طلوعها الفجائي بأنها قرية تعيش دون أسرار. ميت رهينة قرية تشبه المدينة، ومدينة تشبه القرية. ميت رهينة لا تُشبه إلا نفسها، يمر الغريب في طرقاتها وهو يهز رأسه حائرًا، من أين يبدأ خطواته على أرضها لكي يفهمها؟ فيستطيع اتخاذ قرار بمحبتها أو كراهيتها.

يمسح الغريب رأس كلب ضال هرم عمره حوالي عشرة أعوام، فينظر إليه الكلب بعينيه الواسعتين المنكسرتين قليلًا، ويرفع رأسه إلى السماء ويزوم شاكيًا إلى ربه عدم قدرته على الكلام.

يهز الغريب رأسه علامة على الفهم ويتأمل من جديد المكان... ميت رهينة قرية تتوسط أطلالًا أثرية عمرها أكثر من خمسة آلاف عام، ويحدها النيل من الشرق، ويسير أهلها إلى جوار بهائمهم، وهم هائمون في حزن عتيق تغلفه ضحكات عالية.

رغم أن الرياح كانت تحمل ذرات اللقاح الطائرة إلى إناث النخيل، إلا أن هذه الظهيرة تحديدًا، سكن فيها الهواء فجأة، كأنه يصيخ السمع، وكان باستطاعة المرء لمس لزوجة وثقل ثوانيه، وهي تمر بيديه، صمتت العصافير عن إطلاق زقزقتها، وخفتت حركة فتح وغلق الأبواب. كان شارع الجسر قد تحول من حالة

الحركة إلى حالة السكون، كما لو كان كادرًا في فيلم، توقفت آلة تشغيله.

سارت سارة ببلوزة بيضاء وبنطلون أبيض، وكان شعرها الأسود ملمومًا على شكل ذيل حصان، فمها المدور الصغير منفرج أثناء المشي بسلام، تخفي نصف وجهها القمحي الجميل بنظارة شمسية بنية كبيرة. كان جسدها الرشيق مثل سنبلة قمح ممتلئة بالحبوب، تتمايل وهي تسير منحنية إلى الأسفل قليلًا.

فجأة تمسمرت قدماها في الأرض، وأبت مواصلة الحركة، حيث شعرت بأعين كثيرة تحاصر أعضاء جسدها، شرعت أنفها والتفتت وراءها، فوجدت الشارع خاليًا تمامًا ولم تلمح فيه حتى عين قطة،
لا تعرف أين تختبئ تلك الأعين، ولكنها تحس بسخونة نظراتها على جسدها، فتخجل من رجرجة مؤخرتها الريانة واهتزاز ثدييها كلما خطت خطوة إلى الأمام.

توقفت، أرادت أن تنشق الأرض لتبتلعها، وتضرعت إلى مريم العذراء أن تنقذها، لم يعد الأمر مجرد سخونة نظرات مجهولة وحادة، وإنما أصبحت الآن تستشعر أنفاسهم الحارة وهي تقترب من عنقها.

تجمدت الدموع في عينيها، وهي تستمع بوضوح إلى جئير أحدهم: «سكتنا وتحملنا كفركم، فتماديتم وركبتم نساءنا». أغرق لعابه وجهها وسال على لحيته، كان هذا آخر ما تتذكره قبل أن تغيب عن الوعي تحت أجساد حوالي عشرين شابًّا ورجلًا.

ستحاول ميت رهينة نسيان هذه الظهيرة، بالتفنن في إعادة ترتيب تفاصيل هذا اليوم، وسيتعمد أهلها خلط الكلمات التي قيلت فيه... الكلمات التي كانوا يسمعونها بوضوح من خلف شيش شبابيكهم، فمرة يؤكدون أن سارة مرت في الصباح ومرة في المساء، ومرة أخرى في الليل وقد كانوا نيامًا، يعيدون ترتيب خط سير أبنائهم المتورطين في حادثة الاغتصاب، بل تذكَّرتهم الأمهات وأعينهنَّ مفتوحة
لا يطرف فيها رمش، بأنهم هم- أبناؤهم وأزواجهم أنفسهم- لم يكونوا في هذا اليوم تحديدًا في ميت رهينة منذ الفجر.

فقط، صلاح يتذكر كل شيء جيدًا، يتذكر أنه رأى كل ما حدث في هذه الظهيرة، وأنه وإلى الأبد سيصيبه الغثيان كلما شم رائحة طشة الملوخية، التي حلقت فوق رءوس العباد كالمصيبة، تابع أولى خطوات سارة أخت مايكل سمير، وهي تتلفت بوجل خلفها بحثًا عن واحة الشوَّاف، أرادت أن تسأل عن أخيها مايكل، فمايكل تزوج منذ شهر، وفي نهاية شهر العسل دخلت عليهم إستير ابنة خالته وزوجته، وبكت بكاء حارًّا، وهي تحكي لهم أنه لم ينم إلى جوارها على السرير طوال هذا الشهر، وأنه وضع قرصًا مدمجًا في الكمبيوتر ينوح طوال الوقت بأغنية وديع الصافي:

- «الليل يا ليلى يعاتبني، ويقول لي سلم على ليلى».

وأنها كانت تستيقظ في منتصف الليل، لتجده مستلقيًا على الكنبة دامع العينين، وبعد أن يردد اسم ليلى مرارًا، ينشد بيت قيس بن الملوح أثناء نشيجه:

أمرُّ على الديــار ديــار ليلى

أقبـل ذا الجـدار وذا الجـدار

وما حب الديار شغفن قلبي

ولكـن حب مَن سكـن الديـار

انتظر مايكل حتى اكتمل شهر على زواجه، ثم هرب هكذا ببساطة من عش الزوجية، ولا تعرف إستير الآن أين زوجها.. تذكرت سارة حديث أخيها عن جمال وروعة واحة الشوَّاف وعن صاحبة الواحة ليلى، وذات ليلة وكانا يجلسان تحت ضوء قمر مكتمل في الشرفة، لمحت سارة في عينيه لمعة تعرفها جيدًا، وهو يصف لها جَمال ليلى، فأمسكت بذقن أخيها الأكبر، ونظرت طويلًا إلى عينيه وهمست: «خلِّي بالك يا مايكل، الموضوع مش هزار، الموضوع ده فيه أرواح هتضيع».

لم يستغرق الأمر إلا دقائق معدودات، حتى اختفى جسد سارة تحت أجسادهم، قفز صلاح إلى الشارع، كان يعرف بعضهم والبعض الآخر يراه للمرة الأولى في القرية، حاول أن يفك اشتباك أجسادهم ليمر من الدائرة المحكمة الغلق حولها، ولكنه لم يستطع.

لم يفهم لماذا يسألونها عن مكان أخيها مايكل سمير، وفي الوقت نفسه تعلو أنفاسهم المتهدجة، في البداية ظن أنهم يضربونها، أو

يصرخون في وجهها، ولكنه بعد وهلة كاد يصرخ وهو لا يصدق أن ما حدث أمام عينيه قد حدث بالفعل، وفي عزِّ الظهيرة.

كانت الحلقات الداخلية من الدائرة تفك نفسها بنفسها بمجرد خروج الرجال منها تباعًا مغلقين بقرف وسرعة سحابات بناطيلهم، وزامين شفاههم المنفرجة عن شعور يصعب وصفه، انسحبوا من حولها فجأة، كما تحلقوا حولها فجأة، وأصبح صلاح وجهًا لوجه أمام عري مُغْتَصب على الأرض الطينية، خلع قميصه بسرعة وستر جسدها، ورفعها من فوق الأرض وهي بين الحياة والموت، ثم نظر خلفه لتطالعه ابتسامة أحدهم قبل أن يغلق خلفه بوابة بيت الشيخ خالد الطوبجي القديم المهجور منذ انتقاله إلى قصره الجديد على الترعة بعد أن فتح الله له الفضائيات.

******

هذه المرة أرسلت نور خفيرها الأخرس وكل الفلاحين والخدم والجيران بحثًا عن هاجر؛ فهاجر خرجت ذات مساء خلسة ولم تعد أبدًا إلى ميت رهينة، خرجت تاركة خلفها كل شيء حتى ذكرياتها التي دفنتها هناك، قبل أن تذهب إلى الأبد.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تجرب فيها نور الشعور بالحزن والفقد والانكسار، لم يتبق في القصر الكبير إلا عفاف رفيقة ليلى وأم صلاح، ومَن كانت تعتبرها هاجر ابنتها.

ازداد وجه عفاف الجامد جمودًا وازدادت عيناها المتسعتان اتساعًا، وأخذت لساعات طويلة تجلس على الأرض، ساهمة

تبحلق في ذكرياتها لكي تفهم الآن تخريفات أمها رحمة عن جدتها تبارك وأبيها شحاته، عندما وضعت رحمة ابنتها عفاف، نظرت الجدة تبارك في وجهها طويلًا، ثم نظرت إلى السماء صارخة: «ولكنك وعدتني بفتًى صالح من ظهره!» تقول رحمة إنها لذلك سمَّت مولود ابنتها عفاف: «صلاح» بمجرد أن استمعت إلى صراخه.

تقوم عفاف بنفض المراتب ومسح التراب عن الأثاث، وهي تتأمل الغرف الفارغة من خطوات وصخب ليلى وهاجر وتمسح دموعها، تستمع إلى رنة تليفونها الجوال الصغير بصوته العالي، وهو يغني: «دار يا دار يا دار، راحو فين حبايب الدار؟» وهي تهز رأسها على نشيج صوت وديع الصافي.

تلبي عفاف كل طلبات نور وهي تنظر إليها بريبة ولا تكلمها أبدًا، رغم محبة نور لها ومواصلة معاملتها مثلما كانت تعاملها ليلى وهاجر، فهي تحصل على مرتب من عائلة الشوَّاف، منذ صاحبت ليلى في رحلتها التعليمية وسكنها بمفردها في شارع جامعة الدول العربية بالمهندسين حتى هذه اللحظة، ولكنها في الوقت نفسه كانت تُعامل كأحد أفراد العائلة، وبينها وبين ليلى أسرار سنوات من العِشرة واللعب معًا واكتشاف الحب والجنس في الوقت نفسه، وكان يمكنها أن تتشاجر مع ليلى وتصرخ في وجهها: «تعالي قابليني، لو شفتي وشي تاني»، ثم تخطف طرحتها وتشيح بيدها تاركة القصر لشهور كاملة، ويصل إليها مرتبها حتى تعيدها هاجر مرة أخرى.

من أسبوع إلى آخر، كانت تصل إلى نور أصوات النسوة اللائي يحضرن لزيارة عفاف من القرى البعيدة، قائلات إن هاجر كانت معهن منذ أيام، ولكنها تركتهن ليلًا واختفت ثانية، شوهدت وهي تجلس إلى جوار مرجيحة، ربما كانت تُشبه على قاربيها الخشبيين، أخذت من صاحبها عودين قصب ومصتهما، ثم دعت له بطول العمر ومضت في طريقها.

شوهدت وهي تخلع جلبابها الأسود لتظل بجلباب صيفي قطني خفيف، أزاحت مَن تجلس أمام فرن طيني، وأخذت من يدها السيخ والمطرحة ومسحت دموعها قائلة لها: «عنك يا أختي»، وقرفصت أمام الفرن ساعتين كاملتين، وهي تخبز العيش الشمسي وأقراص الرحمة وابتسامتها الطيبة، لا تفارق وجهها الذي زاده وهج الفرن احمرارًا.

قالوا إنها مرت وقت أذان المغرب على بيت امرأة عجوز فقيرة تخلل قشر اللارنج، فظلت تساعدها حتى وضعا البرطمانات إلى جوارهما، وتحدثا عن ذكرياتهما لما كانت القرية قرية حتى فجر اليوم التالي، وهما تجلسان على عتبة البيت... تحدثتا عن التفاف الصبية ليلًا حول مصابيح الكيروسين والكلوبات، التي تضيء طرقات ميت رهينة ليتأملوا فراشات دودة القطن المتجمعة حولها... عن العربة التي يجرها حمار وتأتي محملة بألواح الثلج ليدور الأطفال حولها متلمسين برودته وحالمين بأخذ قطعة منه... عن الأزيار والقلل التي كن يتفنن في الاعتناء بها ووضع أوراق النعناع أو ماء الورد في حلوقها وعن طعم المياه فيها... عن أكل السمك يوم الجمعة..

تضحك هاجر قائلة: «كنت آكل قراميط ترعة المريوطية كل يوم في الشتاء»...

تحدثتا عن التفافهم في البيوت حول مصباح الكيروسين نمرة خمسة؛ ليروا الأشباح والعفاريت وهي تخرج من أشعته البرتقالية، عن تحلقهن حول الكانون لطبخ صنوف الطعام، وهنَّ يجمعن الحكايات في حجورهن... عن الضحكات الصاخبة، التي كانت ترج الطبلية والحصير.

تتحسس هاجر الحصير الذي تنام فوقه وتشم رائحته بحنان، وتظل تتحدث حتى تكتشف أن المرأة نامت إلى جوارها وعلا شخيرها، ولما استيقظت العجوز في الصباح وجدت أن السيدة الغريبة رحلت بعد أن أكلت نصف برطمان قشر نارنج مخلل برغيفين كاملين.

قالوا إنها شوهدت في إحدى القرى البعيدة قبل شروق الشمس، وهي تسير خلف البهائم لتلم روثها، ثم جلست على حافة الترعة لتكورها وتخلطها بالقش، وتعمل منها أقراصًا لوقود الفرن الطيني، ثم تركتها مكانها تحت الشمس الحارقة لتجف.

قالوا إنهم رأوها، وهي تكنس طرقات العزيزية بمقشة صنعتها بنفسها من سعف النخيل. حكوا عنها حكايات كثيرة وكانت كلها تعلن وبشكل مؤلم أنها لم تعد تتذكر شيئًا سوى اسمها، فالنسوة يسألنها عن اسمها فتقول دون تردد: «هاجر»، ثم تصمت... يستغربن قليلًا لأنهن لم يعتدن ذكر أسمائهن في هذه السن، بل إنهنَّ عادة يكنَّ قد نسينها، فبعد زمن تكون إحداهن قد أعيد

تسميتها باسم ابنها أو ابنتها، وإذا كانت عاقرًا، فالأهل والجيران يجعلونها أم أبيها.

******

تقيم هند القاضي اليوم صوانًا كبيرًا بمناسبة المولد النبوي، فرشت الأرض بالرمل الملون وزينت أعمدة الصوان بعرائس وأحصنة المولد المصنوعة من اللمبات الكهربائية الملونة، دعت كل أعيان ميت رهينة من أصدقاء عبد الجبَّار وتجار الموبيليا وأقاربها وشركاء زوجها، وعلى رأسهم طبعًا المقدس فانوس جرجس، وكذلك ضباط وعساكر قسم الشرطة...

مدَّت الموائد ووضعت عليها ذكور البط والحمام المحشي بالفريك والأرز وديوك الرومي واللحم المحمر والفطير المشلتت وطواجن الخضار الناضجة على نار الفرن والأرز المعمر، ودوارق الماء المثلج الممتلئة من السبيل، الذي بنته على بوابة بيتها للسابلة من الفلاحين والغرباء رحمة ونورًا على روح عبد الجبَّار أيوب.

كان يُسمع من بعيد دقات الطبل البلدي ونغمات المزمار وصيحات الشباب، وهم يلعبون لعبة التحطيب.

تبتسم نور بمرارة وتفكر في هند هذه التي فقدت في شهر واحد زوجها واثنين من أبنائها، وما زالت لديها القدرة على الحياة وعصر مباهجها حتى القطرة الأخيرة! تفكر فيما ستفعله غدًا لتبعد عفاف عن ميت رهينة، تحاول منذ الصباح أن تخترع لها

سببًا يبعدها عن القصر؛ فعفاف لا تتوقف عن السير وراءها من غرفة المكتب إلى حافة البِركة، وكأنها تشك في أمرها، تبحلق إليها بعينيها الواسعتين البريئتين كعيني جاموسة بكماء، وبمجرد أن تبادلها نور النظرات، تخفض على الفور عينيها ناظرة إلى الأرض.

نور متأكدة أن هند القاضي والمقدس فانوس جرجس سيزورانها في صباح الغد، بعد أن يَنفضَّ صوان مولد النبي، سيجدان سببًا لزيارة القصر، حتى ولو كان سببًا ممجوجًا مثل السؤال الغبي: «هل عادت هاجر؟» كل ما عليها أن تفعله هو أن تبعد عفاف تحديدًا عن القصر، وأن تترك بابه مفتوحًا ليدخلا، لا يجدا أحدًا فيواصلان الدخول، يلاحظان ضوء الأباجورة في غرفة المكتب المفتوح بابه، فيتابعان المشي وموسيقى مقدمة نشرة الأخبار تعلو في أذنيهما، حتى يصلا إلى محطتهما الأخيرة، مصيدتهما، شَركهما، وبأقدامهما.

نور متأكدة أن هند القاضي وفانوس جرجس لم يرياها بعد ولا يعرفان شكلها، وغدًا صباحًا ستكون هي المرة الأولى والأخيرة التي سيريان فيها حفيدة أدهم الشوَّاف.

******

بكى صلاح على صدر داليا طويلًا، بعد أن حكى لها ما حدث لسارة، سألها وسط نشيجه هل يترك ميت رهينة، فاحتضنت رأسه وهطلت دموعها على شعره لفترة، ثم أزاحته بعيدًا، وهي تنظر إليه بحنان وقسوة في الوقت نفسه: «طيب، ومَن سيعلمهم يا

صلاح، مَن سيهذب أرواحهم؟» وأضافت وهي تهز شعرها الجميل وتضحك: «أنا شخصيًّا لن أعيش إلا في ميت رهينة، سأرتدي الجلباب مثل بناتها حتى نغير شكل ملابسنا معًا أو لا نغيره، فليس مهمًّا ماذا نلبس أو كيف نتحدث، المهم أن نعلمهم ونتعلم، المهم أن نفكر كيف نحب ميت رهينة».

كل ما كان يغيظ صلاح ويجعله يفضل الموت، هو نكران الجميع لما حدث وكأنه لم يحدث إلا في مخه هو فقط، حتى سارة- التي أوصلها إلى محطة الميكروباص، بعد أن ألبسها جلبابًا من جلابيب أمه، ووضع لها في كيس بلاستيك مِزق ملابسها، وناولها تليفونها الجوال.. تحدثت فيه قليلًا مع مَن كانت تدعوه بـ «أبونا»- نظرت إليه يومها بدهشة، وهي تغمغم ردًّا على إصراره أن يذهبا إلى نقطة الشرطة: «طيب... طيب»، كان قد جهز نفسه أن يذهب معها إلى الضابط محمد أبو العينين لتحرير محضر ضد المغتصبين، وحين نبهها: «القسم... من هنا»، نظرت إليه باستهزاء وحيرة، وسارعت بركوب الميكروباص مختفية عن نظره، وعندما هاتفها في اليوم الثاني، قالت له بهدوء: «أنا نسيت كل ما حدث، فانس...».

تضع داليا على صفحتها بالفيس بوك صورة لسارة مظللة وجهها حتى لا يتم التعرف إليه، وإلى جوارها صورة لهند القاضي والمقدس فانوس جرجس، وكتبت تحتهما: «يحدث في ميت رهينة».

ازداد همس الناس في القرية عن هروب العجوز هند القاضي البالغة من العمر سبعة وخمسين عامًا مع فانوس جرجس البالغ

من العمر ستين عامًا، لم يصدق صلاح كلمة واحدة ممَّا يقولون، فكر أنه ربما يكون ما حدث لسارة هو سبب اختفائهما المفاجئ.

دخل صلاح إلى مكتب محمد أبو العينين، فنظر الضابط إليه متبرمًا وقال: «الموضوع كبر يا «أبو صلاح». واضطر القسم أن يتخلى عن مخاوفه من إثارة موضوع يشعل الفتنة الطائفية، فأعلن عن حادثة اغتصاب سارة في عزِّ الظهيرة، وعن اختفاء ثلاثة من أهل ميت رهينة: الشيخ خالد الطوبجي وتاجر الموبيليا المعروف فانوس جرجس وهند القاضي أرملة عبد الجبَّار أيوب.

تبتسم نور وهي تقرأ الجريدة، وتقول دون صوت لنفسها: «أسقطوا هذه المرة أيضًا متولي الحرامي».

كانت نور قد بحثت عن اسم متولي الحرامي في قائمة الأسماء على تليفون فانوس جرجس، طلبت الرقم، وأمرت فانوس وهي مصوبة مسدس جدها إلى رأسه أن يجعله يحضر خلسة، دون أن يراه أحد، ودون أن يذكر اسم المكان، صرخت في وجه فانوس: «قل له فقط: تعال، نحن فتحنا المقبرة، وسيفهم متولي الحرامي على الفور».

الأكثر صعوبة بالنسبة إلى نور ليس القتل، وإنما تتبع المكالمات والتجسس على التليفونات الجوالة، فهم يعرفون مَن هاتف مَن، ومِن أين هاتفه، المصيبة الحقيقية أن كلَّ شيء يموت، ما عدا الأصوات فهي تظل معلقة في الأثير إلى الأبد. كانت تفكر ماذا تفعل بهذه التليفونات أكثر ممَّا تفكر ماذا تفعل بهذه الجثث.

اضطرت مساء إلى الذهاب متنكرة إلى فناء بيت متولي الحرامي، لتلقي فيه تليفوناتهم الثلاثة، وكانت تتصل من أحدها بالآخر خلال ساعة كاملة، حتى يبدو الأمر وكأنهم كانوا يحاولون الاتصال ببعضهم البعض، ولم يردوا حتى التقوا في بيت متولي الحرامي، مسحت بصماتها على التليفونات، وتركتها أسفل مصطبة بيت متولي الحرامي؛ لتواصل رنينها وحدها.

اصطحب صلاح الملازم أول محمد أبو العينين، وذهبا معًا إلى قصر الشوَّاف، دار الضابط في القصر وحول البِركة وتجول في الأرض حتى وصل إلى المقبرة الرخامية، وبالطبع لم يجد شيئًا، تمتم بقرف: «صحيح... قصر أشباح»، سأل نور: هل قابلت فانوس جرجس والحاجة هند؟، فأجابته بالإيجاب ذاكرة موعد زيارتهما بالدقيقة والثانية، وأنهما سألا عن الحاجة هاجر، التي لم تعد بعدُ، ثم ذهبا رافضين الدخول لشرب الشاي.

ظل الضابط في القصر خمس دقائق بالضبط، رافضًا أن يشرب شيئًا، وكان ينظر إليها طوال الوقت بريبة، سألها مرتين: هل هي متأكدة أنها ابنة ليلى وحفيدة أدهم الشوَّاف؟، وكتب شيئًا ما في نوتة صغيرة ومتسخة، وقبل أن يخرج أعطته نور صورة هاجر وطلبت منه باستعطاف أن يعلقها على جدران القسم، فلعل وعسى أن يجدها أحدهم ويعيدها إلى بيتها.

خرج الضابط تاركًا صلاح معها، أغمض صلاح عينيه ووضع يده على رأسه، وهمس بصوت حزين: «يقولون يا نور إن أرض الشوَّاف بها بئر مسحورة تبتلع مَن يسير عليها، يبررون

اختفاءات ميت رهينة بوجود هذه الأرض الملعونة، وهذه الحفرة الملعونة».

كانت نور عصبية ومنهكة، وكأنها خارجة من مذبحة حقيقية، قامت فيها بدور السفَّاحة، أخذت نفسًا عميقًا للسيطرة على ثورتها وغضبها، ولكن صوتها خرج عاليًا وأكثر سخرية من أي وقت مضى: «وأنتَ ماذا تقول يا صلاح؟!» ثم ظلت تصرخ دون توقف، ورذاذ لعابها يتناثر على وجهه، فلا يستطيع من فرط دهشته أن يمد يده ليمسحه، كان صراخها يعلو حتى كادت عروقها النحيلة تنفجر.

قالت إنه هو بالذات أمل هذه البلاد، وإنها تعبت لتجعله يفهم ويقرأ ويتعلم ليرى، ولكن ها هو الآن يفكر مثل أهل ميت رهينة المساكين تمامًا. كان جسدها يرتعد من الغضب، وعلى وشك الانهيار، أجلسها بهدوء على حافة البِركة، وقال لها بحنان: «استريحي يا نور»، وغرقا في صمت ثقيل، قطعته هي نفسها بعد فترة طويلة بنشيج حزين ممتلئ بالسخرية والمرارة: «عن أي حفرة تتحدث يا صلاح، عن أي حفرة؟!». استنشق رائحة المقابر التي تفوح منها، تلك الرائحة التي تحملها معها أينما ذهبت، مصحوبة بتيار هواء بارد، كأنه يقف أمام فريزر الثلاجة، نظر طويلًا إلى عينيها الضيقتين، قائلًا ببطء وحزن يفوق حزنها: «عندك حق يا نور».

فجأة هدأت تمامًا، وعاد صوتها المتحشرج العجوز إلى سابق عهده، هتفت وكأنها تحدث نفسها: «يا الله... من هنا مر

الهكسوس، أكاد أستمع إلى سنابك خيل قمبيز الحاكم الفارسي، الذي احتل مصر».

ابتلعت ريقها وقالت بصوت باكٍ: «الأصوات لا تضيع أبدًا يا صلاح، إنها تظل إلى الأبد معلقة في الأثير». حاولت الابتسام وهي تنظر حولها، ثم قالت: «حاول أن تبعد عن أذنيك كل ما يشغلك في اللحظة الراهنة، اغسل روحك ممَّا علق بها، واسمع معي ما أستمع إليه الآن». وعادت إلى صمتها وهي تتطلع إلى السماء مشرعة أذنيها الصغيرتين، أخذت تهز ساقيها النحيلتين في فضاء بِركة هاجر التي عادت إلى سابق عهدها، في قاعها شبران من المياه الراكدة تعلوها الطحالب الخضراء وتطفو على سطحها ضفادع ميتة وبقايا فأر أكلت قطة نصفه.

فجأة استمع إلى ما يُشبه المواء الغريب، كان قادمًا من أسفل ماء البِركة الراكد نفسه، تلفت حوله فوجد نور جامدة كأنها تمثال، خُيل إليه أنها تستمع معه إلى هذا المواء الغريب، انتظرت أن يخبرها بما سمعه لتوه، ولكنه نهض فجأة ودون أن يودعها بكلمة واحدة ذهب، وهو يؤكد لنفسه طوال الطريق مرارًا: «لم يكن هذا الصوت مواء قطة أو كلبًا محبوسًا مثلًا، وإنما كان صوتًا بشريًّا يحاول الخروج».

******

لا يدري صلاح كيف وصلت ليلى الشوَّاف إلى صفحته على الفيس بوك، فهو يُسمي نفسه «زهر الصبَّار»، ويضع مكان صورته شجرة صبار صحراوية، كتب في خانة العمل: «حارسٌ

للتاريخ»، وكتب اسم مدرسته: «مدرسة الحياة»، وكتب في خانة وصف نفسه: «أحد المعذبين في الأرض»، وكتب في خانة الحالة الاجتماعية والعاطفية: «الأمر معقد»، وردَّ على سؤال: «من أي عاصمة؟» «أوَّل عاصمة على وجه الأرض».

ربما تلصصت ليلى الشوَّاف على تليفونه، ورأت صفحته وهي مفتوحة، فتح فورًا صندوق الرسائل عندما وجد اسمها ووجهها الجميل، كانت ترتدي بلوزة بيضاء بحمالات وشعرها الكستنائي المتموج منساب على كتفها الأيسر ليغطيه، ونظرة عينيها تبتسم للكاميرا أو لمَن يحمل الكاميرا، قرأ باهتمام:

«صلاح، أنا أتصل بعفاف كل يوم لأطمئن على نور والبيت وهاجر، عرفتُ أن نور أعادت أرض الشوَّاف إلى الدولة، بعد أن باعتها لها هاجر، وخيرًا فعلتْ، فهذه الأرض ملعونة. تعرف بالتأكيد أن نور
لا ترد على تليفوناتي، وعفاف كما يبدو تعرف عنها القليل، أنا في كندا، تزوجت مايكل سمير بعد أن اكتشفت أنه حب حياتي الأوحد.

لقد أسلم حتى يستطيع منح ابنة خالته إستير المسكينة حريتها، وبذلك خسر أهله في مصر من أجلي، كما خسرت كل شيء فيها من أجله، نعيش في سعادة تامة، نعمل أي عمل مُتاح لنا حتى لو كان غسيل الصحون في المطاعم، ونتعلم من جديد، نذهب هنا إلى الكنائس والجوامع لنعبد الله الواحد الأحد، نحب البشر ويحبوننا دون النظر إلى اللون أو الجنس أو الدين أو العِرق.

قالت لي عفاف: «إن هاجر لم تعد بعدُ إلى ميت رهينة، وهي تبرر سبب اختفائها إلى إصابتها بالزهايمر، بل تؤكد لي أنه السبب الوحيد، فهل هذا بالفعل من وجهة نظرك هو سبب اختفاء هاجر؟ وهل عرف أحدكم أين ذهب ابن ستيتة مثلًا؟ لا أجد كلمات لأشرح لك الأمر، ولكنني عرفت منذ يومين، وعن طريق المصادفة باختفاء الدكتور نور الدين والد نور..

عندما تتبعت آخر خطوات الدكتور نور، اكتشفت أنه ربما لم يمت كما هو معروف ومسجل في حادثة انقلاب واحتراق الأتوبيس السياحي على طريق أسوان السريع منذ عام تقريبًا، وإنما قد يكون قد تخلف عن هذه الرحلة وزار ميت رهينة، ولم يخرج منها حتى هذه اللحظة..
لا أستطيع أن أكتب إليك أكثر من ذلك؛ لأنني بالفعل لا أفهم شيئًا، هي مجرد تخمينات في عقلي المشوش، كل ما أعرفه أنني أنجبت روحًا إبليسية غريبة.. أنا حتى لا أعرف لماذا أكتب إليك ما أكتب الآن».

تعرف ليلى أن صلاح قد قرأ رسالتها، حيث ظلت علامة «صح» ماثلة أمام عينيها، ولكنه لم يرد عليها، تعرف أنه يتجول الآن- دون شكٍّ- في صفحتها مثلما تتجول هي في صفحته، تكاد تحفظ كل ما فيها عن ظهر قلب، فصفحته فقيرة جدًّا، عدد أصدقائه خمسة وثلاثون صديقًا وصديقة، خمسة وعشرون منهم بأسماء مستعارة مثل اسمه، يسمون أنفسهم أسماء غريبة مثل: «النسر المحلق»، أو «محبوس هنا»، أو «المخنوق»، أو «الخنفس الحائر»، وعشرة فقط يضعون أسماءهم الحقيقية

وصورهم الحقيقية، وأولهم تلك الجميلة التي تشبه هاجر في شبابها كثيرًا: داليا طاهر.

كانت ضحكات ليلى الشوَّاف تعلو كلما تصفحت صفحتها أكثر، حتى جاء مايكل من حجرته ليعرف على ماذا تضحك هكذا، أجلسها على ركبتيه ووضع يده على بطنها التي تحمل ابنهما، أو ابنتهما، وأخذا يضحكان معًا بصوت عالٍ، وهما يتأملان صفحة داليا بإعجاب.

كل ملصقاتها كانت تحت عنوان: «مبادرات شبابية مصرية»، وكانت تكتب أعلى كل صورة من الصور الطريفة التي التقطتها، جملة خفيفة الظل، مثلًا: «لا تلق زبالة في الشارع يا وسخ، فشوارع ميت رهينة ليست صندوق قمامة أهلك». «يا أخي، يا شيخ الغبرة، لست الله يا أرذل خلق الله حتى تحاسب الناس بدلًا منه». «تكلم بصوت خفيض يا أيها الحمار حتى أستطيع تمييز ما تقول». «اكنس الشارع أمام بيتك يا أخي المواطن، فأنت على كل حال لست بقرة ولا تعيش في زريبة». «لا تنثر رذاذ لعابك في وجوه الجماهير يا أيها الناشط السياسي الجهبذ، وأنت جالس طوال اليوم في الفضائيات، قرفتونا، الله يقرفكم دنيا وآخرة».. «إلى الخرفان التي حوَّلت معبد بتاح العظيم إلى مقلب قمامة، حسبي الله ونعم الوكيل فيكم، إلهي يسخطكم خنافس يا رب، أنتم والحكومة التي تغض البصر عمَّا تفعلون».

ظلت ليلى تهبط بالصفحة حتى وصلت إلى يوم 25 يناير 2011، تأملت صورة داليا وهي رافعة علم مصر في ميدان

التحرير، وقرأت المكتوب تحت الصورة: «لو نجحنا سنحميها ونبنيها وننظف شوارعها».

تجولت ليلى في صفحات أصدقاء صلاح المجهولة، من الممكن أن تكون نور أي واحدة منهم، هي على كل حال صفحات فارغة من التعليقات والكلمات إلا بعض صور آثار ميت رهينة، تبدو هذه الصفحات كما لو كانت مفتوحة للتجسس، فأصحابها لا يكتبون فيها كلمة واحدة تدل على شخصياتهم الحقيقية.

تنتبه ليلى للمرة الأولى إلى صفحتها هي، صفحتها عليها كل شيء، صورها مع مايكل على الشاطئ بالمايوهات، وفي كل زاوية من زوايا شقتهما الصغيرة، وحتى على سريرهما، وهما يضحكان تحت سحابة من الريش المتطاير من وسادتهما، وهما يلعبان بكُرات الثلج في الشارع، وهما خارجان من المسرح، وهي تضع يدها على بطنها كاتبة تحت الصورة: «بعد سبعة أشهر يشرِّف ولي العهد». تحاول وضع نفسها مكان نور، إذا كانت مكانها، فلن ترد على مكالماتها لتعرف أخبارها، يكفيها فقط أن تدخل إلى صفحتها متجسسة، مرة في الصباح ومرة في المساء لتعرف كل ما تفعل أمها.

عرفت ليلى من عفاف التي تتصل بها كل يومين، أن صلاح سيتزوج داليا آخر سبتمبر القادم، دعت عفاف للست نور التي أعطتها دون أن يدري صلاح مئة ألف جنيه؛ لإعادة ترميم البيت وتخصيص الدور الثاني ليكون عش الزوجية لصلاح وداليا، هاتفة بصوت عالٍ: «ربنا يكرم نور بنت حواء وآدم يا رب».

كل ثلاثة ملصقات على صفحة داليا تنشر شريط علامة تحميل برنامج ما على الكمبيوتر، وتكتب فوقه: «باق من الزمن شهران»، ثم «باق من الزمن شهران إلا يومين، وتدخل داليا الجميلة القفص الذهبي، إهئ... إهئ».

تحتضن ليلى مايكل وتضع يدها على يده المرتاحة على بطنها وتهمس في أذنه: «إذا جاء ولدًا سأسميه نور، وسأربيه كي لا يشبه الدكتور نور، وإذا جاءت بنتًا سأسميها نور، وستكون جميلة وحنون ومتفائلة ومثقفة، وسأربيها لكي تشبه داليا».

******

جاء رمضان هذا العام في شهر يوليو، كان الجو حارق الحرارة، وكان الناس في ميت رهينة يسيرون صامتين تمامًا، ليست رغبة منهم، وإنما لأنهم غير قادرين على الكلام.

عندما دخل عليها صلاح قبل أذان المغرب بقليل، قالت لعفاف أن تجهز لهما الإفطار، وكان مرض نور المجهول يمنعها من الصيام، فهي بالفعل لا تأكل ولكنها تشرب الكثير من الماء وعسل النحل والتمر المنقوع في الحليب أو العصائر. نظرتْ إلى عينيه المحمرتين جراء عدم النوم ليومين على أقل تقدير. جاء صلاح ليسألها عمَّا كتبت أمها ليلى له، ولكنه فكر بمجرد أن رآها ألَّا يشير من قريب أو بعيد إلى رسالة ليلى.

تأمل صلاح جسدها الغريب الذي كان يزداد انتفاخًا في بعض الأماكن، كأن جلدها قربة امتلأت بالماء، انتفخت بطنها وأعلى

ذراعيها وقدماها اللتان تحولتا إلى كرتين كبيرتين بأظافرهما الغريبة التي تشبه حوافر ماعز، كانت تجلس حافية، وأصبح صلاح متأكدًا أنها ستموت قبل أن تستطيع ثانية انتعال أي حذاء أو حتى خفًّا كبيرًا، قال وهو يمسح شفتيه الصائمتين بلسانه لترطيبهما: «لا بدَّ أن يراك الدكتور يا نور».

ابتسمت نور بمرارة، وتحركت بنفاد صبر لتغلق الكمبيوتر، ردت على اتهامات وتساؤلات نظراته الصامتة بسؤال آخر: «ما أهم وأكثر الجرائم اكتمالًا في مصر يا صلاح؟» يشعر أن غضبه يفور في عروقه ويقترب من درجة الغليان، شكوكه لا تقف على قدمين ثابتتين، ويكاد يبكي لأن عقله مشوش، وخيل إليه أنها تسخر تحديدًا من هذا التشوش، يرد على سؤالها بسؤال: «هل تعرفين أن اختفاءات ميت رهينة تحولت إلى قضية فتنة طائفية؟»
تضحك نور بعصبية قائلة:
«لا والله. اذهب وقل لهم ما هذه العبقرية؟» وابتلعت ريقها وأضافت: «وما علاقة هند القاضي أو متولي الحرامي بالفتنة الطائفية؟».

كان الضابط محمد أبو العينين قد أضاف متولي الحرامي إلى قائمة المختفين في الآونة الأخيرة، وهم يحققون الآن في المادة المسجلة على تليفونات الثلاثة، الذين ابتلعتهم أرض ميت رهينة في يوم واحد، ولكنهم لم يستطيعوا بعدُ تحليل المكالمات أو التوصل إلى المقبرة التي يتحدثون عنها، والتي يقصدونها في حواراتهم، فميت رهينة كلها واقفة على مقابر ومعابد عمرها أكثر من خمسة آلاف عام.

اضطر الملازم أول محمد أبو العينين، وكما توقعت نور بالضبط منذ ساعتين، إلى تكذيب كل البيانات الصادرة عن وزارة الداخلية بشأن اختفاءات ميت رهينة وربطها بتجاوزات طائفية، وأكد أن التحقيقات الجديدة تشير وبقوة إلى بحث المختفين عن مقبرة ما مجهولة، ولقد أسفرت عن تورط الثلاثة المختفين بقضايا آثار ومخدرات، كانوا مثلهم مثل الكثيرين من أهل القرية، يقومون بالتنقيب عن الآثار، ويحلمون كل يوم بفتح مقبرة أو معبد ما تحت بيوتهم.

يشعر صلاح بأن نور تتحرك بثقل ولا مبالاة، كأنها وصلت إلى محطتها الأخيرة متعبة، بل منهارة، وتنتظر من الجميع أن يسمحوا لها بأن تستلقي على التربة لتنام أخيرًا، يغمغم بكلمات، تفهم منها أنه سيذهب للإفطار في منزله مع داليا، فهي مدعوة مع أمها إلى الإفطار عندهم اليوم، تغمض عينيها وتستمع إلى أذان المغرب بصوت الشيخ محمد رفعت، وتشم روائح أطعمة شهية لا تستطيع تناولها... شيء ما يجعل لشهر رمضان رائحة سوى الطعام والشراب وقرع طبلة المسحراتي ولعب الأولاد في الليل بالفوانيس الملونة، تفتح عينيها وقد وصلت إلى مصدر هذه الرائحة... إنها رائحة أرواح الناس، وهي تحاول جاهدة أن تشف عن الأجساد، فيتصاعد قبس منها هنا أو هناك.

ثمة شجن يتسلل إلى قلب صلاح، ويؤكد له أنها مسألة أيام أو حتى ساعات لتختفي نور من ميت رهينة إلى الأبد. رأى هذا في عينيها المنطفئتين اليوم، رأى فيهما ظلًّا أسود غريبًا، وكأن هيكلًا أسود ما كان يقف أمامها ولا يراه سواها.

تلكأ أمام بِركة هاجر عله يستمع من جديد إلى هذا المواء البشري، ولكنه لم يسمع شيئًا، هل كانت نور تصدر هذا الصوت حتى تُخيفه؟ نعم كثيرون لديهم موهبة إصدار أصوات من بطونهم، ولماذا تفعل ذلك؟ تكاد تميته الشكوك حول تصرفاتها منذ أشهر، يتناول غصن شجرة صفصاف، وينهمك في تكسيره وإلقائه على حافة ترعة المريوطية طوال طريق عودته إلى بيته، فلعل الغصن المتكسر يُنبت أشجارًا، تُظلل المارة وتداوي آلام هذا الصداع، يمسك رأسه ويعزُّ عليه النوم، فالأفكار تتصارع فيه وتدور حول نفسها، ربما لأنه يرفض تصديق شكوكه.

نعم، نور غريبة الأطوار، ولم ير أو يسمع أو يقرأ عن مخلوق مثلها، ولكنها كانت طوال عمرها نقية وحكيمة. يكاد يُجن وهو يتساءل: أين ذهب بالفعل ابن ستيتة؟ ولماذا كتبت إليه أمها ما كتبت عن اختفاء الدكتور نور الدين، هل لنور علاقة بما يحدث في ميت رهينة؟ أم أنها فقط توصلت بعقلها الاستثنائي إلى حل لغز ما يحدث، وهي تستمتع الآن كعادتها دائمًا باختباره؟!

يجلس فجأة على حافة الترعة مؤجلًا مواصلة سيره إلى البيت، يتأمل القصر الأخضر، الذي استحال لونه إلى درجة من درجات اللون الأصفر كأنه شاخ بدوره، كانت درجاته الرخامية تبدو مثل الحلم في طفولته، كانت بيضاء وشديدة الجمال وتنثر ضوءًا خافتًا ينير المكان، يتذكر أنهما (هو ونور) جلسا عليها وهما تقريبًا طفلان... يتذكر أن الوقت كان صيفًا، وأن الليل قد هبط عليهما كعادته فجأة، حين سألته بصوتها العالي المتحشرج الغريب: «لا أعرف يا صلاح ماذا أفعل، هل أؤمن بالله وأغضب منه لأنه خلقني على هذه الصورة، أم أعتبره غير موجود وأن الأمر له

علاقة بخطأ الجينات وتحولاتها النزقة، فألعن الطبيعة؟». يتذكر جيدًا أنه لم يرد آنذاك، ولكنه يتذكر جيدًا أيضًا أنه أصابته رعدة؛ فقد كان جسد الطفلة الغريب، الملاصق لكتفه، يرسل ريحًا صرصرًا غريبًا في عزِّ شهر مايو.

******

ضحكة ميت رهينة

يشعر الخارج من ميت رهينة أن رائحة الهواء الحارقة تطارده... يتلفت وراءه خوفًا من هسيس أصواتٍ تلاحقه، ومن ظلال كائنات غير محددة المعالم تجري وراءه، يخيل إليه أنه يرى فتاة جميلة تستند إلى أحد الأعمدة المتفحمة جراء حريق حديث، بجلبابها الفلاحي وطرحتها الشيفون، تتأمل الأفق البعيد وهي ساهمة ومبتسمة.

يحسُّ الغريب الخارج من ميت رهينة أن الهواء قد سكن فوق رأسه فجأة، وتنتابه قشعريرة وهو يتابع هروب فأر أسود بين نوارات ذيل القط البيضاء.

يحاول الغريب إيجاد وصف للرائحة التي تحتل أنفه بتحليلها إلى عناصرها الأولى: جوافة مقطوفة من شجرها لتوها... طمي ترك أرضه... وقبل أن ينجح في إيجاد وصف محدد للرائحة سيفتح عينيه من جديد ليرى الرجال في جلالبيبهم البيضاء وقامتهم الفارعة، وهم متحلقون هناك حول شجرة توت عجوز، ثابتون في أماكنهم كأعمدة بتاح، يبدون وكأنهم يمشون ببطء في مكانهم، وهم يشبهون الإله بتاح كثيرًا، الإله الوحيد بين الآلهة المصرية القديمة الذي له هيئة بشرية لأنه إله البعث والحجارة والصناعة والفنون.

يهز الغريب رأسه كأنه فهم شيئًا أخيرًا، ويظل متأرجحًا بين مقام البقاء ومقام الغياب، تودعه نظراتُ الفتية الساخرة وضحكاتهم

العالية، فيطلق ساقيه للريح ولا يفكر مرة ثانية أن يلتفت خلفه أبدًا.

وقف صلاح أمامها بثبات، كانت هيئته المشعثة تعلن بوضوح أنه واصل عدم نومه طوال شهر رمضان. كانت البيوت مفتوحة لاستقبال عيد الفطر، بعد أن أعلنت دار الإفتاء المصرية حلوله غدًا، وظلت
أم كلثوم تغني وتعيد «يا ليلة العيد أنستينا».

اتكأت نور على الفوتيه الكبير المفضل عندها في غرفة المكتب، شبه نائمة، كانت عفاف قد غطتها بملاءة خفيفة، لا يستطيع صلاح تصور أنها ما زالت حية حتى هذه اللحظة، فهو لم يعد يشم رائحة المقابر عند الاقتراب منها؛ وإنما أصبحت رائحتها تجسيدًا مثاليًّا لرائحة الموت نفسه.

شك كثيرًا أنها ستستطيع الحديث معه، خصوصًا ووجهها يبدو منتفخًا ومنقبضًا وملونًا بألوان الطيف ومروعًا كخرقة بالية، وجد صعوبة شديدة في تحديد مكان عينيها خلف نظارتها التي غاصت في ورم وجهها، وبدت كأنها التصقت به إلى الأبد.

عندما دخلت عفاف عليهما هاتفة: «العيد بكره، كل سنة وأنتم طيبون»، أشارت نور لصلاح أن يحضر لها اللاب توب، وقالت لعفاف: «صلاح يبقى معي، وارجعي أنت إلى البيت، خذي الكمبيوتر إلى داليا، لتطبع كل ما عليه، لكي يراجعه صلاح فيما بعد... هي كُتب جدي أدهم الشوَّاف يا صلاح»، وأضافت بصوتٍ متحشرج مبتسم على ما يبدو: «سنستقبل العيد معًا يا صلاح».

بمجرد أن خرجت عفاف، قال صلاح بصوت متحدٍ وهو يقترب منها: «ريّا وسكينة يا نور»، «جرائم ريّا وسكينة هي أكثر الجرائم اكتمالًا في مصر يا نور». صاحت على الفور:

- «براڤوووووووو، أخذتَ وقتًا، ولكن الإجابة صحيحة»، «ولماذا هي أكثر الجرائم اكتمالًا يا صلاح؟».

- «لأنها تشبه جرائم ميت رهينة تمامًا، كانت دون جثث، وعندما لا توجد جثث لا توجد جريمة».

- «براڤوووووووو».

- «وبالتأكيد الدافع هنا البحث عن مقبرة أرض الشوَّاف المختفية».

- «عليك أن تكتبَ أولًا قائمة القتلى بشكل صحيح حتى تتوصل إلى الدافع الحقيقي».

- «ما يحيرني في هذه القائمة هو وجود الشيخ خالد الطوبجي، فهند القاضي وفانوس جرجس ومتولي الحرامي يحفرون الأرض ليلًا ونهارًا، وهذا يعرفه كل أهل ميت رهينة، ولكن الشيخ خالد لم يكن نابشًا للآثار أو باحثًا عنها، ومن ثمّ فهو يمثل نشازًا في هذه القائمة».

تمتمت بصوت ضعيف تشوبه السخرية: «اممممم، لم يكن نابشًا للآثار! ربما كان نابشًا لأشياء أخرى»... ثم جاهدت لكي يخرج صوتها أوضح: «هذا إذا افترضنا أن قائمة الشرطة كاملة، ولكن

فلنفترض أن عبد الموجود لم يقتل أباه، بل كان عبد الجبَّار ضمن هذه القائمة».

فتح صلاح عينيه على آخرهما مرعوبًا، ولكنه تماسك وقال وهو يجزُّ على أسنانه: «ولكن عبد الجليل اعترف أن أخاه الأكبر عبدالموجود قتل أباه وأخفى جثته».

- «ومن أين لنا أن نعرف أن عبد الجليل الابن الأصغر رفض الاستماع إلى أخيه، وقتله بناءً على افتراض أن أخاه الأكبر قاتل أبيه؟ لم يقترف عبد الموجود جريمة إلا جريمة الاعتداء على قواعد الموتى، خطؤه الأوحد هو محاولة الاستيلاء على الحشيش، المخبأ في بطون الجِمال دفعةً واحدة، وليس وفقًا للجداول التي وضعها عبدالجبَّار، كما ترى يا صلاح: تغيير قواعد الموتى أكثر مقاومة وصعوبة من تغيير قواعد الأحياء».

- «حتى إضافة عبد الجبَّار إلى القائمة لا تخرجنا من الدافع المفترض: البحث عن المقبرة».

- «وإذا أضفنا إلى القائمة ابن ستيتة، هذا الذي لم يكلف أحدٌ نفسه بالسؤال عنه، عندما اختفى، وكأنه لم يولد على هذه الأرض؟».

يصمت صلاح، وهو ينظر إليها بيأس وازدراء، لم يعد يستطيع إخفاءه، فتواصل:

- «وإذا أضفنا سلمى إلى هذه القائمة».

يفقد صلاح قدرته على النطق ويفتح فاه، فتواصل:

- «طيب، فلنفترض أن الشيخ برهامي كان ضمن هذه القائمة».

يهمس وهو مأخوذ وقد بدأت يديه في الارتعاش:

- «ولكنه مات محترقًا، وأنت تعرفين».

- «فلنفترض أن مَن مات محترقًا في الكوخ هو عزوز بن بهانة، هذا الذي لم يكلف أحدٌ نفسه بالبحث عن مصيره وكأنه لم يعش بيننا أبدًا. فلنفترض أنه كان في الكوخ لأنه عشيق منصورة، وقد وجدت منصورة في احتراقه فرصة ذهبية، أولًا: للتخلص من فضيحة حملها، وإصرار عزوز كعبيط وقع بالفعل في محبتها، أن يعترف للشيخ برهامي بكل شيء ليعيش معها ومع طفلهما القادم إلى الأبد، وثانيًا: لكي ترث الشيخ برهامي، الذي تعرف أنه قد مات- دون شكٍّ- بطريقة ما بعد اختفائه ليومين متتاليين».

- «يعني... هل تقصدين أنه مجرد سفَّاح دون دافع؟».

- «لا يوجد سفاحٌ يقتل لمجرد القتل يا صلاح، فالسفاح أو...».

ثم صمتت طويلًا، واستشعر أنها تنظر إليه دون أن يرى عينيها المتورمتين شبه المغلقتين، قبل أن تواصل:

- «... أو السفاحة يقتلون من أجل فكرة».

يضع كلتا يديه على رأسه كمَن احترق حصاده حتى آخر قشة، رافضًا التصديق، ليتها ماتت في سلام، دون أن تعترف له هو

بالذات، ليتها لم تفعل، يتمتم وهو يكظم غيظه حتى لا يجهز عليها:

- «فكرة! أي فكرة تدعو المرء إلى قتل كل هؤلاء يا نور؟».

- «تأمل معي القائمة الجديدة يا صلاح، تأملها، إنها تشكيلة مثالية للمسئولين عن ضياع ميت رهينة... عن ضياع أقدم عاصمة في مصر القديمة: تجار آثار ونابشي قبور جشعين، دجالين لديهم استعداد لفعل أي شيء حتى اغتصاب الأطفال، رجال دين كذابين وأفاقين ونصابين، رجال أعمال ومخدرات، وبنت حرام رأيت في عينيها قدرة استثنائية على تدمير القرية ومَن عليها».

نهض صلاح واقفًا أمامها، وعيناه تزدادان احمرارًا:

- «ما يحيرني يا نور، أنك لا تقوين على حمل جسدك، فكيف أوصلتِ كل هؤلاء إلى قبر ما، أفكر الآن في مَن يا تُرى كان شريكك، أستبعد الآن هاجر، فلقد اختفت قبل ارتكاب جرائمك الأخيرة، هل كان الخفير الأخرس، لا أظن، فهو حي يرزق، هرب من أرضكم الملعونة، وهو يعمل الآن في أرض العمدة، مَن يا نور؟!».

ثم هطلت دموعه أخيرًا وارتفع نشيجه، وبات من الصعب السيطرة على حروف كلماته: «أنتِ مثلهم تمامًا، إرهابية، سفَّاحة، فهم ما هم عليه أيضًا من أجل أفكارهم، والقضاء عليهم يكون بالقضاء على أفكارهم، هل تتصورين بالفعل أنكِ قضيتِ عليهم؟ أبدًا... إنهم يتناسخون كل يوم، ويتناسلون في أناس

آخرين، أستطيع الآن أن أشير لك إلى عشرات مثلهم في ميت رهينة».

كان نشيجه يعلو أكثر وأكثر:

- «إنهم هم تحديدًا مَن سأستهدفهم لأعلمهم، وأحاول تغيير أفكارهم، لأمنحهم فرصة ليتغيروا ولو في اليوم الأخير من حياتهم، من حقهم هذه الفرصة يا نور، والله، كانت هذه الفرصة من حقهم».

حاولت أن تشيح بيدها المتورمة، وتنهدت قائلة بصوت متحشرج:

- «فات أوان هذا الكلام».

حاولت النهوض ففشلت، ووقع جذعها ثانية على الفوتيه، كان يستمع إلى أزيز رئتيها، وهي تحاول سحب القليل من الهواء إليها. نظر إلى الأرض الخشبية الباركيه بريبة، ودق عليها بحذائه، علَّه يستمع إلى صوت أجوف يشير إلى فضاءٍ ما تحتها، ولكنها بادرته بما يشبه السخرية: «ليسوا تحت الأرض طبعًا يا صلاح، هل تسخر من ذكائي؟! ثم إنك تعرف أن القصر لا يوجد به بدروم، هل تظن أنني سأكرر حتى طريقة إخفاء الجثث في جرائم ريا وسكينة؟».

طلبت منه أن يسحب مجلد ألف ليلة وليلة الضخم من مكانه في المكتبة، كم أمسك بهذا المجلد الضخم! وكم فتحه ليعيد قراءة حكاياته الممتعة أكثر من مرة! الآن فقط يفهم، الآن فقط ينظر

بوجل إلى الأسد المحفور على ظهر هذا الرف، كان يعرف أن ظهر الأرفف الداخلية كلها ملساء خالية من الرسوم.

لقد رآها مئات المرات، كان الأسد المتفرد أمام عينيه طوال الوقت تقريبًا، يعرف مكانه مذ كان صغيرًا يقف على كرسي ليصل إلى هذا الرف، ولكنه لم يتساءل أبدًا لماذا طلب أدهم الشوَّاف من نجار ما إن يرسم له بالحفر هذا الأسد المكشر عن أنيابه هنا تحديدًا ودون بقية أرفف المكتبة؟!

طلبت منه نور بصوت متحشرج يضعف، لحظة بعد لحظة، أن يحمل كشافًا ضخمًا، وأن يضغط على ناب الأسد الأيمن الأحمر، وأن يترك هذه المرة الباب السري مفتوحًا.

تقريبًا حملها حملًا، ودخلا، استمع إلى المواء الغامض الذي كان يعلو، ويتضح الآن أنه صوت بشري يحاول الخروج... هذا المواء الذي استمع إليه خافتًا من قبل، ولم يستطع تمييزه، حذرته من الوقوع من أعلى السلالم الحجرية الملتوية على نفسها فيما لا يزيد على المترين، وضعها لتتكوم على نفسها خلف باب المكتبة المفتوح، فصارت مثل كرة هلامية باهتة، وواصل هو الهبوط وحده.

******

عندما أخذت داليا من عفاف الكمبيوتر المحمول الخاص بنور، لم تفهم ما قالته لها بالضبط عن طباعة كتب ما، وقررت أن تنتظر عودة صلاح، كانت جالسة مسترخية مع حنان أخت صلاح

الصغرى أمام التليفزيون، فلقد عملت طوال اليوم في كنس ومسح شقتهما في الدور الثاني، بعد أن تركها النقاش والكهربائي شبه مقلب قمامة، أخذت مقاسات غرفة النوم الكبيرة وغرفة نوم الأطفال؛ لاختيار أثاث مناسب لهذه المساحات الصغيرة.

تشاجرت مع صلاح قبل أن يذهب حول ألوان الدهان الغريبة الشاحبة التي لون بها الجدران، صارخة طوال الوقت في وجهه بأنه شديد الذكورية؛ لأنه لم يسمح لها بأن تقف مع النقَّاش لتدله على مزج الألوان للحصول على لونها المفضل، كما أن مفاتيح الكهرباء لم توضع في الأماكن التي تريدها أيضًا، ونتيجة اكتفائه بنقل رغباتها في ألوان شقتهما أو تحديد أماكن وضع مفاتيح الكهرباء نتجت هذه الفوضى التي اعتبرتها كارثية.

تغطي داليا أمها التي نامت وهي جالسة أمام التليفزيون، تتفرج على آخر حلقات مسلسلات رمضان، وتتابع حنان وهي تغني أغاني العيد التي يبثها التليفزيون، وهي مشغولة البال، فجأة ترى فم حنان وهو يردد «العيد فرحة»، دون أن تسمع صوتها، كانت تستمع بوضوح إلى ما يشبه نشيج صلاح، نظرت إلى حماتها عفاف، فوجدتها جالسة على الأرض، جلستها المفضلة، ويدها على خدها، وملامحها ساهمة.

انقبض قلبها، فتناولت الكمبيوتر وفتحته، وجدت على سطح المكتب أربعة ملفات، أسماؤها بالترتيب: «مُدن البنفسج» الأشعار الكاملة بقلم: «أدهم الشوَّاف»، «نحو المهد» سيرة ذاتية بقلم الشاعر: «أدهم الشوَّاف»، «جذور الفتنة» بقلم: «أدهم

الشوَّاف»، بينما كُتب على الملف الرابع: «نور»، ففضلت أن تفتحه أولًا لتقرأ:

«أتذكر أنه كان يوم جمعة، وكنت قد أكملت الثالثة عشرة، بل تجاوزتها بقليل، حين اكتشفت الباب السري في المكتبة. كنت قد أغلقت عليَّ هذا الباب غاضبة، بعد أن استمعت إلى حوار جاف وقصير جدًّا بين جدتي هاجر وأمي ليلى الشوَّاف؛ حيث قالت لها هاجر بصوت قلق به مسحة خجل: «نور لم تأتها دورتها الشهرية، لم تبلغ مثل بقية البنات»، فأجابت ليلى متبرمة وهي تعطي لها ظهرها وتمضي: «كنت سأدهش إذا حدث العكس يا أمي، فالشياطين
لا تحيض يا هاجر».

اكتشفتُ أن هذا الباب هو انتقام جدي أدهم الشوَّاف الأكثر مثالية وإثارة للإعجاب، فلقد جعل عبد الجبَّار يضيِّع عمره هدرًا بحثًا عن مقبرة لن يجدها أبدًا، مهما حاول حفر كل شبر في الأرض، فلقد كانت أمام عينيه طوال الوقت، ولم يستطع مد يده ليفتحها... ببساطة وضع جدي خرسانة فوقها وحول محيطها بشكل دائري، يمتد إلى عشرة أمتار حول مساحة البِركة، ثم وضع على الخرسانة بلاطًا من القيشاني المستورد الأبيض المزركش بدوائر سوداء، وزوده بعدد كبير من المضخات والإكسسوارات، ليكون حدود بِركة هاجر التي ملأها بمياه النيل الخضراء الرقراقة، وهكذا اختفت المقبرة عن عين عبدالجبَّار إلى الأبد.

ولأن جدي كان يحب ميت رهينة فعلًا، وكان يكره لصوص المقابر، فلقد حافظ على كل ما فيها حتى هذه اللحظة، ومذ سرق

عبد الجبَّار بعض ذهبها معتقدًا أنه أثمن ما فيها. أدهم الشوَّاف نفسه هو مَن قادني إلى مكان المقبرة والسرداب السري، حيث كتب في مخطوطه لابنته ليلى، أكثر من مرة، في الهوامش البيضاء على جوانب الصفحات المسطرة عنوان: «ألف ليلة وليلة»، وتحته رسم أسدًا مكشرًا عن أنيابه، وكان دائمًا ما يلون نابه الأيمن بالحبر الأحمر..

أمي ليلى الشوَّاف لم تر، ولم تستطع فهم مخطوطه وفك شفراته وإحالاته ومراجعه ورسومه، فليلى مشغولة بجسدها وتلبية رغباته طوال الوقت... في ذلك اليوم ضغطت ضغطة قوية وطويلة على ناب الأسد الأحمر فدارت المكتبة حول نفسها وأزاحتني من أمامها، وعندما دخلت من باب المكتبة السري، هبطتُ على الدرجات الحجرية إلى ما يعادل الطابقين، وفهمت فورًا ما يريده جدي... فلقد حفر سردابًا طويلًا على عمق طابقين، كان السرداب متشعبًا وكله أسفل البيت حيث لا يمكن لعبد الجبَّار الحفر، ثم يصعد هذا السرداب بدرجات حجرية إلى المقبرة حيث مكانها: تحت بِركة هاجر تمامًا.

وهكذا فهمت أخيرًا لماذا كان الجانب الأيسر للبِركة ملتصقًا هكذا بالقصر ولا يفصله عنه سوى عشرة أمتار مغطاة بالسيراميك الأبيض.

سرعان ما وجدت نفسي في المقبرة بعد أن عبرت السرداب المظلم، وصرت أستمع إلى صخب الأطفال وأصواتهم العالية، وهم يسبحون ويضحكون فوقي، بحثت طويلًا عن الفتحة التي تصل إليَّ منها أصواتهم حتى وجدتها... إنها عبارة عن ماسورة

صرف فارغة وملتوية حول نفسها، ستصل لا محالة إلى بلاطة أعلى سور الحمام، وهي مختلفة عن جميع البلاطات الأخرى؛ حيث إن ثقوبها ليست نقاطًا سوداء كبيرة في السيراميك الأبيض، وإنما ثقوب حقيقية تمد المقبرة بالهواء النقي..

قبل أن أدخل إلى المقبرة للمرة الأولى لأتأمل بذخها وجمالها، وجدت أمامي على أرض السرداب ما يُشبه غطاء مجارٍ، كأنه مصنوع حالًا، وما زال حديده يلمع، أمسكت بمقبضه وفتحته، لأهبط درجات حجرية أخرى، وأتحمل رائحة لا تُطاق، اكتشفت أنها مقبرة حديثة تحت المقبرة الفرعونية، ظللت أنظر بفزع إلى هيكل عظمي وجمجمة وحيدة راقدة على الرمل بسلام...

ومنذ هذا اليوم وأنا أبحث في مخطوط جدي، وأجمع حكايات أهل القرية عنه، منذ وطئت قدماه ميت رهينة حتى غادرها في تابوت مصنوع من خشب الأرو اللامع، قالوا إنهم شاهدوا ما يشبه الدموع عليه، ولكنني فشلت أن أعرف مَن هذا الذي دفنه هنا تحديدًا، وهل كان رجلًا أم امرأة؟..

في هذه اللحظة تحديدًا، قررت تنفيذ فكرتي، فماذا لو أنني دفنت كل مَن أساءوا إلى ميت رهينة في هذه المقبرة؟! أي إنني سأحاول تحريك طبقات التاريخ قليلًا، فتعلو هذه المقبرة الفرعونية الرائعة مقبرة حديثة، تحوي رفات مَن يحملون في أجسادهم ملامح لحظة زمنية منحطة»...

صرخت داليا هاتفة باسمه: «صلاح»، ثم أمسكت كتفي عفاف بيديها المرتعشتين، وصرخت في وجهها: «ابنك وحده مع سفَّاحة

ميت رهينة»... خطفت جلباب عفاف وغطاء رأسها، وتركتها تبحث عمَّا تلبسه، وهي بالفعل لا تفهم شيئًا ولكنها تحاول جاهدة اللحاق بها.

******

واصل صلاح طريقه بالمشي في السرداب المعتم، كاد يتعثر في الكرسي المتحرك الذي اشترته ليلى لنور منذ شهور، دخل إلى المقبرة الفرعونية وأنارها بكشافه ليرى الدكتور نور جالسًا على كرسي خشبي كبير، وقد قُيدت ساقاه وذراعاه بسلاسل متينة عليها أقفال، عاد بسرعة إلى الكرسي المتحرك حيث لمح عليه سلسلة مفاتيح ومسدس فضي عندما مرَّ أمامه، سارع بفك قيود الأسير، ودلك له ساقيه وذراعيه وأطلقه ليتحرك في مكانه كأنه يحاول تعلم المشي من جديد، ولكن الدكتور نور ظل واقفًا منحنيًا، يحاول فكَّ قرفصة عام تقريبًا، كان وجهه منقبضًا على ما يشبه ابتسامة متشنجة بلهاء.

انتظر صلاح أن يحدثه، ولكنه واصل مواءه، ولم يستطع تحريك لسانه، فصرخ صلاح في وجهه: «اجرِ، اخرج من هنا». ظل الدكتور نور يتعثر وينهض مثل طفل في الثانية من عمره حتى استقامت خطواته، وظل يطلق مواءه حتى استقامت أخيرًا صرخته، اطمأن عليه صلاح، عندما استمع إلى صرخته المرعوبة العالية، وخمن أنه لا بدَّ وأن يكون قد تعثر في نور المكورة حول موتها، خلف باب المكتبة السري المفتوح.

لا يدري صلاح من أين أتته القوة ليغلق عليها باب المكتبة السري بعد خروجه من السرداب، ودعها بنظرة أخيرة، لم تكن عيناها مرئيتين في هذه الكتلة البنفسجية المتورمة، تلفت حوله وكان يستمع إلى أزيز قدميه على الأرض الخشبية.

وقعت عيناه على شيء غريب انتبه إلى وجوده الآن فقط، يبدو أنه عبوة ناسفة كبيرة الحجم، هل كانت تجلس طوال الوقت على عبوة ناسفة بدائية الصنع أمامه؟! لم يتردد لثانية واحدة، أتم لها ما حلمتْ به، حيث تناول الكبريت الذي تركته له، وأشعل فتيل العبوة المتفجرة، وسارع بالهرب إلى خارج القصر، ثم وقف ليتأمله من بعيد، واضعًا يديه على أذنيه، وهو يتأمل ألسنة النيران المتصاعدة إلى السماء.

يغمض صلاح عينيه قليلًا لترتاحا من لهيب النيران، ليرى الكابوس الذي سيظل يطارده حتى آخر يوم في عمره...

يرى نور وهي تتقدم بخطواتها العجوز الثابتة لتفتح باب المكتبة، تسوق ضحاياها أمامها وتغلق خلفهم الباب إلى الأبد، تحذرهم لكي لا يتعثروا بالدرجات الحجرية التي أمامهم، ثم تواصل الهبوط واضعة في ظهورهم مسدس جدها الفضي، وما إن تتعثر أقدام ضحاياها بحلقة المقبرة المعدنية حتى تطلق عليهم الرصاص بدم بارد، ثم تدخل على الدكتور نور.. تحرر يديه من القفل الحديدي، وهي مصوبة نحوه مسدسها، ثم تعود لتقف على أول الدرج الحجري، آمرة إياه أن يقوم بعمله، يحمل الجثث التي ما زالت دافئة على كرسيها المتحرك...

تستمر صلصلة قيود قدميه الحديدية إلى أكثر من ساعتين، يشد مقبض المقبرة الحديدي فيفتح بابها، ويسوق الكرسي المتحرك بحمولته الثقيلة حتى يلقيه في المقبرة ثم يهبط خلفها، ليقوم بعملية الدفن، وهو حريص كل الحرص أن يدفنها بشكل صحيح حتى لا تخرج عليه الديدان والثعابين الصغيرة، يصعد بعد أن يغلق باب المقبرة من جديد إلى المقبرة الفرعونية الرائعة ليتنفس هواء نقيًّا، يجلس على كرسيه مغلقًا قفل يديه الحديدي بنفسه حتى لا تصوب نور عليه الرصاص، وعند هذه اللحظة فقط تقترب منه لتطعمه وتسقيه وتسمح له أن يقضي حاجته في القصرية الكبيرة التي تحرص على تنظيفها كل يوم بالصابون والديتول.

يلمح صلاح شبحين يهرولان نحوه من بعيد، يعرف أنهما- دون شكٍّ- داليا وأمه، على وجهه ابتسامة متشنجة، ولكنها ثابتة، وتوحي بالسلام.

سأل داليا عمَّا إذا رأتْ رجلًا كهلًا ذا بشرة بيضاء وشعر أصفر يهرول في الغيطان، فهزت رأسها نفيًا، ولخصت له ما جاء في مخطوط نور، عن اكتشافها لجثة دفنها جدها أدهم الشوَّاف في مقبرة بالسرداب، صمت صلاح فترة قبل أن يبتسم بمرارة، مرددًا كأنه يحدث نفسه:
«لا بدَّ وأنها جثة عمَّار المصري».

كان قصر الشوَّاف هو آخر بناء شيده المهندس عمَّار المصري، وبالتأكيد هو مَن اخترع باب المكتبة السري وأسس بيديه السرداب المتشعب الطويل ليدفنه أدهم في نهايته؛ لكي يظل أمر القصر وسردابه سرًّا، دون شكٍّ، هذا هو السبب الوحيد الذي

اضطر أدهم إلى قتله، وظن أنه سينساه وسيواصل حياته بهدوء مع هاجر، ولكنه وبعد عام واحد فقط، وقع فريسة القنوط والحزن والإحساس بالذنب فمرض مرضًا مجهولًا، بعد فشله في الهروب من شبح المهندس عمَّار المصري، وتأكده أن المهندس أخذ جزءًا من روحه معه إلى القبر، أثناء تشبثه بيدي أدهم وهي تقبض بقوة على عنقه ليموت مختنقًا.

انفرجت أسارير صلاح، وضحك فجأة، وضع ذراعه على كتف داليا ليحتضنها، وكان يهز رأسه، وهو لا يمل من النظر إلى بِركة هاجر، وبصوت مرحٍ عالٍ قال لداليا:

- «تعالي أحكي لكِ حكاية المهندس عمَّار المصري، كما حكتها جدتي تبارك لجدتي رحمة، وكما حكتها جدتي رحمة لي».

جلسا على ربوة عالية طوال الليل حتى خمدت النيران، ولم يتبق في الأفق إلا أعمدة الدخان الأسود، أمطرت السماء على غير عادتها في هذا الوقت من السنة، وبددت الدخان، وسُمعت تكبيرات العيد من بعيد وهي تعلو مع تفتح الصباح.

تحول الليل إلى نهار فجأة ودون سابق إنذار حيث أشرقت الشمس كعادتها، التي لم تخلفها في ميت رهينة منذ آلاف الأعوام، ومع تواصل صعودها إلى منتصف السماء، كان قصر أدهم الشوَّاف قد اختفى، كأنه لم يوجد يومًا على هذه الأرض... كانت وحدها بِركة هاجر هي الباقية والناجية، وبدت من بعيد ببلاطها الأبيض المغسول بماء إطفاء الحريق، كأنها ضحكة واسعة على وجه الأرض السوداء.

******

القاهرة 2016

«أي تشابه بين شخصيات وأحداث هذه الرواية وأية شخصيات وأحداث في الواقع هو محض مصادفة».